

# تفسير القرآن الكريم بين القدامى والمحدثين

■ مه قال في كتاب الله عز وجل برأيه فأصاب فقد أخطأ ..

"حديث - أخرجه أبو داود والترمذي اللفظ لأبي داود - عن جندب سنن أبي داود في كتاب العلم - باب الكلام في كتاب الله بغير علم ج ٣ ص ٣٣ .

■ أى أرض تقلني، وأى سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله برأى أو بما لا أعلم .

أبو بكر الصديق .

■ ثلاثة كتب لا أصل لها: التفسير والمغازي والملاحم .

الإمام أحمد بن حنبل .

■ ليس المهتم الآن تفسير القرآن ولكنه تنوير القرآن لأن في هذا إعادته إلى رسالته الأولى :  
إخراج الناس من الظلمات إلى النور .

جمال البنا .

لم تتعرض في هذا الكتاب لدعوى النسخ إلا لصفحات معدودة  
لإعطاء القارئ فكرة عامة. أما تفصيل القول فيه فسيكون موضوعاً لكتاب  
بعنوان "تفنيد دعوى النسخ" يصدر في هذه السلسلة إن شاء الله ...

## مُتَلَمَّة

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

فى رجب من عام ١٤٠٢ هجرية - مايو ١٩٨٢ أصدرت كتاب "الأصلان العظيمان - الكتاب والسنة" حاملاً "رؤية جديدة" لهذين المنبعين العظيمين للإسلام. ورأى الذين أطلعوا عليه أنه يمثل فعلاً رؤية جديدة. فقد كان ختام مرحلة طويلة من التفكير، وتضمن اجتهادات تختلف عن الفكر الشائع والمقرر .

مع هذا، فإن عشرين سنة مضت منذ صدوره جعلت الرؤية التى كانت جديدة - قديمة بالنسبة لما انتهى إليه الفكر والاجتهاد طوال عشرين عاماً بحيث حدث تطوير جذرى لما كانت عليه الرؤية فى تلك الفترة السابقة

ولما كانت نسخ "الأصلان العظيمان" قد نفذت من وقت طويل، وألح عدد من الأصدقاء على إعادة طبعه رأيت أن أحقق مطلبهم بطريقة جديدة تلك هى أن أطبع كل باب من أبوابه الهامة على حدة كما صدرت، وأضيف إليها ما تطور إليه الفكر خلال العشرين عاماً وهما يكملان بعضهما - فلا يفهم التطوير ما لم يفهم الأساس الذى قام عليه هذا التطوير.

وبدأنا بالفصول الثلاثة الأولى التى تشغل الصفحات من ١١٣ إلى ١٢٨ دون تقيد حرفى وهى عن "تفسير القرآن بين القدامى والمحدثين" وكانت تشغل الصفحات من ٤٣ إلى ١٢٨ وكان يقف فيه عند التفسير العصرى الذى تقدم به الدكتور مصطفى محمود وأوردنا مقالات الدكتور أنبه الشاطىء التى نقدته فيها .

فأضفنا إليه ما جاء فى الجزء الأول من كتاب "نحو فقه جديد" (وهذا الجزء معظمه عن القرآن الكريم). وكذلك إضافات مما جاء فى كتاب "تثوير القرآن" .

كما زيدت إضافات لم تقيد فى أى كتاب من كتبنا، وكأنها كانت تنتظر هذه الطبعة فأدرجناها ...

بهذه الإضافات زادت هذه الفصول الثلاثة من كتاب "الأصلان العظيمان" قرابة ضعف الأصل. وأصبح يضع القارئ مع آخر ما أصدرناه عن تفسير القرآن .

\* \* \*

لقد صورنا موقف العلماء قدامى ومحدثين من القرآن الكريم وسنة الرسول فى مقدمة "الأصلان

العظيمان" فقلنا :

**ما أكثر الكتب والمجلدات التى صدرت عن الكتاب والسنة .**

أجيال بعد أجيال وأعمار تلو أعمار طوال أربعة عشر قرناً متوالية وعلى امتداد أربعة أركان الأرض. والعلماء - من أعماق أفريقيا إلى مشارف سيبيريا يعكفون على كلام الله وحديث رسوله يحتسبون عند الله ما يلقون من مشقة وما يضحون به من عمر وما يكابدون من سير وترحال بحثاً عن مرجع أو تثبتاً من حديث... أو سماعاً من شيخ ويعتصرون أذهانهم في شرح غامضه وتيسير عسيره.. وما أن يظن واحد منهم أنه أشفى على الغاية أو قارب النهاية حتى يتبدى أفق جديد لفضله يبدأ حيث انتهى الأول ثم يتكرر الأمر معه كما تكرر مع من سبقه .

كل هذا والكتاب المجيد والسنة المطهرة كبحرين طامنين لا يلحقهما نقص ولا يمسهما لغوب ينفسحان لكل بحار ويرزقان كل صياد ويعطيان كل واحد حسب جهده ولا يخيبان أمل أمل أو عمل عامل] .

هذه العاطفة المتجذرة في قلوب المسلمين نحو القرآن الكريم لا تزال قوية، متجددة، لم تشحب شعلتها ولا انكسف نورها، ولكن الجديد أن هذه العاطفة المشبوبة امتدت من القرآن إلى تفاسير القرآن. وهو تطور وإن كان يبدو طبيعياً، إلا أنه في حقيقة الحال يمثل نوعاً من الانزلاق والتحول من الأصيل إلى الوكيل. وقد كانت ثمرة مطالعاتي للتفاسير عبر خمسين عاماً مخيبة، بل رأيت فيها شيئاً من التطفل على القرآن بل والجناية عليه لأن التفسير لا بد وأن يتضمن نفساً من مزاج، وثقافة، واتجاهات المفسر. ما من ذلك بد، ولا عنه مفر، لأنه طبيعة الأشياء ومن هنا يأتي الخطر لأن المفسر كائناتاً ما كان ليس ملاكاً، ولا هو معصوم من الضعف البشري والقصور الإنساني، دع عنك الاغراض حتى وإن لم نفترضه ضرورة، وما يدفع التزديد الكاتب إلى الإضافة. إن القرآن الكريم أطلق أوصافاً عامة لم يشأ أن يحددها لأنه يريد لها أن تتجاوب مع التطورات، ومع النفسيات وما تتطور إليه العصور دون أن يكون في ذلك قسر أو تطويع، ولكن المفسرين يخصصون هذه المعاني العامة بما سبق إلى أذهانهم أو ما وجدوه تحت أيديهم من شعر منحول أو حديث موضوع أو اقتباس من أهل الكتاب. فإذا قال القرآن ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾. قالوا اليهود والنصارى. وإذا قال ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾. قالوا النساء والصبيان وإذا قال ﴿لَهُوَ الْحَدِيثُ﴾. قالوا الغناء، وإذا قال ﴿وَلْيُضْرِبَنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾. يروون عن ابن عباس صفة تغطي الرأس ولا تظهر إلا عينا واحدة وإذا قال ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾. قالوا آدم، وإذا قال ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ﴾. يضيفون في شرحهم "لا" وهذا كله حجر على المعنى القرآني وقول بغير علم دع عنك النسخ الذي جعل المفسرين جزارين يمسكون بسكين ويذبحون الآيات أو ينحونها جانبا كأن لم تكن. حتى وهي تقرأ من المصحف، ولم اقرأ كتاباً من الكتب التي وضعها المستشرقون المغرضون إلا وأجد ذكراً لآية السيف التي نسخت قرابة مائة آية من آيات الصفح والسماح والحرية. يستشهدون بها على "وحشية الإسلام"، والروايات العديدة المزعومة عن آيات لم تثبت وسور ناقصة مما يثير الشك في قداسة القرآن ويوحى إنها من "اللغو" الذي قام به أعداء الإسلام منذ ظهور الإسلام وأشار إليه القرآن، ولكنه جاز على الرواة الذين هم أسرى الإسناد .

ومما يثير العجب ويبعث على الاندهاش ما يورده المفسرون من تعدد المعاني والشروح للكلمة الواحدة تعدداً يصل إلى درجة التعارض دون تردد أو شعور بالحرص بحيث يعجز أي واحد يريد أن يستخلص حكماً أمام هذا التيه من المعاني والتفسيرات.. فالآية ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾. اختلف في تفسيرها

المفسرون كما يقول الطبرى فمنهم من قرأ "وَقَرْنَ" بفتح القاف بمعنى أقررن فى بيوتكن من القرار ومنهم من قرأ و"قِرْنَ" بكسر القاف فالمعنى تكن أكثر وقاراً وسكينة "من الوقار" .

ثم قال الطبرى "وهذه القراءة "الثانية" أولى عندنا من الصواب" .

وهذا المعنى الذى رجحه الطبرى يقلب تصورات دعاة الحجاب والاحتباس فى البيوت رأساً على عقب .

ويقول بعض المفسرين فى آية ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾. أن الأمة كانت ضالة ويذهب آخرون إلى عكس ذلك .

والخلاف فى سورة الوضوء {٦ من سورة المائدة}.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾. فالخلاف فى ضبط "أرجلكم" وهل هى بالكسر عطفاً على ما سبقها مباشرة وهى "بروسكم" أو هى عطف على "وجوهكم" وفى هذه الحالة تكون بالرفع. فيجب الغسل فى حين يكفى فى الحالة الأولى المسح على الأرجل. وقد ذهب الجمهور إلى غسل الأقدام إعمالاً للسنة ولأن نظافة القدمين لا يكفى فيها المسح، ونحن مع الجمهور فى أن تطهير الرجل يكون بالغسل، وليس بالمسح إلا أننا يجب أن نلاحظ أن غسل القدمين قد لا يكون ميسراً للكثير من الناس من الرجال والنساء من المرضى والمتقدمين فى السن. وفى المسح ما يجزئ وفى الآية ما يسمح به وإن ظل الأصل هو الغسل .

وكذلك الخلاف فى الوقف فى الآية {٧ من سورة آل عمران}.. ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾. هل يوجد وقف بعد جملة "وما يعلم تأويله إلا الله" بمعنى أن الراسخين فى العلم لا يشتركون مع الله تعالى فى فهم المتشابهات. وإنما يقولون آمنا به كل من عند ربنا. أما إذا أريد اعتبار السياق متصلاً دون وقف بعد كلمة الله. فإنه يعنى أن الراسخين فى العلم يعلمون تأويل المتشابهات، وفى هذه الحالة كما فى آية الوضوء لا نميل لما ذهب إليه الجمهور ونرى أن الراسخين فى العلم لا يعلمون المتشابهات، وقد يدل على ذلك أداة الاستثناء إلا الله .

وفى بعض الحالات يعمدون إلى الآية الصريحة فيقبلونها عن معناها انسياقا لروح العصر المغلق الذى كان يحكمهم. فالآية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾. يقولون هذا خصوص من عموم بمعنى أن الآية لا تنطبق إلا على غير المسلمين الذين يدفعون الجزية فهؤلاء لا يجوز إكراههم على الإسلام والآية صريحة وواضحة كالشمس عن عموم حرية العقيدة لأن من مقتضى أصول الأشياء وبديهياتها أنه لا يمكن "التحكم" فى ضمائر الناس وفرض العقائد عليهم قسراً .

وحتى فى الآيات التى تتعلق بالصلاة، فإن الاختلاف فى فهم الآيات لا يكاد يفلت كلمة من هذه الآيات. فمثلاً {الآية ١٤ من سورة هود}.. ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾. فقد اختلف المفسرون فى المقصود بطرفى النهار فقال فريق الفجر طرف

ومنهم من قال الظهر طرف ومنهم من قال الفجر والظهر طرف بينما ذهب فريق آخر إلى أن الظهر والعصر طرف. ومنهم من قال العصر وحده طرف ومنهم من قال المغرب وحده طرف .

وأما عن زلف الليل فمنهم من قال المغرب والعشاء ومنهم من قال العشاء فقط ومنهم من أضاف الوتر إلى المغرب والعشاء ومنهم من أضاف الفجر إلى المغرب والعشاء .

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ عن دلوك الشمس إلى غسق الليل {فى الآية ٧٨ من سورة الإسراء} فقد قال البعض دلوك الشمس الظهر ومنهم من قال المغرب ومنهم من قال الظهر والعصر. وعن غسق الليل قيل العشاء وقيل المغرب والعشاء<sup>(١)</sup> .

وأضيف إلى الناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول وغيرها من "علوم القرآن" "علم" آخر هو القراءات التى لم تقف عند اختلاف كتابة أو نطق بعض الكلمات لأن لهجة قريش لم تكن لهجة العرب كافة.. وهى جزئية كان لابد وأن يذهب بها التطور كأن تقرأ ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالِي يُرَأَوْنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. {١٤٢ النساء}.. بفتح "كسالى" وهى لغة تميم وأسد أو ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾. {٣٦ المؤمنون}.. بكسر التائين، وهى لغة تميم وأسد ومثل ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾. {٣٥ الإسراء}.. فقد قرأ البعض بكسر القاف والبعض الآخر بفتحها ومثل "حتى يقول الرسول" بفتح اللام وضمها أو "لا بيع فيه، ولا خلة، ولا شفاعة" برفع الأسماء الثلاثة أو فتحها، نقول إن الأمر لم يقف عند هذا، فقد تعدى إلى إضافة أو حذف كلمات كما فى سورة الليل ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى. وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى وَالذَّكْرِ وَالْأُنثَى﴾. وقيل أن أبا الدرداء كان يقرأها كذلك "أى بدون وما خلق" وأراد أحد الأسلاف أن يلتمس له العذر فقال باحتمال نسخها ولم يبلغ أبا الدرداء هذا النسخ فكان عذراً أقبح من الذنب، ومثل قراءة ابن مسعود فى سورة النساء أن الله لا يظلم مثقال نملة، بدلاً من مثقال ذرة. ومثل ما قيل عن أن عبد الله بن عباس كان يقرأ فيما استمتعتم به (إلى أجل مسمى) فاتوهن أجورهن. وبهذا يمكن استحلال زواج المتعة .

وكما فى قراءة شنبوذ فى سورة الكهف، وكأن يأخذ كل سفينة صالحة غصبا ومثل قراءة الكوفيين فتنبتوا فى سورتي النساء والحجرات بدلاً من فتبينوا .

\* \* \*

إن هذه الإشارات العابرة التى اتسعت لها هذه المقدمة، وما سيلى فى فصول الكتاب جعلنا ندعو إلى صرف النظر عن الاحتجاج بالتفسير ونرى أنها جنت جنابة عظمى على القرآن لأنها صرفت الناس عن مطالعة النص أو الاستماع إليه وما يجديه ذلك من هداية، ومن تأثير فى النفس ومن تفاعل مع الإرادة تحول كل هذا إلى مرويات ركيكة عديدة لا حصر لها لا يجمعها جامع، بل يضرب بعضها بعضها .

إننى عندما وجهت الأنظار إلى ضرورة الشائعة من مؤتفكات وإسرائيليات وأحاديث عدم الالتزام بالتفسير بدءاً من تفسير بن عباس حتى تفسير سيد قطب، تعرضت لموجة شديدة من النقد والهجوم، لأن هذه التفسير أصبح لها قداسة فى النفوس مستمرة من تغلغلها بالقرآن، ومن ناحية أخرى فإننى وأن كنت قد عالجت هذه القضية فى كتبنا الأخيرة، فإن ذلك كان متفرقاً، ومع مواضيع أخرى. ومن هنا كانت الحاجة شديدة لهذا الكتاب الذى يضع حاجتنا كاملة أمام القراء ويشرح وجهة نظرنا وما فيها من موضوعية وأعلم هذه الكلمات. قد لا تكون الآن إلا كماء نزل على صفوان ثم انزلق عليه ولم يترك أثراً، ولكن التجربة علينا

(١) أنظر هذه الحالات وكثير غيرها فى كتاب "إشكاليات الخطاب الدينى للدكتور محمد السعيد" الصفحات ١١٩ وما بعدها .

أن استمرار سقوط المياه يفتت الصخر، وهذا أول الغيث، ولن تقدم الحقيقة سمعياً ونصيراً، ومع أنها رحلة شاقة طويلة شائكة فلا بد من البدء، وقد بدأناها. ونحن نعلم حق العلم أنها لن تتم في حياتنا. وأنا لن نرى ثمرها لأن دورنا هو غرس البذرة، وليس حرص الثمرة. ولهذا فنحن لا نتعجل الأمور ومثل هذه القضية تحتاج إلى زمن طويل فنحن لا نستعجل، ولا نستكثر، ولكن نعمل دون كلل، ولكل شيء مستقر وحسبنا أنا فتحنا الطريق ولا يخالجننا في النتيجة التي قررنا القرآن ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ .

ولو كان الأمر بيدي لقلنت لقومي - كما قال هود ..

﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَآكُمْ عَنْهُ إِنِ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾. { ٨٨ هود } ..

القاهرة في: رمضان ١٤٢٤ هـ / أكتوبر ٢٠٠٣ م

جمال البنا

## تمهيد بيد القاه الكريم

رأينا أن من الخير قبل أن نبدأ الحديث عن تفسير القرآن الكريم أن نقدم بين يدي هذا الموضوع تعريفاً لبعض خصائص القرآن بما في ذلك الرد على بعض التساؤلات مثل لماذا أنزل القرآن بالعربية وما هي خصائص الصياغة القرآنية وسر الإعجاز الخ... حتى يتهيأ القارئ نفسياً وفكرياً لتفهم ما سيلي عن التفسير ..

### (١) لماذا أنزل القاه باللغة العربية ؟

لما كان القرآن هو معجزة الإسلام الذي أحله الله محل المعجزات القديمة للأديان السابقة وردّ على العرب الذين طالبوا بمثل هذه المعجزات ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٥٠) أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. {٥١ العنكبوت} ..

فهذه الآية الأخيرة جعلت في القرآن الكفاية من المعجزات وفسرت ذلك بأن فيه الرحمة والذكرى ويمكن حتى للذين لا يؤمنون بالمعجزات الاحتجاج بها، لأن مثل الرحمة والذكرى بين الناس هو أكبر معجزة .

ومع أن الإسلام أنزل للناس جميعاً إلا أنه كان لا بد أن يتوجه أولاً إلى قوم معينين وأن ينزل القرآن بلغة معينة. وقد اصطفى الله العرب والعربية لأن هذا الاصطفاء كان يتفق مع ما أراده الله للإسلام من أن يكون آخر الأديان وأشملها إذ أن مثل هذا الدين الذي لن يأتي بعده دين ولن تأتي معه معجزة كان لا بد أن يكون ذا معجزة دائمة خالدة باقية مع الناس - ما بقوا، كذلك أن تكون هذه المعجزة متفكة مع ما ستبلغه البشرية من رشد وما ستكون عليه من رقى بفضل العلم والمعرفة بوجه خاص، كان لا بد إذن أن تكون معجزة آخر الأديان وأبقاها "كتاباً" يعيش مع الناس ما عاشوا... ويتفق مع مستواهم الفكري بحيث كلما تقدموا وجدوا أن هذا الكتاب لا يتخلف عنهم بل هو آونة معهم وآونة أخرى أمامهم بحيث يأخذون منه ما يفهمون وما يتفق معهم ويجدون فيه ما قد لا يفهمونه تماماً لأن فهمه من حظ أجيال تأتي بعدهم ويتوفر لهم علم أكثر وهذا كله يستبعد أن تكون معجزة الإسلام "حدثاً" مثل إحياء الموتى أو شفاء المرضى أو ضرب البحر بالعصا فينفلق كل فرق كالطود العظيم.. لأن هذه الأحداث العظام وإن أقنعت المعاصرين لها فإنها تكون غير ذات معنى للأجيال التالية التي لم تعاصرها وتشهدها وإنما كانت هذه المعجزات سائغة لأن هذه الأديان كانت مرحلية.. أما بالنسبة للدين الأخير الدائم فكان لا بد أن تكون معجزته - كما ذكرنا - كتاباً يجد فيه كل جيل هدى ورحمة ومعرفة وحكمة.. وفي شرح هذا المعنى قال صاحب الوفا "قلو قال ملحد اليوم أى دليل على صدق محمد وموسى فليل له محمد شق له القمر وموسى شق له البحر لقال هذا محال. فجعل الله سبحانه وتعالى هذا القرآن معجزاً لمحمد ليظهر دليل صدقه بعد وفاته وجعله دليلاً على صدق الأنبياء إذ هو مصدق لهم ومخبر عن حالهم" .



فلما تعين هذا تعين بالتالى أن يتنزل هذا الكتاب على العرب.. وأن يكون بالعربية. لأن العرب لم يكن لهم ما يفخرون به من حضارة قديمة أو دولة عريقة كما كان الحال لدى المصريين القدماء أو من فنون وآداب وفلسفة ومعرفة كما كان الحال لدى اليونان. ولكن فخرهم انحصر فى صياغة الكلمة والتعبير بها والوصول بذلك إلى درجة من البلاغة تكون محل الفخر بحيث تعلق على أستار الكعبة.. فكان نزول كتاب يصل من البلاغة إلى درجة تفوق كل ما وصلوا إليه.. وتجاوز كل ما بلغوه هو ما يحملهم على الإيمان به ويكون بالنسبة لهم أعظم المعجزات، وفى الوقت نفسه يتفق ما أشرنا إليه من أن معجزة آخر الأديان كان لابد أن تكون كتاباً .

وهذا هو سر نزول القرآن بالعربية ...

(٢)

### خصائص الصياغة القرآنية

تتسم الصياغة القرآنية بعناصر معينة يمكن إجمالها فى :

- ١ . الإيقاع الموسيقى للنظم القرآنى .
- ٢ . التصوير الفنى .
- ٣ . الصياغة الأسلوبية الفريدة .
- ٤ . البعد عن التفاصيل والسرود الممل .
- ٥ . استخدام وسائل التأثير النفسية (السيكولوجية) .
- ٦ . وأخيراً إبراز القيم باعتبارها المرجعية فى الأعمال .

١ . نحن نعنى بالإيقاع الموسيقى للنظم القرآنى: أن الكلمات والألفاظ اختيرت اختياراً خاصاً بحيث يحقق التناغم الموسيقى مداً وغناً وارتفاعاً وانخفاضاً فالكلمات الثلاثة «مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا». على سبيل المثال تضم الحركات الثلاث للكسر والفتح والضم مشبعة وكأنها درجات فى سلم موسيقى ويمكن أن توضع فى نوتة موسيقية طبقاً لـ"تون" كل كلمة وقد كانت هذه الحقيقة هى أصل نشأة علم التجويد. الذى كان بدوره أصل التلحين فى الموسيقى العربية وكان كبار الملحنين هم كبار القراء .

وقد يبدأ القرآن بعض سورته بكلمة تمثل بعض الحروف (ألف لام ميم) أو (طاء سين ميم) وكأنها استهلال موسيقى لإثارة الاهتمام وإحداث الأثر الإيقاعى لما فى هذه الحروف من مد وكسر فضلاً عما فى هذا الاستهلال من إبداع لم يسبق إليه أو يلحق به، وما يوحى به من قسم بالحروف وكأنها شفرة "لكلمة" المكتوبة، أو المقروءة، وهى إحدى المميزات الرئيسية للإنسان. كما يُجرى القرآن من التأخير والتقديم الإعلال والإبدال، الحذف والإضافة ويطوع فى الأساليب بما يجعل النحويين حيارى يلهثون ولكنه يحقق الهدف المطلوب أعنى أن تكون الجملة القرآنية رسالة تتجاوز مع "شفرة" أو "موجة" محطة الاستقبال وهى الأذن الإنسانية بحكم ما فيها من جرس وإيقاع وتنظيم .

وأهمية الجرس الموسيقى لا تقف عند أنه أول ما يطرق النفس عن طريق نافذتها على عالم الأصوات ولكنها أيضاً أشمل عوامل التأثير إذ يتأثر به الجاهل والعالم الصغير والكبير والأعمى والبصير وقد تخفى الحكمة فى المعانى على من لم يرزق حظاً من الذكاء وقد يدق التصوير الفنى على من تضعف

عنده حاسة التذوق الفنى ولكن قلما تدق النغمة الحلوة المثيرة على أحد فالنغم يدفع إلى الرقص البدائيين فى أفريقيا والمعاصرين فى أوروبا وإن اختلف الأداء

يعين على هذا أن الأذن تتصل بمركز التوازن بالمخ، ولعل هذه الحقيقة هى التى جعلت القرآن يقدم السمع على البصر .

كما يجب الإشارة إلى أن الإيقاع الموسيقى يسر الاستمتاع بقراءة القرآن والتعبد بتلاوته وسهل حفظه والاستشهاد به فى المناسبات والخطب والأحاديث وتكوين الملكة الأسلوبية التى يتوفر لها الإيقاع والبلاغة .

فإذا كانت الصياغة الموسيقية قد وسعت من التصرف النحوى ويسرت الاستمتاع بقراءة القرآن وحفظه والاستشهاد به فلا يقل عن هذا أهمية أنها كانت فى أصل نشأة الموسيقى العربية. وعلم التجويد هو أساسا علم موسيقى وإذا أريد لمعاهد الموسيقى والكونسرفتوار أن تتوصل إلى موسيقى عربية فإن أحد المكونات الرئيسية التى تكفل لها العرق العربى هو التجويد الذى يجب أن يدرس لطلاب وطالبات هذه المعاهد وبدون هذه المادة يمكن أن يقحم فى عالم الموسيقى نمط غريب تنبو عنه الأذن العربية ولا يكون من مبرر للأخذ به إلا مجرد التقليد. وليس فى هذا الاقتراح أى غرابة أو حتى تجديد. لأن كبار الموسيقيين المصريين تتلمذوا على أيدي كبار القراء وكان هؤلاء القراء أنفسهم يجمعون بين قراءة القرآن وإنشاد المدائح ويقومون بتلحين الأغاني وقد تتلمذ المغنيان البارزان عبد الوهاب وأم كلثوم على أيديهم وتأثرت أم كلثوم بوجه خاص بأستاذها الأول الشيخ أبو العلا تأثرا كبيرا، بل إن الأستاذ فتحى رضوان روى أنه سمع سيدة إنجليزية كانت مشغولة بفن البالية وطافت البلاد الإسلامية بحثا عن موضوعات للبالية من التراث الإسلامى وهى تتلو سورة النجم وتردد آياتها ورأسها تتمايل مع إيقاع الآيات وقال "وقد خيل إلى وأنا أسمع هذا اللفظ القرآنى المبين على لسان هذه الأعجمية التى لا تكاد تنطق القافات والعينات إلا بشق الأنفس أننى أسمع هذه السورة للمرة الأولى وحسبت أن هذه السيدة تصطنع النشوة والبهجة الوجدانية لولا أن الانفعال بقى فترة غالبا عليها وهى تحاول أن تضبط شعورها وقد مدت يدها خلسة وفيها منديل صغير لتموه عبرة ترقرت فى عيونها"<sup>(٢)</sup> .

على أن حديثنا عن الإيقاع الموسيقى للنظم القرآنى يجب أن لا يلفتنا عن الطبيعة الفريدة لهذه الموسيقى وأنها تختلف عن مألوف الموسيقى فهى لم تصطبأ أبدا بالآلات، ولا ينتظر أن يحدث شئ كهذا رغم أن المقرئين كانوا فى فترة معينة هم الملحنين الموسيقيين وإنما ارتبطت بالصوت البشرى لأن ذلك يستتبع عادة إمام التالى أو القارئ بالصياغة العربية ومعانى الألفاظ بحيث يكون "موصلا" حسنا للأثر القرآنى .

ويتبين أثر الإيقاع الموسيقى وأهميته من أن القرآن الكريم يستخدم كلمة الاستماع ومشتقاتها لإحداث الأثر المطلوب وعمليا كانت الخطوة الأولى والرئيسية فى هداية الرعيل الأول من المسلمين هى الاستماع للقرآن، لأنه ما إن يستمع أى واحد إلى القرآن حتى تملك الصياغة الموسيقية الجذابة أذنيه ثم يرقى به إلى سماء "التصوير الفنى" الرائع أو المعانى الرفيعة السامية فيؤدى التفاعل ما بين الإيقاع والتصوير والمعنى إلى مثل ما صوره القرآن «يَخْرُونَ لِلأَذْقَانِ سَجْدًا»، «وَيَخْرُونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا». أو بالطريقة التصويرية الرمزية للقرآن «لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ» .

(٢) آراء حرة فى الدين والحياة للأستاذ فتحى رضوان - كتاب الهلال ص ٧٦ - ٧٧ .

وهذه الحقيقة تثير قضية سنتحدث عنها بالتفصيل في موضعها وحسبنا هنا مجرد الإشارة تلك هي أنه لما كان الأثر المطلوب يتم بمجرد الاستماع وما يحدثه ذلك من ومضه تضيء جنبات النفس أو شرارة تشعلها بالإيمان. فإن "التفسير" وما أطنبوا فيه من "علوم القرآن" قد لا تكون بالأهمية المظنونة بل إنه يمكن أن يذهب بها في متاهات لا تخلو من لبس أو فضول أو تكلف أو غير ذلك من المزالق .

٢. ويحرص القرآن أن تأخذ آياته "تصويراً فنياً فتساق الوقائع والأحداث والمشاهد والمعاني والتوجيهات في معالجة فنية مع الاحتفاظ بموسيقية النظم بحيث تصبح كل مجموعة من الآيات لوحة فنية تتضح بالألوان وتنبض بالحياة ومن العسير الاستشهاد بأمثلة على ذلك لتعددتها ولكثرتها، ولأنها تكاد تكون المعالجة الغالبة وقد يصور ذلك هذه الآيات .

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي بُيُوتِ أَدْنَى اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كظلماتٍ في بحرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظلماتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠) أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عِلْمَ صَلَاتِهِ وَتَسْبِيحِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾. {٤١} {النور} ..

ففي هذه الآيات نجد اللوحات التصويرية تتلاحق بل وتتلاصق وإن كان لكل منها كيانها وموضوعها الخاص.. فالأولى تصور نور الله والثانية تصور المساجد ومشاهد العبادة فيها. أما الذين كفروا فتصور اللوحة الثالثة أعمالهم كسراب. أو كظلمات متكاثفة "إذا أخرج يده لم يكد يراها" وتختم اللوحات بلوحة تصور تسبيح الجميع ﴿وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عِلْمَ صَلَاتِهِ وَتَسْبِيحِهِ﴾. وهذه اللوحات الأربع تكاد تكون "نفس واحد" رغم أن لكل منها موضوعها الخاص لأن السلك الذي انتظمها جعلها عقداً نضيداً تساعد كل حبة في إبراز العقد كما نجد الإيقاع الموسيقي من مد وكسر، ورفع وخفض، ومن وصل وقطع، يسير جنباً إلى جنب التصوير الفني بحيث يؤدي تزاوج التصوير الفني بالتنعيم اللفظي بالإضافة إلى سمو المعاني إلى الإعجاز القرآني .

أما آثار الغابرين وما تركوه من بئر معطلة أو قصر مشيد وما خلفوه من جنات وعيون ونعمه كانوا فيها فاكهين فما بكت عليهم السماء ولا الأرض وما كانوا منظرين.. وأما لوحات الطبيعة التي تمثل الليل إذا عسس والصبح إذا تنفس والأمطار التي تحيي الأرض بعد موتها وما تتحلى به من جنات وحب الحصيد والنخل باساقات لها طلع نضيد.. وأما مشاهد القيامة. وما فيها من شهيق وزفير وسلاسل وأغلال ونار وقودها الناس والحجارة أو جنة فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين فهذه كلها أكثر من أن تحصى وتكاد تكون مادة القرآن .

وقد يخاطب القرآن النبي نفسه كفرد تخرج في نفسه شتى المشاعر الإنسانية ويحدد له المسار والمسلك وقد يشرك القارئ في القضية الفكرية أو اللوحة الفنية بلفته لا تكاد تحس كما في تصوير مشهد

الكهف ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَتَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا. وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلَبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَكَلَّمْتَهُ مِنْهُمْ رُءُوبًا﴾. فبكلمة واحدة لا تكاد تحس هي "وترى" يجد القارئ نفسه وقد اختطف من عالمه وزمنه ودنياه ليندمج في هذا الحدث البعيد وتأتي "وتحسبهم" و"لو أطلعت" لتعزز من إشراك القارئ واستغراقه في حدث وقع من مئات السنين ولا يعلم عنه شيئاً .

٣. ومما أنفرد به القرآن الصياغة الخاصة التي جاء بها والتي لا تعد نثراً أو شعراً كمألوف النثر والشعر. فالنظم القرآني يقوم على فقرات أو جمل تسمى كل جملة (أو بضعه جمل) آية وتنتهي هذه الآية بخاتمة أو "قفلة" تشبه القافية بحيث يتحقق إيقاع واحد أو متقارب بين النهايات مع تكوين كيان خاص للآية يتصل بما بعدها من آيات. وقد حار العرب أين يضعون القرآن. فليس هو بالنثر، وليس هو بالشعر وإنما هو ضرب جديد لم يكن لهم به عهد من قبل. وعندما سمعوه لأول مرة بهتوا وصور مشاعرهم أصدق تمثيل كلام الوليد بن المغيرة "إن له لحلاوة وأن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه ليعلو ولا يعلى عليه" وعندما ضغط عليه قومه ليقول شيئاً يمس به هذا القرآن قال "إن هو إلا سحر يؤثر" ولم يمس هذا القرآن بل كان أعظم تصوير لإعجازه .

ولعل ما يمكن أن يضاف إلى هذا أن القرآن وإن انفرد بهذه الصياغة فلم يحاول أحد أن يحاكيه أو ينسج على منواله بحيث أصبحت صياغة الأسلوب العربي تنقسم إلى شعر أو نثر أو قرآن إلا أن قسماً كبيراً من القرآن لو أعيدت طريقة كتابته لكان شبيهاً بما يسمونه "الشعر المنثور" مثال ذلك :

لا أقسم بهذا البلد  
وأنت حل بهذا البلد  
ووالد وما ولد

لقد خلقنا الإنسان في كبد

أحسب أن لن يقدر عليه أحد  
يقول أهلك ما لا لبدا  
أحسب أن لم يره أحد  
ألم نجعل له عينين  
ولسانا وشفقتين  
وهديناه النجدين الخ...

أو ...

والشمس وضحاها  
والقمر إذا تلاها  
والنهار إذا جلاها  
والليل إذا يغشاها  
والسماء وما بناها

والأرض وما طحاها  
ونفس وما سواها  
فألهمها فجورها وتقواها  
قد أفلح من زكاها  
وقد خاب من دساها الخ...

ولا يقتصر ذلك على السور المكية ذات الفقرات القصار فمن الآيات المدنية ما يمكن كتابتها كالاتى:

يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر  
واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور  
ولا تصعر خدك للناس  
ولا تمش في الأرض مرحا  
إن الله لا يحب كل مختال فخور  
واقصد في مشيك واغضض من صوتك  
إن أنكر الأصوات لصوت الحمير

أو ...

في بيوت أذن الله  
أن ترفع ويذكر فيها اسمه  
يسبح له فيها بالغدو والآصال. رجال  
لا تلهيهم تجارة ولا بيع  
عن ذكر الله  
وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة الخ ...

ونحن فى عرضنا لهذه اللفنة إنما نكشف فحسب شاهدا جديدا على الحيوية الفذة التى تتمتع بها الصياغة القرآنية وقدرتها على التجاوب مع الأفهام والأذواق على اختلافها ..

٤. من خصائص الأسلوب القرآنى إهمال التفاصيل سواء كانت فى الأحداث أو تعلقت بالأمكنة والأعداد والتواريخ لأن ذلك سيجنى على الإيقاع الموسيقى وبيئتل الصياغة الفنية التى هى كالسبيكة المحكمة وسيؤدى إلى السرد البارد الممل. وبالإضافة إلى هذه الضرورة الفنية الأسلوبية فإن هذا الإغفال كان لازما بالنسبة لكتاب للناس كافة أى من مختلف البلاد ولمختلف العصور، لأن التفاصيل لا يمكن أن تكون محل فهم أو حتى اتفاق لكل الناس فى كل العصور فالأصول والكليات هى محل العظة وموطن العبرة. ولم يأت القرآن ليزود الناس بمعلومة أو عدد من المعلومات الجديدة أو ليعلمهم التاريخ والجغرافيا والحساب.. ولكن الحكمة فى - أو وراء - هذه العلوم.. وليس من الممكن تعليم الناس قدرا ثابتا جامدا من المعرفة فى هذه الموضوعات فقد يكون هذا القدر متقدما بالنسبة للقدامى ومتخلفا عند المحدثين، أو لا يمكن فهمه إلا فى ظل درجة معينة من التقدم لا يفترض بلوغ الجميع إياها. كما أن هذا المسلك - أى إغفال التفاصيل - يتفق مع هدف القرآن فى تحقيق التأثير النفسى وذلك بإبراز الفكرة العامة وتركيزها

وإفرادها وعدم الإقبال عليها بالتفاصيل والجزئيات التي تشتمت الاهتمام وبذلك تتغلغل العبرة بالفكرة العامة ويتحقق الإيمان وهو هدف الإسلام، كما هو هدف كل الأديان ..

والقرآن في هذا يختلف عن التوراة<sup>(٣)</sup>. التي تتحدث في سفر التكوين عن خلق الدنيا في ستة أيام بالتفصيل وما خلقه الله كل يوم حتى استراح في اليوم السابع. ثم تتقصى بالتفصيل قصة آدم وغواية الحية لحواء وتتابع أبناء آدم ابنا ابنا حتى بنى إسرائيل فالقرآن يشير إجمالاً إلى هذه الأمور. وهو لا يتحدث عنها في سورة واحدة أو بضعة سور ولكنه يشير إليها أو يتحدث عن طرف منها في معظم السور، وعلى كثرة إشاراتة إلى آدم فإنه لم يشر أبداً إلى ما ذكره العهد القديم عن خلق الله لحواء من أحد أضلاع آدم عندما كان نائماً وحديث الحية لحواء وإغرائها، كما أن تكييف القرآن يختلف عن تكييف التوراة، فالتوراة، تذهب إلى أن الله تعالى حرم على آدم الأكل من شجرة المعرفة ولكن القرآن يصفها بأنها شجرة الخلد وملك لا يبلى فالمخالفة في التوراة لا تتضمن مأرباً ذاتياً أى أن آدم وحواء عندما أكلا من شجرة المعرفة لم يستهدفا نفعاً خاصاً لهما وإنما أرادا معرفة الخير والشر وهو أمر جدير أن لا يكون موضوع عقاب أو يمثل مخالفة ولكن المخالفة في القرآن تمثل الذاتية المفرطة التي تستهدف خلوداً وملكاً لا يبلى، وكذلك تكل التوراة مهمة الغواية إلى الحية وهو أمر لا معنى له ولكن القرآن ينسب هذه المهمة البغيضة إلى إبليس أو الشيطان الذى يظل يمثل الغواية دائماً ويقوم بهذه المهمة كما يقوم أتباعه بها من بعده مستخدمين وسائل الغواية من مال أو نساء أو ملك بحيث تكون معركة دائمة بين الخير والشر تبدأ مع آدم وتنتهى بنهاية البشرية .

بل إن واقعة معينة حددها العهد القديم بتفاصيلها باعتبارها أول حادثة قتل في البشرية وهى كما ذكر العهد القديم - قتل قابيل لهابيل - يشير إليها القرآن إشارة عامة ودون ذكر الأسماء بحيث احتملت أن يفسرها أحد الكتاب على أساس أنها لم تحدث بين هابيل وقابيل ولكن بين اثنين من بنى إسرائيل لأن نص الآية القرآنية يشير إليهما باعتبارهما "ابنى آدم" مما يحتمل العموم على أساس أن البشرية كلها "بنى آدم" وأن القرآن يخاطب الناس - أكثر من مرة - بعبارة "يا بنى آدم" ويستدل الكاتب بالآية التى تتلو إشارة القرآن إلى الواقعة وهى «مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لُمُسْرِفُونَ». {٣٢ المائدة}.. وقد يكون الكاتب أبعد وأغرب في اجتهاده.. ولكن الآية لا تتضمن نفيًا قاطعاً لهذا الرأى .

٥. ومن عناصر الإعجاز فى الصياغة القرآنية رنة الثقة والتأكيد واليقين واستخدام أدوات التأثير النفسية التى تتمشى فى أسلوبه وتجرى فى محاوراته وتجعل المعنى يدخل فى النفس ويتغلغل فى أعماقها سواء كانت هذه الأدوات لغوية، كالتكرار، أو موضوعية .. كالوجهة والمنطقية فى المحاجة، وبهذا يقطع الطريق على الشبهات ويقضى على التردد والتشكك. وقد ظن بعض اللغويين أن التكرار يعيب البلاغة ويخالف الإيجاز المأثور.. وهو جهل بالنفس البشرية.. وما يجب أن يتسم به الأسلوب الذى يوجه إليها - وما يصطنعه من أدوات لينفذ إلى قلب القارئ والسامع من تأكيد قاطع للحقائق ونفى بات للشبهات ورد مقنع على التساؤلات «وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ». «وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ

(٣) المقصود التوراة المتداولة بين الأيدي الآن والتى تعرضت لتحريف جعلها ما هى عليه خلافا لما كانت عليه عندما أنزلها الله، وهو أمر يقضى به تعدد الترجمات، أن لم تكن المصالح المكتسبة .

بِمُعْجِزِينَ. وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوِ الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ». (وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا أَتَنَا لَمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا. قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا. أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا). (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْأَلُهمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفْتُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ).. ومثل هذا كثير وهو يتسم بالقوة والتكرار واليقين وترادف الآيات والتأكيد دون أن يخل التكرار والترادف بالمستوى الفني والسياق والإيقاع وهو يغرس المعنى المقصود ويعمقه فى النفس شيئاً فشيئاً ..

وهذه الثقة هى ما يشير إليه بعض المستشرقين بالصفة "المتعالية" للدين، دون أن يعرفوا أنها تعود أصلاً إلى الصياغة القرآنية، وأن سبب ذلك هو سبب يعود إلى التأثير النفسى وأن الله تعالى لما كان لا بد أن يكون متعالياً (وهو أمر لا يؤمنون به - لأنهم لا يؤمنون أصلاً بالله، أو باله كالذى قدمه التصور الإسلامى). فإنهم رتبوا عليها ما شاءوا من نتائج .

\* \* \*

٦. ولكن هذا كله، أعنى الأسلوب الإيقاعى المنغم الذى يتوفر له الجرس الموسيقى والتصوير الفنى الذى يعطى الصورة كاملة والصياغة الفنية التى تحقق التركيز باستبعادها للتفاصيل المشتتة واستخدام أدوات التأكيد والتكرار واليقين السيكلوجية، إنما أريد بها فى النهاية خدمة المعانى. وهنا فى عالم المعانى نجد إعجازاً لا يقل عن الإعجاز اللغوى ويفضله بأنه ينسحب على غير العرب فيمكن عند الترجمة أن تحتفظ المعانى بقدر كبير من إعجازها يكفى - عندما تكون الترجمة أمينة - لإيمان المطلع عليها حتى عندما يحرم تأثير الإعجاز الأسلوبى واللفظى .

وإعجاز فى المعانى يتضمن شقين.. الشق الأول: أن قسماً كبيراً من المعانى القرآنية يعالج النفس البشرية وينفذ إلى ما وراء "خائنة الأعين وما تخفى الصدور" وتصور تقلباتها ومشاعرها كالمضعف أمام النساء و"القناطر المقنطرة من الذهب والفضة" والجزع أمام الفاقة، والبغى عند الغنى والاستخذاء أمام الضراء والبطر عند السراء. وقد يشير إلى الضعف البشرى والوقوع فى الأخطاء والذنوب فى بعض الحالات ويفتح باب الرجاء على مصراعيه وينادى ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. ويصور النفس الإنسانية عندما يزودها الإيمان بقوى لا تقهر ولا تضعف أمام طغيان الطاغين وما يوقعونه بالمؤمنين من عسفٍ وتعذيب، من تصليب أو تحريق أو استحياء أو تذيبح. ويضرب الأمثلة بأفراد من الأمم القديمة "اقض ما أنت قاض. إنما تقضى هذه الحياة الدنيا" أو من المؤمنين بالنبي الذين عندما رأوا الأحزاب فقالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾. ويرسم صورة الجماهير المستغلة المستعبدة المضللة من قياداتها وقد تملكها الندم على سلبيتها أمام قادتها وزعمائها الذين أضلواها السبيلا، ويذكر أبناء الأمم الماضية وصراعهم ومصارعهم وآثارهم الدارسة من بئر معطلة وقصر مشيد ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ .

فهذا القسم من المعانى القرآنية أقرب إلى الفنون وهو يعرض أدبا إنسانيا وتصويراً نفسياً يبقى ما بقيت النفس البشرية ويفضل أسمى ما تقدمه الفنون والآداب فى هذا المضمار لأنه يتميز عليها بالإيجاز فى المضمون والإعجاز فى الأسلوب مما يمكن حفظه والاستشهاد به .

ورغم أن الترجمة تذهب بروعته، كما هو الشأن فى ترجمة الأثر الفنى، فتظل للمعانى قوتها وقد قرأت عن سيدة أوروبية أنها ما أن قرأت ترجمة السورة ٩٢ حتى أحست بدموعها تتساقط. وهى سورة الضحى التى وصى فيها الله رسوله بتعبيرات لمست قلبها .

\* \* \*

أما الشق الثانى من الإعجاز فى المعانى. فإنه يتعلق بالله والكون والمجتمع وهو فى هذه كلها يعرض معان لا نجدتها فى غير القرآن ولا يستثنى من هذا الكتب السماوية الأخرى أو الروائع التى وضعها الأدباء والعلماء والمفكرون والفلاسفة فلا نجد فيها الأحكام والوضوح الذى فى القرآن.. أو التماسك العجيب بينها وأنها كلها تبدأ من منطلق واحد لتنتهى كلها إلى غاية واحدة لأنها كلها ليست إلا شواهد لقدرة الله وأدلة على إرادته .

وقد استنقذ القرآن مفهوم "الله" من الإقليمية الضيقة التى كانت تحكمه وتجعله رهنا بأقوام معينين يحمل اسما ويتصف بصفة لدى قوم ما غير ما يحمله وما يتصف به لدى قوم آخرين، كما برأه من التجسيم والوثنية التى افتعلها الكهنة والسدنة ليتمكنوا لأنفسهم من ورائها، ومن التجريد الذى ذهب إليه الفلاسفة بحيث جعلوا من الله مجرد بلورة للفروض وللقيم والمثل العليا. وبدلاً من هذه التصورات المشوهة التى نجدتها فى الكتب السماوية المحرفة أو الأفكار التى كانت منتهى ما وصل إليه الفلاسفة يعرض القرآن الصورة التى لا يمكن إلا للوحى أن يأت بها صورة الإله القادر الخالق الرحمن الرحيم الذى لا يقربه تجسيم أو تشبيه.. ويتعالى علواً كبيراً عن تجريد يحرمه الحياة والإرادة لأنه الخالق لكل ما فى هذا الكون من حياة وإرادة ..

ولما كان العقل البشرى يعجز عن تصور ذات الله وكان أسلوب "المناطقة" والفلاسفة المعقد مما لا يكون متاحاً أو سائغاً لكل الناس. ولا يريد القرآن - فى الوقت نفسه - أن يخضع الناس لهيمنة كهنة يحتكرون المعرفة الإلهية ويعلمونها للناس فإنه رسم للفرد العادى الطريقة السائغة وفى الوقت نفسه المثلى - للتعرف على الله وذلك بالتفكير فى نعمه وآلائه ومخلوقاته من الشمس والنجوم والبحار والأنهار والحيوان والأشجار "ربنا ما خلقت هذا باطلاً" ووجه الأنظار إلى حقيقة أن هذه المخلوقات التى قد تنتهى فى الكبر كالمجرات اللانهائية - كما قد تنتهى فى الصغر كالذرات الدقيقة "أم أمثالكم" وأنها كلها تسير طبقاً لنظام دقيق وغاية محكمة فلا الشمس ينبغى لها أن تترك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون فهذا الكون منضبط قسدي يسير طبقاً لقوانين محكمة حتى يأذن الله بنهايته فيسمح لهذه القوانين بالاختلال .

ويعرض القرآن للمجتمع البشرى فيقدم صورة المجتمع الوثنى الذى يقوم على الاستغلال والطغيان وإرهاب الملوك والأحبار والكهنة للشعوب والجماهير واستحواذهم على السلطة والمال الخ... فهذا المجتمع الوثنى هو ما جاء القرآن ليخلص الناس منه وليوجد مجتمعاً جديداً يقوم على المساواة والتكافل والشورى ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾. ويكون محور هذا المجتمع العدل الذى تحدث عنه كما لم يتحدث عنه كتاب آخر وأوجبه حتى تجاه شتات العداوة أو أواصر القربى وعمل لتعزيره فى الحياة الدنيا بما لا يمكن لغيره أن يفعله ألا وهو إيجاد



محكمة فى الحياة الآخرة لا تقلت صغيرة ولا كبيرة ولا متقال ذرة ويشهد فيها على الجانى جلده وأعضاء جسمه نفسها وبذلك يمكن استدراك الانتصاف من أى ظالم يفلت من العقاب فى الحياة الدنيا .

ومن أكبر ظواهر الإعجاز القرآنى التى تجمع بين الإعجاز فى الألفاظ والإعجاز فى المعانى أن اللفظة القرآنية تتقبل عديدا من المعانى بحيث لا تتخلف أبدا عن ركب التقدم فى كل مرحلة من مراحل تطور الفهم الإنسانى أو تتغيب عند ظهور معان جديدة.. وآفاق جديدة لم تظهر من قبل.. ولم يفتن الأولون بالطبع لهذه الظاهرة الفذة والخارقة من ظواهر الإعجاز وإنما يلمسها ويقدرها هذا الجيل الذى تخلفت فيه الكتب السماوية عن مفاهيم العصر بحيث أصبحت تراثا لا يعتد به إلا بالنسبة للوقت الذى نزلت فيه أو المجتمع الذى نزلت له حاشا القرآن الذى تقدم فيه اللفظة القرآنية معانى جديدة تتطابق مع مفاهيم العصر. كما ستتطابق مع ما سيأتى من العصور.. فإذا قال قائل وكيف يتفق هذا قلنا إنه الإعجاز القرآنى المنزل من لدن علام الغيوب وإذا كنا نفهم اليوم من القرآن ما عجز عن فهمه الأولون. فما الذى يمنع أن يفهم من يأتى بعدنا معان عجزنا نحن عن فهمها ؟ .

وهكذا نجد أن الإعجاز القرآنى يتضمن شقين .. الأول: الصياغة وما يتفرع منها من أسلوب وإيقاع. والثانى: المعانى والتوجيهات. وأن كل شق منها له تفرعاته الخاصة ولكن الاقتصار على الإعجاز اللغوى الذى استأثر بمعظم اهتمام الذين يعنون بإعجاز القرآن يهمل إعجاز المعانى وهو الهدف والغاية من الإعجاز اللغوى فضلا عن أن الإعجاز اللغوى بأسره يمكن أن يفقد أثره نتيجة عدم المعرفة باللغة العربية فترجمة القرآن تذهب قطعا بإعجازه اللغوى الذى لا يمكن أبدا أن يترجم، ولكنها لا تذهب المعانى وروعة هذه المعانى وأعجازها تدفع كل المنصفين للإيمان به إن لم يكن الإيمان بالمعنى الاصطلاحي فبالاعتراف بعظمته وقوته. وقد أورد القرآن أفضل إيراد قيمة التوحيد "الذى جاءت به اليهودية وأنقذه من أن يكون هذا التوحيد "ملاكى" لليهود خاصة دون الناس كما تحدث عن الرحمة، ووصف نفسه بالرحمن الرحيم بما يماثل حديث المسيحية عن قيمتها البارزة "المحبة" ورفع عاليًا الحرية فى العقيدة والعدل فى العمل .

\* \* \*

إن تضافر الإعجاز اللغوى بالإعجاز فى المعانى واتساقهما وتفاعلهما جعللا القرآن معجزة لا يمكن جدها أو المراء فيها وجعللا الكتاب والفنانين أسرى الإعجاز القرآنى بدءا من المشرك الذى سمعه من فم محمد فقال "إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة الخ..." حتى الشاعر الفلسطينى المولد الشيعى المذهب محمود درويش الذى قال فى حديث له مع مندوب مجلة الحزب الشيعى الفرنسى "فرانس نوفيه" :

"علاقتى بالإسلام كشاعر هى علاقة لغوية فقط. القرآن هو أكبر إنجاز لغوى حققه العرب إن ديالكتيك الكلمات فى ما بينها فى القرآن هو شىء ثورى بحد ذاته وكذلك إيقاع هذا النص.. الإيقاع العميق الذى به يقرأ النص وعلاقة الصور بالكلمة"<sup>(٤)</sup> .

وعندما سئل الكاتب والصحفى الكبير إحسان عبد القدوس عن المؤثرات فى تكوينه رد :

"القرآن.. أقولها بكل اعتزاز وأنا مؤمن بأن الأديب الذى يكتب بالعربية لى يستقيم له جمال العبارة وموسيقى الجملة يجب أن يوثق صلته بالقرآن قراءة ودراسة. وهذا ما يحدث لى بالفعل فقد قرأت القرآن عشرات المرات وقد بدأت بحكم نشأتى مع جدى العالم الأزهرى - أقرأه من باب التدين وأذكر أنى أصبت بحالة نفسية وأنا فى السابعة عشر من عمرى ألزمتنى الفراش فترة طويلة وتخلصت منها بقراءة القرآن ثلاث

(٤) جريدة البيان المغربية ٢٣ - ٢٤/١٢/١٩٧٩ ص ٧ .

مرات متوالية كعلاج نفسى ثم بدأت بعد ذلك أقرأ القرآن قراءة الدراسة والتذوق لجمال عبارته والإحساس بموسيقاه التي لا تدانيها موسيقى" (٥) .

وبعد بضع سنوات من نشره هذا الرأى كرره فى مقاله بجريدة الأهرام الذى كان ينشر تحت عنوان "أمس.. اليوم.. وغدا" فقال :

"وأنا مؤمن بأنه لا يمكن أن يصل القلم إلى أسلوب له رنينه وله جاذبيته إلا إذا كان الكاتب قد قرأ القرآن وتأثر بنغمات أسلوبه. إن أسلوب القرآن هو الموسيقى الأساسية للغة العربية" (٦) .

وهذا أمين الخولى يتحدث عن القرآن باعتباره "كتاب العربية الأكبر وأثرها الأدبى الأعظم، فهو الكتاب الذى أخذ العربية وبنى كيانها وخلد معها فصار فخرها وزينة تراثها. وتلك صفة القرآن يعرفها العربى مهما يختلف به الدين أو يفترق به الهوى، ما دام شاعرا بعربيته مدركا أن العروبة أصله فى الناس وجنسه بين الأجناس وسواء بعد ذلك أكان العربى مسيحيا أو وثنيا أم كان طبيعيا دهريا لا دينيا أم كان المسلم المتحرف - فإنه سيعرف بعروبته منزلة هذا الكتاب فى العربية ومكانته فى اللغة دون أن يقوم ذلك على شىء من الإيمان بصفة دينية للكتاب أو تصديق خاص بعقيدة فيه" .

أما طه حسين فإنه يتحدث عن أثر القرآن فى تقويم الألسنة العربية [حين تلتوى باللهاجات العامية المختلفة فالذين يحفظون القرآن فى الصبا ويكثرون قراءته ويجودونها أصح الناس نطقا بالعربية وأقلهم تخليطا فيها.. ومن أجل ذلك كانت الأجيال السابقة إلى عهد قريب تأخذ الصبية حين يتعلمون القراءة والكتابة بحفظ القرآن كله أو بعضه.. والقرآن بعد هذا كله هو الذى حفظ اللغة العربية أن تذوب فى اللغات الأجنبية التى تغلبت على اللغة العربية بحكم السياسة فى عصور كثيرة وظروف مختلفة.. عصم القرآن هذه اللغة من الضياع وحال بين الخطوب الجسام وبين التأثير فيها..] .

#### كما نقل من حديث طه حسين عن إعجاز القرآن قوله :

والقرآن كله من عند الله وهو وحدة فى روحه وإعجازه مهما يختلف تنزيل سورة ومهما تختلف موضوعات السور ومذاهب القول فيها، فللقرآن وحدته من حيث أنه يدعو دائما إلى أصول معينة: إلى توحيد الله ونبذ الشرك على اختلاف صورته والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به القرآن والإيمان بالرسول الذين جاءوا قبل محمد وما أنزل عليهم من الكتب والإيمان بالبعث وبالحياة الأخرى بعد هذه الحياة الأولى وما يكون فيها من ثواب ونعيم. ومن عذاب وجحيم. ثم هو يأمر الناس بأن يقيموا حياتهم فيما بينهم وبين نفوسهم بحيث يبرأون من الرذائل كلها كبارها وصغارها.. والمهم أن يلائم الإنسان بين إيمانه بالله الواحد القوى العالم بكل شىء القادر على كل شىء وما أعد من خير للمحسنين وما أعد من شر للمسيئين أن يلائم بين إيمانه الصادق بهذا كله وبين ما يخفى وما يظهر من ذات نفسه وما يأتى من الأعمال وما يدع منها. ومن أجل هذا يشرع الله للناس فى القرآن من الأحكام والأصول ما بين لهم السبيل إلى هذه الملاءمة ويمهد لهم الطريق إلى أن يقيموا حياتهم على السلام بينهم وبين الله ما عاشوا فى هذه الدنيا .

والنفس المطمئنة التى ذكرها الله فى سورة "الفجر" ودعاها إلى أن ترجع إلى ربها راضية مرضية وإلى أن تدخل فى عبادته وتدخل جنته إنما هى هذه النفس التى صدقت فى إيمانها بالله ورسله وكتبه وثوابه وعقابه وأخلصت هذا الإيمان واطمأنت إليه فعاشت فى سلم مع الله لا تحاربه بالمعصية حربا ظاهرة أو باطنة] .

(٥) مجلة الجديد - العدد ٢٦ - ١/٢/٧٣ ص ٦ .

(٦) الأهرام: ذكريات فى كلمة وداع "أمس واليوم وغدا" ١/٢٧/٧٧ .

بل إن أكبر المغنيات العربيات قاطبة - السيدة أم كلثوم - كانت تكرر أن أعظم توفيق وفقته فى حياتها هو أن حمَّهاً والدها على حفظ القرآن الكريم فى الصغر .

فهؤلاء جميعاً أخذوا بروعة النظم وسمو المعانى فى القرآن، ويمكن القول دون مبالغة أن الإعجاز القرآنى كان هو باب هؤلاء الفنانين والأدباء إلى الإسلام، وأنه كان الحبل الذى يربطهم بالإسلام مهما أخذتهم بعيداً عنه الملابس والدواعى والظروف. وقد كان الشهيد سيد قطب هو الابن البكر للعقاد وتصدى لمهاجمة محمد سعيد العريان الذى كان يدافع عن الداعية الإسلامى مصطفى صادق الرافعى ولم يكن له علاقة خاصة بالإسلام. ولكن "التصوير الفنى" و"مشاهد القيامة فى القرآن" جذبت سيد قطب إلى القرآن وما إن عاش فيه حتى كتب "العدالة الاجتماعية" ومن العدالة الاجتماعية إلى النظريات السياسية التى جعلت منه داعية ثم شهيداً إسلامياً .

أما الذين حرموا لذة تذوق الإعجاز اللغوى ممن لا يعرف العربية فقد لا يفوتهم تذوق الإيقاع الموسيقى للنظم القرآنى وأن يستمعوا إليه كما يستمعون إلى "سيمفونية" وسيجدون فى المعانى التى أبرزها القرآن والتى يمكن أن تترجم ما يعينهم على فهمه والإيمان به ولكن من المؤسف أن المسلمين لم يعنوا بترجمة المعانى ترجمة سليمة ولم يهتموا بتوصيلها إلى أوروبا وأمريكا وغيرها من الدول التى تجهل الإسلام. ولو تم هذا الحدث لامتد الإسلام فى هذه الدول التى تعانى من التعقيدات اللاهوتية من ناحية ومن الملل المادى من ناحية أخرى .

وأخيراً.. فعندما نتحدث عن القرآن كمعجزة الإسلام ونتقصى عناصر هذا الإعجاز وشواهد يجب أن لا ننسى أن القرآن هو الذى وحد العرب وأنه هو الذى أعطاهم الكتاب والميزان "ليقوم الناس بالقسط" ثم جعلهم شهداء على الناس فانطلق العرب حاملين هذه الرسالة داعين إلى حضارة جديدة فقصوا على الإمبراطوريات التى قامت على القهر والرق والطبقية والطغيان والوثنية واحلوا محلها مجتمعات إنسانية تقوم على المساواة وتجعل الناس جميعاً كأسنان المشط لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ويبدع من النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ما لم تبلغه حتى الآن أرقى النظم كما تشهد بذلك مقارنة توجيهات الرسول والخلفاء الراشدين للولاة والقادة فى الحرب والسلم بما تتضمنه الدساتير والنظم الحديثة<sup>(٧)</sup> .

وعندما تسللت عوامل الضعف والتحلل إلى هذه المجتمعات لم يفقد القرآن دوره المعجز لأنه عندما عدت عوادي التحلل والانقسام وخضع العالم الإسلامى للاستعمار البريطانى والفرنسى والهولندى والبلجيكى والبرتغالى وما رسمته هذه النظم الاستعمارية من تمزيق العالم الإسلامى وصبغ كل منطقة بصبغة الدولة المستعمرة ظل القرآن الرباط الوحيد الذى يربط هذه الأشلاء ويحفظ لها الروح والحياة ويحول دون أن تنفصل عن بعض كلية - وقدم اللغة القياسية والموحدة التى تتكلم بها هذه الشعوب أو على الأقل تلم بطرف منها وتأنس إليها.. فكان القرآن فى الحالين قوة الانطلاق وقوة الحفاظ .

أفلا يعد ذلك معجزة من معجزات القرآن نلمسها فى الحاضر وتثبتها لنا وقائع التاريخ فى الماضى ..

(٧) لا ينفى هذا أن توجيهات الإسلام لم تطبق بصفة كاملة إلا فترات محدودة كفترة الحكم النبوى والخلافة الراشدة، أما ما بعدها فقد تغلبت قوى السلطة، وليس الذنب فى هذا هو ذنب الإسلام، ولكنه نتيجة لعدد كبير من العوامل والضرورات .

### (٣) سر إعجاز القرآن

كان الكشف عن سر إعجاز القرآن هو الأمل الطموح الذي تملك عدداً من الكتاب القدامى والمحدثين. فقد فوجئ الجميع بصياغة جديدة كل الجدة. مختلفة كل الاختلاف في الأسلوب وفي نحت الكلمات وفي وصلها بعضها ببعض واستخدام تعبيرات ومعان كلها لم تكن مألوفة فكّدوا الأذهان في التوصل إلى سر الإعجاز ويمكن القول أنهم أبدعوا علماً جديداً بعد علم النحو هو "البلاغة" وقسموها إلى ثلاثة علوم علم البيان ويضم التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية بتفصيلات عديدة.. وعلم المعاني وفيه تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء وأضرب الخبر وأقسام الإنشاء إلى أمر ونهى واستفهام وتمن الخ... والقصر والفصل والإيجاز والإطناب وأخيراً علم البديع وفيه المحسنات اللفظية والجناس والاقْتباس والمحسنات المعنوية من تورية وطباق ومقابلة الخ... ومع أن هذه الأفانين كانت موجودة في الشعر العربي. إلا أن ذلك لم يدفع همة العلماء لإبداع هذا العلم وإنما دفعهم إلى هذا القرآن لأنه القمة فيها ولأنه أصبح "ديوان العرب" بدلاً من الشعر واستأنثر بالصدارة دونه .

وكان أول من كتب عن هذا الموضوع أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي في كتابه "إعجاز القرآن" ثم وضع أبو عيسى الرمانى المتوفى في سنة ٣٨٢ كتابه الإعجاز وجاء القاضى أبو بكر الباقلانى المتوفى سنة ٣٠٤ فوضع كتابه المشهور "إعجاز القرآن" الذى أجمع المتأخرون من بعده على أنه (باب فى الإعجاز على حدة). حتى جاء عبد القاهر الجرجانى المتوفى فى سنة ٤٧٤ فوضع كتابه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة وممن ألفوا فى الإعجاز أيضاً فخر الدين الرازى واستخرج منها كتابه فى إعجاز القرآن. ثم الأديب ابن أبى إصبع المتوفى سنة ٦٥٤ فقد صنف كتاب بدائع القرآن أورد فيه نحو مائة نوع من معانى البلاغة ثم ابن القيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١. وعندما وضع الزمخشري تفسيره الكشاف عنى فيه بنواحى البلاغة والإعجاز وقد رأينا فى كشف الظنون أن شرف الدين الحسن بن محمد الطيبى المتوفى سنة ٧٤٣ وضع عليه شرحاً فى ست مجلدات ضخمة أكثر فيها من إيراد النكت البيانية وكانت أكثر ما جاء به<sup>(٨)</sup> .

وعنى هؤلاء الكتاب بإبراز الإعجاز اللغوى والأسلوبى الذى أشرنا إليه فى مستهل هذه الفقرة. ولما كانوا علماء لغة فقد رأوا الإعجاز كل الإعجاز هو أن تضم آية مثل ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي وَعَيْضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. واحداً وعشرين ضرباً من البديع مع أنها سبع عشرة كلمة. وأن فى آية ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾. أربعة عشر نوعاً من البلاغة هى الإيجاز والترشيح والإرداف والتمثيل والمقارنة والاستدراك والإدماج والإيضاح والتعذيب والتعليل والتنكيث والمساواة وحسن النسق وحسن البيان ! .

ولا جدال أن الأمر كذلك بالنسبة للغويين ولكن القرآن لم ينزل ليحمل اللغويين على الإيمان به بحكم إعجازه اللغوى، ولا يعنى القارئ العادى هذا التفنن فى القول ولا يؤثر فيه، ولا يلمس وجدانه. أو يشعره "نبض القرآن" .

(١) تاريخ آداب العرب للأستاذ مصطفى صادق الرافعى - الجزء الثانى ص ١٤٨ - ١٥٣ .

وقد اعترف كاتب إسلامي محنك هو الأستاذ محمود محمد شاكر "أن الذين بحثوا عن جانب البيان لم يصلوا إلى شيء، لا الباقلائي ولا عبد القادر الجرجاني ولا من لف لفهما من الأئمة والباحثين كل هؤلاء قاربوا ولم يمسوا حاولوا ولم يحققوا. وإنما تشاغلوا بأمر آخرى لا تتصل بالبيان"<sup>(٩)</sup>. فإذا كنا ننتقد هؤلاء الأسلاف فإن المعاصرين بما فيهم الشيخ شاكر نفسه لم يأتوا بما يفضل ما جاء به الأسلاف لأنهم ركزوا أيضاً على الجانب البياني/ اللغوي. في حين أن هذا جانب من الجوانب. وفكرة أن القرآن نزل بلغة العرب وبالتالي تأثر باللغة العربية وأثر فيها - هو مما لا يجوز المبالغة فيه لأن القرآن وإن كان قد نزل بلغة العرب واستهدف التأثير أولاً على هؤلاء العرب فإن هذا لم يكن إلا بداية لهدف كبير أراد الله هو هداية البشرية كلها، والذين يعلمون العربية فيها قلة. كما أن القرآن لم يتأثر بلغة العرب قدر ما أبدع لغته الخاصة بل واستعار من اللغات الأخرى عديداً من الألفاظ والتعبيرات. والجانب البياني/ اللغوي على أهميته ليس أهم جوانب إعجاز القرآن ولا يقدره - كما قدمه الباقلائي والجرجاني إلا المتضلعون في اللغة. وهؤلاء ليسوا بحاجة إليه ليعلموا الإعجاز اللغوي/ البياني للقرآن. وفي الحقيقة فإن كل ما قاموا به هو وضع أسماء لوجوه الإعجاز اللغوي عندما ابتدعوا علم البلاغة كما أشرنا في مستهل هذه الفقرة .

**وكان من أكبر أسباب عجز الكتاب القدامى عن الاهتمام إلى سر الإعجاز عدم ربطهم ما بين الصياغة القرآنية والرسالة التي استهدفها القرآن والتي من أجلها نزل وهي هداية الناس وما يعنيه هذا من خلق النفس البشرية خلقاً إيمانياً جديداً. إذ هناك ارتباط قوى ما بين الوسيلة والغاية. وهو ما جعلناه مفتاحاً من أهم مفاتيح الخطاب القرآني وإدراك إعجازه**

ومع أن المحدثين كانوا أسعد حظاً وتوفر لهم ما لم يتوفر لأسلافهم. فإن نصيبهم من الإبداع في مجال الإعجاز كان كنصيب إخوانهم في مجال التفسير محدوداً، فقد خصص الأستاذ مصطفى صادق الرافعي الجزء الثاني من كتاب "آداب اللغة العربية" لإعجاز القرآن وحام حول مجالات جديدة غير المحاولات البلاغية المعهودة، ودعا الشيخ أمين الخولي إلى تفسير يستشف البلاغة النفسية المؤثرة في القرآن وقام ببداية في هذا الصدد. ولكنه تصور أن التفسير السليم هو أن يفسر القرآن تفسيراً موضوعياً أى حسب الموضوعات وليس حسب السور وللاقتراح جانب من الوجاهة وداع يدعو إليه ولكنه قد لا يغنى عن تفسير السور سورة، سورة، وليس آية، آية لأن السورة القرآنية سبيكة ولا يكون في اختلاف موضوعاتها "فوضى" كما يذكر المستشرقون الذين يعاملون القرآن كما لو كان كتاباً من الكتب ويغفلون عن دور كل آية في التأثير النفسي وأن هذا التفسير لا يحدث إلا بحشد وتوظيف الموضوعات المختلفة ليتحقق هذا الدور<sup>(١٠)</sup>.

وكتب الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز "النبأ العظيم" عن بعض خصائص القرآن مثل "البيان والإجمال" وهما في رأى الدكتور دراز عجيبة خارقة من عجائب التعبير إذ أن الناس إذا عمدوا إلى تحديد أغراضهم لم تتسع إلى تأويل وإذا أجملوا ذهبوا إلى الإبهام أو الإلباس أو إلى اللغو الذي لا يفيد ولا يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان في كلام واحد. ولكنك تقرأ الآية من القرآن فتجد في ألفاظها من الشفوف والملازمة والإحكام والخلو من كل غريب عن الغرض ما يتسابق به مغزاها إلى نفسك دون كد خاطر ولا استعادة حديث كأنك لا تسمع كلاماً ولغات بل ترى صوراً وحقائق ماثلة وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطت به خبراً

(٩) أنظر بحثاً ألقاه الدكتور عبد الصبور شاهين في جامعة قطر، ونشرته مجلة الأمة في عدد شوال ١٤٠٥ ص ٦٤ .

(١٠) انظر لمزيد من شرح هذه النقطة الفصل الرابع .

ووقفت على معناه محدوداً، ولو رجعت إليه مرة حتى ترى للجملة الواحدة أو الكلمة الواحدة وجوهاً عدة كلها صحيح أو محتمل الصحة كأنما هي فص من الماس يعطيك كل ضلع منه شعاعاً فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف كلها فلا تدري ماذا تأخذ عينيك وتدع.. ولعلك لو وكلت النظر فيها إلى غيرك رأى منها أكثر مما رأيت، وهكذا تجد كتاباً مفتوحاً مع الزمان يأخذ كل منه ما يُسر له، بل ترى محيطاً مترامى الأطراف في الأصول والفروع. وكيف وسع الآراء العلمية على اختلاف وسائلها في القديم والحديث وهو على لينة للعقول والإفهام صلب متين لا يتناقض ولا يتبدل يحتج به كل فريق لرأيه ويدعيه لنفسه وهو في سموه فوق الجميع يطل على معاركهم حوله وكأن لسان حاله يقول لهؤلاء "قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً" .

ومن الخصائص القرآنية التي بسطها الدكتور (إفناع العقل وإمتاع العاطفة) فقد تحدث عنهما حين قال "لقد عرفنا كلام العلماء الحكماء وعرفنا كلام الأدباء والشعراء فما وجدنا من هؤلاء ولا هؤلاء إلا غلوا في جانب وقصوراً في جانب آخر، فأما الحكماء فإنما يؤدون إليك ثمار عقولهم غذاء لعقلك ولا تتوجه نفوسهم إلى استهواء نفسك واختلاف عاطفتك فتراهم حين يقدمون إليك حقائق العلوم لا يابهون لما فيها من جفاف وعرى ونوع الطباع أما الشعراء فإنما يسعون إلى استثارة وجدانك وتحريك أوتار الشعور من نفسك فلا يباليون بما صوروه لك أن يكون غياً أو رشداً وأن يكون حقيقة أو تمثيلاً فتراهم جادين وهم هازلون يستبكون وإن كانوا لا يبكون ويُطربون وإن كانوا لا يطربون ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾. الآية وكل امرئ حين يفكر فهو فيلسوف صغير ولكل امرئ حين يحس فإنما هو شاعر صغير فهل رأيتم أحداً تتكافأ فيه قوة التفكير وقوة الوجدان وسائر القوى النفسية على سواء. وإذا كانت الإجابة بالنفى فكيف تطمع من إنسان في أن يهب لك الطالبين معاً وهو لم يجمعهما في نفسه على سواء. وما كلام المتكلم إلا صورة الحال الغالبة عليه بين تلك الأحوال .

هذا مقياس تستطيع أن تتبين به كل لسان وحكم أي القوتين كان خاضعاً لها حين قال وكيف..؟ فإذا رأيتَه يتجه إلى تقرير حقيقة نظرية أو وصف طريقة عملية قلت هذا ثمرة الفكرة وإذا رأيتَه يعمد إلى تحريض النفس أو تغييرها وقبضها وبسطها واستثارة كوامن لذاتها وإلمها. قلت هذا ثمرة العاطفة وإذا رأيتَه قد انتقل من أحد هذين الضربين إلى الآخر فتفرغ له بعدما قضى وطراً من سابقه كما ينتقل من غرض إلى غرض عرفت بذلك تعاقب التفكير والشعور على نفسه وأما أن أسلوباً واحداً يتجه اتجاهاً واحداً ويجمع في يديك هذين الطرفين معاً كما يحمل الغصن الواحد من الشجرة أثماراً وأوراقاً وأزهاراً معاً أو كما تسرى الروح في الجسد والماء في العود الأخضر فذلك ما لا تظفر به في كلام بشر ولا هو من سنن الله في النفس الإنسانية. فمن لك إذن بهذا الكلام الذي يجيء من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يرضى حتى أولئك الفلاسفة المتعمقين ومن المتعة الوجدانية الطيبة بما يرضى حتى هؤلاء الشعراء المرحين..!! "ذلك الله رب العالمين..". فهذا الذي لا يشغله شأن عن شأن وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً بلسان، وأن يمزج الحق والجمال معاً يلتقيان فلا يبغيان، وأن يخرج من بينهما شراباً خالصاً سائغاً للشاربين وهذا هو ما تجده في كتابه الكريم حيثما توجهت. ألا تراه في نسجه قصصه وأخباره لا ينسى حق العقل من حكمة وعبرة أو لا تراه في معمعة براهينه وأحكامه لا ينسى حظ القلب من تشويق وترقيق وتحذير وتنفير يبيث ذلك في مطالع آياته ومقاطعها وتضاعيفها. ﴿تَقشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾. تلك آيات الله سبحانه وأنه لقول فصل .

وثالثة هذه الخصائص لدى الدكتور دراز هي ما حصره الباحث في (خطاب العامة والخاصة) إذ هذان الخطابان يمثلان غايتين أخريين متباعدتين عند الناس. لو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة التي تخاطب بها الأذكياء لجننتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم فلا غنى لك أن أردت أن تعطي كلتا الطائفتين حظها كاملاً من بيانك أن تخاطب كل واحدة منها بغير ما تخاطب به الأخرى كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال فأما أن جملة واحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء وإلى الأذكياء والأغبياء وإلى السوقة والملوك فيراها كل منهم مقدرة على قياس عقله وعلى وفق حاجته فذلك ما لا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم لا يلتوى على أفهامهم ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة فهو متعة الخاصة والعامة على السواء ميسر لكل ما أراده ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ .

كما أفاض الدكتور في خاصية رابعة هي القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى فأتى في تحليلها بما عهد عنه من قوة وبراعة وإتقان كما ملأ كتابه بالاستشهاد الرائع على ما يقول بحيث أصبح "النبأ العظيم" دراسة طريفة مبتكرة ذات مكانة رفيعة بحق في مكتبة القرآن .

ولعل العلامة الأستاذ محمد فريد وجدى قد وفق في إيضاح "سر" إعجاز القرآن فيما كتبه بالجزء السابع من دائرة المعارف في القرن العشرين فقال إن المتكلمين عن إعجاز القرآن قد حصرُوا كل عنايتهم في الناحية البلاغية ونحن وإن كنا نعتقد أن القرآن قد بلغ الغاية من هذه الوجهة إلا أننا نرى أنها ليست الجهة الوحيدة لإعجازه بل ولا هي أكثر جهات الإعجاز تسلطاً على النفس فإن للبلاغة على الشعور الإنساني تسلطاً محدوداً لا يتعدى حد الإعجاب بالكلام والإقبال عليه ثم يأخذ هذا الإعجاب والإقبال يضعف شيئاً فشيئاً بتكرار سماعه حتى تستأنس به النفس فلا يعود يحدث فيها ما كان يحدث في مبدأ وروده عليها وليس هذا شأن القرآن فإنه قد ثبت أن تكرار تلاوته تزيده تأثيراً فوجب على الناظر في ذلك أن يبحث عن وجه إعجازه في مجال آخر "ثم قال" إن العلة في نظرنا لا تحتاج إلى كثير تأمل وهي أن القرآن روح من أمر الله تعالى فهو يؤثر بهذا الاعتبار تأثير الروح في الأجساد فيحركها ويتسلط على أهوائها وأما تأثير الكلام في الشعور فلا يتعدى سلطانه حد إطرابها والحصول على إعجابها. وقوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ . يكفى وحده في إرشادنا إلى جهة إعجاز القرآن وقصور الإنس والجن عن الإتيان بمثله وبقائه إلى اليوم معجزة خالدة تتلألأ في نورها الإلهي وتتألق في جمالها الفذ، فلا جرم كانت له روحانية خاصة هي عندنا جهة إعجازه والسبب الأكبر في انقطاع الإنس والجن عن محاكاة أقصر سورة من سورته وارتعاد فرائص الصناديد والجبابرة عند سماعه وناهيك بروحانية الكلام الإلهي " .

إلى أن قال "ولا مشاحة في أن القرآن فصيح قد أخرس بفصاحته فرسان الخطابة وقادة البلاغة، وهو حكيم بهر الفلاسفة، وهو حق ألزم كل ضال الحجة، وهو هدى وشفاء لما في الصدور.. وكل هذه صفات جليلة تؤثر في العقل والشعور والعواطف والميول فتتحكم فيها تحكم المالك في ملكه ولكنه فوق ذلك روح من

أمر الله تصل من روح الإنسان إلى حيث لا تصل إليه أشعة البلاغة والبيان ولا سيالات الحكمة والعرفان من صميم معناه إلى حيث لا يحوم حوله فكر ولا خاطر ولا يتخيله خيال شاعر" (١١) .

وعقب الدكتور محمد رجب البيومي على كلام الأستاذ فريد وجدى فقال "لقد جعل الأستاذ العلامة محمد فريد وجدى روحانية القرآن سر إعجازه رداً بذلك على من يجعلون إعجاز القرآن فى بلاغته ونظمه وفصاحة أسلوبه، ومتعللاً بأن الأسلوب البليغ يفقد أثره القوى متى اتصلت تلاوته حتى يصبح فى نظر قارئه المتعهد شيئاً غير ذى جدة..!! ولا كذلك القرآن فإن أثره النفسى يتجدد باتصال قراءته مهما كثرت تلاوته. نحن نتساءل فى الرد على ذلك أيمكن أن تظهر روحانية القرآن دون أسلوب بليغ يحملها الناس؟ فيستحيل علينا بداهة أن نتصور هذا الظهور دون كلام يقال؟ وإذا ثبت أن الأسلوب القرآنى هو موضع هذه الروحانية النافذة فقد صارت الشقة قريبة بين من يقولون بالإعجاز البلاغى وبين الأستاذ الكبير إن لم تكن هناك شقة على الإطلاق! وإذا كانت بلاغة البشر تفقد تأثيرها باستمرار التلاوة دون بلاغة القرآن فلأن الأسلوب القرآنى يحمل من وسائل إعجازه ما يرتفع به عن بلاغة البشر وعلينا أن نبحت عن ذلك فى مطاوى نظمه وطريقة تعبيره وتصويره. وكون القرآن روحاً من أمر الله لا يحصر إعجازه البيانى فى معنى كلى كما يريد الأستاذ بل يدفع الدارس إلى استشفاف هذه الروح فيما يتراءى من قوة أسره ودقة تدليله وبلاغة تصويره مما يسيطر على النفوس سيطرة تدفع على الإذعان المؤمن والاستسلام البصير ولعل الأستاذ وجدى لا يريد أن يحصر الإعجاز القرآنى فى بلاغته التعبيرية موافقة لمن يرى أن حصر الإعجاز فى البلاغة التركيبية يدفعنا لطول النظر إلى اكتناف أسراره والوقوف على دقائقه. ومتى عرفت هذه الأسرار وجلّيت تلك الدقائق أمكنت محاكاته وسهلت معارضته فلم يبق وجه لإعجازه وهذا كلام براق فى ظاهره ولكنه لدى التدقيق لا ينهض على ساق لأن إدراك السر البلاغى فى قول معجز لا يجعل المدرك قادراً على الإتيان بمثل ما أدرك سره وجلا حقيقة وجهه. والمسألة أوضح من أن يستدل عليها لأننا نرى الناقد الأدبى يدرك أسرار القصيدة الرائعة بيتاً بيتاً وكلمة كلمة ثم لا يستطيع بعد ذلك أن يأتى بمثلها لأنه غير شاعر بطبيعته فلو كان الولوج إلى أسرار الجمال فى البيان الأدبى داعياً إلى محاكاته لكان الناقد الكبير شاعراً كبيراً أو قصاصاً شهيراً ولكن التدوق النقدى شىء ومملكة الإبداع الفنى شىء سواه... فليكن القرآن ذا روح قوية غالبية ولكن هذه الروح تستكن فى كلمات وآيات وسور هى موضع الإعجاز .

وما ذكره الدكتور محمد رجب البيومي لا ينفى ما قاله الأستاذ محمد فريد وجدى الذى تحدث عن "سر" الإعجاز وأعادته إلى أن القرآن روح من أمر الله أو أنه كلمة منه إذ لا بد أن يتضمن قيساً من الخلق والإبداع والأصالة التى تستعصى على الناس. أما المفردات التى يتبدى فيها هذا الإعجاز فهو ما حاول إيضاحه الكُتّاب الذين تحدثوا عن الإعجاز. ولكن المفردات لا تغنى عن "الروح" فكون القرآن من الله تعالى هو بمثابة الروح من الجسم وهو سر الإعجاز أما مفرداته فهى بمثابة أعضاء الجسم .

ونحن نؤمن بهذا، وبأن سر الإعجاز هو تلك النفثة الإلهية التى تجعل القرآن وثيقة فريدة سامية إلهية.. ومن حق العرب الذين صدر القرآن بلغتهم وجعلهم يملكون هذه الذخيرة - هذه المعجزة - الفريدة أن يفخروا وان يحمداوا الله على هذه المنة .

(١١) الفقرات الخاصة بكتاب الدكتور محمد عبد الله دراز. وكذلك الفقرة الخاصة بالأستاذ فريد وجدى منقولة من كتاب الدكتور محمد رجب بيومي البيان القرآنى من ص ٢٥٣ إلى ص ٢٥٨ .



ويقدم بعض الكتاب المعاصرين مداخل إلى سر إعجاز القرآن تختلف عن مداخل الكتاب القدامى الذين عنوا بالجوانب البيانية والبلاغية، فهم يلمسون جوانب أخرى، وسنقدم صورتين منها الأولى: من كاتب معروف هو الأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود والأخرى من قسيس أمريكي كان يقرأ القرآن ليتصيد بعض أخطاء تعينه في التبشير بالمسيحية والتنديد بالإسلام!! فحوله القرآن إلى مسلم.. يدعو إلى الإسلام! .

ولم يعرف للدكتور زكي نجيب محمود سابقة للإسلام باعتباره المنظر الأكبر للوضع المنطقية، ولكنه يعرض هنا صورة لتأثير إحدى سور القرآن عليه طفلاً فشاباً فكهلاً .

### والكلمة تحت عنوان "الناقة والجمل" وها هي بنصها ..

كانت السور القصار هي أول ما التقى بسمعى من القرآن الكريم، وأقول "سمعى" ولا أقول "عقلى"، إذ كيف كان لصبي في الخامسة أن يدرك ما احتوى عليه اللفظ القرآنى المعجز من معان اقتضته بعد ذلك عمراً طويلاً ملأه بالدرس والتأمل، ليفهمها الفهم الصحيح. أو ما ظنه الفهم الصحيح، لكن صبي الخامسة - مع ذلك - قد ارهف أذنيه للنغم، فما زلت أذكر - بعد هذه الأعوام الطوال - كيف كان ذلك الصبي المفتون بما سمع وبما حفظ، يترنم لنفسه بآيات خاصة أكثر من سواها، ولست أدري الآن ماذا كان سر اختياره لما يترنم به، وكان منه قوله تعالى في صورة الشمس: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدمَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾. {١٤ الشمس} ..

إن الصبي لم يسأل يوماً، ولا قيل له بغير سؤال، ما ناقة الله؟ وما سقياها؟ ومن هم ثمود الذين قال لهم هذا القول؟ ومن رسول الله الذى قاله؟ ولماذا كذبوه؟ وما الذى فعلته ناقة الله بالقوم حتى ضاقت بها صدورهم فعقروها؟ لا، لم يسأل الصبي عن شىء من هذا، ولا طاف بباله أن يسأل، وربما لو سأل لما جاءه الجواب .

ومضت السنون وأصبح الصبي شاباً طلعة، يكثر الأسئلة عما يصادفه من صنوف المعرفة التى أخذت تتكاثر عليه، وقد كان ذلك الشاب محبا لقراءة القرآن ولبت أعواماً يقسم الكتاب الكريم بين أيام الشهر ليقرأ فى كل يوم جزءاً من أجزاءه الثلاثين، ووقف عند سورة الشمس مرة أخرى، فلم يزل مفتوناً بنغمها كما كان سلفه الصبي مفتوناً، لكنه فى تلك المرحلة الجديدة كان قد فهم من معانيها ما لم يحاول الصبي أن يفهمها، لولا أنه هذه المرة قد وقف وقفة متسائلة ولم يعثر على شىء يرضى فيه تساؤله ذلك طوال الشباب، بل وما بعد الشباب بكثير، وكان مصدر حيرته هو الرابطة التى عساها أن تربط قول رسول الله لقبائل ثمود، ما قاله عن ناقة الله وسقياها، بالآيات الأولى من السورة عن ضروب من القسم، بمشاهد من الطبيعة أولاً، وبجوانب من طبيعة الإنسان ثانياً ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَاهَا﴾ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾. {٦ الشمس}. تلك هى مشاهد الطبيعة التى أقسم بها سبحانه وتعالى، ثم تأتى جوانب من فطرة الإنسان ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا...﴾. {١٠ الشمس}.. وعند هذه اللحظة تحدث النقلة فجأة، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ {١١ الشمس}.. فكان السؤال الذى طرحه الرجل الناضج من بعده سؤالاً يريد أن يفهم الرابطة بين آيات القسم فى مرحلتها السابقتين وتكذيب ثمود الذى استدعى من رسول الله أن يوجه إليهم نذيره. ثم دارت دورة السنين مرحلة أخرى، فإذا الرابطة المقنعة تتجلى أمام الشيخ المتأمل، وقد كان يمكن أن تتجلى له قبل ذلك لو أنه أمعن النظر فى تفصيلات الموقف، فوقع فيه على الحقيقة المفتاح. وتلك الحقيقة المفتاح هى أن قبائل ثمود عرفت ببراعتها فى فن النحت، تتحت الصخر بيوتاً وتمائيل وما شاءت لها موهبتها الفنية أن "تبدعه"، كان الوادى الذى يسكنونه "فيما هو الآن حدود الأردن مع الجزيرة العربية" صخرى القاع والجدران، فأغرى أهله

بأن يتخذوا من فن النحت متعة ومورد كسب في آن معاً، إذ كانوا يبيعون التماثيل "أو الأصنام إذا شئت".  
للمسافرين من الجزيرة العربية إلى الشام أو من الشام إلى الجزيرة العربية

فلما أرسل إليهم "صالح" عليه السلام، كانت معجزته من جنس ما برعوا فيه - وهو الشأن في معجزات الأنبياء جميعاً، فإذا كانت براعتهم أن يقدوا من الصخر تماثيل تحاكي الأحياء، فليخرج لهم رسول الله من الصخر ذاته كائناً حياً، هو الناقة التي انشق عنها الصخر فخرجت لهم كاملة التكوين نابضة الحياة، لم يلبثها أبوان، ولم تتدرج في النماء، فبهت القوم لما يرون ماثلاً أمام أبصارهم، إنها ناقة الله .

وتريد ناقة الله أن تشرب كما يشرب سائر الأحياء، ويطلب لها رسول الله صالح عليه السلام بالسقيا، فلم يكن من جماعة ثمود إلا أن تشعر بالهزيمة وكان أفسى جوانب هزيمتهم هو شعورهم بالنكبة في موضوع إعزازهم وفخرهم، ألا وهو إخراج الكائنات المنحوتة من صم الجلاميد، فأين يكون كل ما أخرجوه من تماثيل إذا قيس إلى هذه الآية المعجزة تثبتق من جوف الصخور؟ لكن العزة قد أخذتهم بالإثم، فكذبوا الرسول فيما تشهد الأَبصار، وعقروا الناقة غيظاً، ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾. {١٤ الشمس} ..

وضحت لي الرابطة التي قمت أبحث عنها في سورة الشمس فالعقل عند تلاوتها ينتقل انتقالاً مسلسلاً جميلاً، من مشاهد الكون الفسيح إلى دخيلة النفس الإنسانية المنطوية على فطرة محايدة، تتشكل فجوراً عند الفاجر وتقوى عند التقى ثم ينتقل العقل من هذه النفس في جملتها إلى مجال إبداعها الفنى، هكذا يكون التسلسل: الكون، فالإنسان مجتزءاً من ذلك الكون. فالفن مجتزءاً من ذلك الكون .

وعند انتقال الذهن - في مجال الفن - من المنحوتات الصخرية الصماء التي كانت تبدها ثمود إلى الناقة المعجزة التي انشق عنها الصخر فكأنما تضى له من الإلهام بأن الفن كله إما أن يكون من أجل الحياة وإما ألا يكون، إن الإنسان يريد أن يحيا حياته طويلاً وعرضاً وعمقاً ما استطاع سبيلاً، فأما أن يحياها طويلاً فذلك قد يكون مرهوناً - من جانب الإنسان - بنتاج العلوم الخاصة بالتغذية والصحة والطب وما إليها، وأما أن يحياها بالعرض فتتوقف على اتساع الدائرة التي يجول فيها فيزداد خبرة بالأرض والسماء وما بينهما وإما أن يحيا حياته عمقاً فهنا تأتي الفلسفة ويأتى الفن، لأن نتاج العلوم في الحالة الأولى واتساع الخبرة في الحالة الثانية إنما يأتيان إلينا متفرقات مجزأة لا رابطة بينهما، إنما عندئذ نكون كمن يصادف فرداً من الناس هنا وهناك دون أن يعلم أنهم أبناء أسرة واحدة حتى إذا ما عرف عنهم هذه الرابطة كان كمن يراهم رؤية أوضح، وهكذا تفعل الفلسفة بمنفرقات المعرفة تحاول أن تكشف عن الرباط الذى يجمعها عند نقطة التقاء واحدة وأما الفن فأمره عجب لأنه هو الذى يكشف لك عما وراء الأفتنة التى تستر عنك حقائق الناس وطبائع الأشياء فمن ذا الذى كشف عن العلاقة الدفينة بين الولد والوالدين إلا سفوكليز فى أوديب؟ من ذا الذى كشف عن حقيقة الأزواج الوجدانى بين البنات وأبيهم إلا شكسبير فى الملك لير؟ من ذا الذى كشف الستار عن دخيلة البخلاء إلا الجاحظ؟ من ذا الذى جسد تطلع الإنسان إلى الخلود أروع مما جسده الفنان المصرى القديم؟.

﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾. {١٣ الشمس}.. هذا ما طالب به رسول الله جماعة ثمود وأما ناقة الله فقد أصبحت توحى إلى بمعنى التفوق عما هو سائد بين الناس، كان السائد فى قبائل ثمود أن ينحت الصخر أصناماً لا تتفع ولا تشفع فخرجت ناقة الله من جلود الصخر لنقيم المثال بأن يكون الفن للحياة وما دام المثل الأعلى قد ارتسم أمام الأبصار والأذهان وجب على الناس رعايته، ﴿وسُقْيَاهَا﴾ ليعيش لكن ثمود أخذتها الغيرة العمياء حفاظاً على ما هم فيه فعقروا الناقة المعجزة لئلا تظل أمامهم تتحدى .

ولم تتفرد ثمود دون سائر البشر بنيران الغيظ المسموم التي تأكل القلوب أكلاً وتتهش الأكياد نهشاً، بل إن في كل قوم جماعة من ثمود فإذا كانت ثمود قد عقرت الناقة المعجزة ليطمسوا الشاهد الذي يظهر ضالة فما زلنا حتى يومنا نلتفت حولنا فإذا بقايا ثمود لم تزل فينا حية تسعى ولن أتحدث هنا عن أقوام بعيدة لا أعرف عنها إلا قشوراً من أخبارها بل أوجه بصرى إلى الدائرة الضيقة التي أعرف أفرادها باطننا لظاهر، فيقع البصر أول ما يقع على قواقع ثمودية رابضة في حنايا الصخور أخذت على نفسها ألا يرفع رأسه رافع إلا وتتوالى منها الضربات على أم ذلك الرأس حتى يتهشم أو يختفى فإذا أراد صاحبه أن يعيش كان الشرط الأول لبقائه هو أن يتجانس معهم في هزال الفكر وضيق الأفق .

هذا هو اللواء الذي يجب أن يرفع فوق الرؤوس لنهتدى بضيائه بمعنى الدعوة إلى التفوق والامتنياز ثم رعاية ذلك التفوق وهذا الامتنياز بالغذاء الصالح حتى لا ينتكس، تفوق سقراط على سائر مواطنيه فكان جزاؤه المحاكمة وجرياً على سنة القانون اليونانى عندئذ طلبت منه المحكمة أن يقترح على نفسه حكماً ليوازن بينه وبين حكم القضاء لعلهم يلتمسون نقطة وسطاً فأجابهم ساخراً بقوله إنه لا يرى إلا أن تجرى عليه الدولة راتباً لما يؤديه نحو أثينا وصالحها .

هكذا بدأ الصبى الذى كنته عند الخامسة مفتونا بالنغم بحلو النغم فى قوله تعالى ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾. {١٣ الشمس}.. وهكذا انتهى الشيخ مرورا بتطلع الشباب ونضح الرجولة إلي ما وراء النغم الجميل من مبدأ للارتقاء بالناس نحو الأعلى، فإذا كذبت فينا ثمود حقت عليها اللعنة إلي يوم الدين" انتهى .

ففي هذه القطعة نرى كيف يمكن للثقافة العريضة العميقة والحس الفني المرهف أن يقدم "رؤية" جديدة للآية تمثل دون ريب إضافة من إضافات استلهم القرآن وغوصا إلي أعماق الآية وعرضا لمعانيها بطريقة لا يمكن تقديمها من غير المثقف النابه والذي كانت تلح عليه السورة من الطفولة التي لم تلحظ إلا النغم الحلو حتى الشيوخوخة التي كشفت عن أعماقها الخافية وربطت ما بينها وبين المجتمع الإنسانى وما كان لغيره أن يجعل من تعبير ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ {١٣ الشمس}.. شعارا ولواء للدعوة إلى التفوق والامتنياز وإحاطة هذا الامتنياز بالاعتراف والرعاية .

\* \* \*

### قس أمريكي يستكشف إعجازاً قرآنياً ..

وها هو ذا مدخل ثان للتعرف على إعجاز القرآن ما كان يمكن للأسلاف، ولا حتى للعرب المعاصرين دخوله، وقد جاء فى خبر نقلته على الإنترنت قناة "إسلام أون لين" تحت عنوان "تصرانى قرأ القرآن" وجاء فيه ببعض الاختصار ..

"كان من المبشرين النشطين جداً فى الدعوة النصرانية وأيضاً هو من الذين لديهم علم غزير بالكتاب المقدس، هذا الرجل يحب الرياضيات بشكل كبير لذلك يحب المنطق أو التسلسل المنطقى للأمر فى أحد الأيام أراد أن يقرأ القرآن بقصد أن يجد فيه بعض الأخطاء التى تعزز موقفه عند دعوته المسلمين للدين النصرانى كان يتوقع أن يجد القرآن كتاباً قديماً مكتوباً منذ ١٤ قرن يتكلم عن الصحراء وما إلى ذلك لكنه ذهل مما وجد فيه... بل واكتشف أن هذا الكتاب يحوى أشياء لا توجد فى أى كتاب آخر فى هذا العالم، كان يتوقع أن يجد بعض الأحداث العصبية التى مرت على النبى مثل وفاة زوجته خديجة أو وفاة بناته وأولاده

لكنه لم يجد شيئاً من ذلك بل الذى جعله فى حيرة من أمره أنه وجد أن هناك سورة كاملة فى القرآن تسمى (سورة مريم) وفيها تشريف لمريم عليها السلام لا يوجد مثيل له فى كتب النصارى ولا فى أناجيلهم!! ولم يجد سورة باسم عائشة أو فاطمة وكذلك وجد أن عيسى ذكر بالاسم ٢٥ مرة فى القرآن فى حين أن النبى محمد لم يذكر إلا ٥ مرات فقط فزادت حيرة الرجل أخذ يقرأ القرآن بتمعن أكثر لعله يجد مأخذاً عليه... ولكنه صعق بأية عظيمة وعجيبة ألا وهى الآية رقم ٨٢ فى سورة النساء: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾. يقول الدكتور ملير عن هذه الآية. "من المبادئ العلمية المعروفة فى الوقت الحاضر هو مبدأ إيجاد الأخطاء أو تقصى الأخطاء فى النظريات إلى أن تثبت صحتها **Falsification test** والعجيب أن القرآن يدعو المسلمين وغير المسلمين إلى إيجاد الأخطاء فيه ولن يجدوا...". يقول أيضاً عن هذه الآية "لا يوجد مؤلف فى العالم يمتلك الجرأة ويؤلف كتاباً ثم يقول هذا الكتاب خالى من الأخطاء ولكن القرآن على العكس تماماً يقول لك لا يوجد أخطاء بل ويعرض عليك أن تجد فيه أخطاء ولن تجد"، أيضاً من الآيات التى وقف الدكتور ملير عندها طويلاً هى الآية رقم ٣٠ من سورة الأنبياء: ﴿أَوَلَمْ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾. يقول: "إن هذه الآية هى بالضبط موضوع البحث العلمى الذى نال جائزة نوبل فى عام ١٩٧٣ وكان عن نظرية الانفجار الكبير وهى تنص أن الكون الموجود هو نتيجة انفجار ضخم حدث منه الكون بما فيه من سماوات وكواكب" فالرتق هو الشئ المتماسك فى حين أن الفتق هو الشئ المتفكك "الآن نأتى إلى الشئ المذهل فى أمر النبى محمد من القصص التى بهرت الدكتور ملير ويعتبرها من المعجزات هى قصة النبى مع "أبو" لهب يقول الدكتور ملير "هذا الرجل أبو لهب كان يكره الإسلام كرهاً شديداً لدرجة انه كان يتبع محمد أينما ذهب ليقفل من قيمة ما يقوله وإذا رأى الرسول يتكلم لناس غرباء فإنه ينتظر حتى ينتهى الرسول من كلامه ليذهب إليهم ثم يسألهم ماذا قال لكم محمد؟ لو قال لكم أبيض فهو أسود ولو قال لكم ليل هو نهار المقصد أنه يخالف أى شئ يقوله الرسول ويشكك الناس فيه. قبل ١٠ سنوات من وفاة أبو لهب نزلت سورة فى القرآن أسمها سورة المسد، هذه السورة تقرر أن أبو لهب سوف يذهب إلى النار، أى بمعنى آخر أن أبو لهب لن يدخل الإسلام. خلال عشر سنوات، كل ما كان على "أبو" لهب أن يفعله هو أن يأتى أمام الناس ويقول "محمد يقول أنى لن أسلم وسوف أدخل النار ولكنى أعلن الآن أنى أريد أن أدخل فى الإسلام وأصبح مسلماً!!".

عشر سنوات كانت لديه الفرصة أن يهدم الإسلام بدقيقة واحدة! ولكن لأن الكلام هذا ليس كلام محمد ولكنه وحى ممن يعلم الغيب ويعلم أن "أبو" لهب لن يسلم .

يقول الدكتور ملير عن آية أبهرته لإعجازها الغيبى: "من المعجزات الغيبية القرآنية هو التحدى للمستقبل بأشياء لا يمكن أن يتنبأ بها الإنسان وهى خاضعة لنفس الاختبار السابق وهو **Falsification test** مبدأ إيجاد الأخطاء حتى تتبين صحة الشئ المراد اختباره، وهنا سوف نرى ماذا قال القرآن عن علاقة المسلمين مع اليهود والنصارى. القرآن يقول إن اليهود هم أشد الناس عداوة للمسلمين وهذا مستمر إلى وقتنا الحاضر فأشد الناس عداوة للمسلمين هم اليهود" ويكمل الدكتور ملير: "إن هذا يعتبر تحدياً عظيماً ذلك أن اليهود لديهم الفرصة لهدم الإسلام بأمر بسيطاً وهو أن يعاملوا المسلمين معاملة طيبة لبضع سنين ويقولون عندها: ها نحن نعاملكم معاملة طيبة والقرآن يقول إننا أشد الناس عداوة لكم، إذن القرآن خطأ!، ولكن هذا لم يحدث خلال ١٤٠٠ سنة!! ولن يحدث لأن هذا الكلام نزل من الذى يعلم الغيب وليس إنسان!!".

يكمل الدكتور ملير عن أسلوب فريد في القرآن أذهله لإعجازه " بدون أدنى شك يوجد في القرآن توجه فريد ومذهل لا يوجد في أى مكان آخر، وذلك أن القرآن يعطيك معلومات معينة ويقول لك: لم تكن تعلمها من قبل!! مثل سورة آل عمران .

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾. {٤٤ آل عمران}.. ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ {٤٩ هود}.. ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾. {١٠٢ يوسف} ..

يكمل الدكتور ملير: "لا يوجد كتاب مما يسمى بالكتب الدينية المقدسة يتكلم بهذا الأسلوب، كل الكتب الأخرى عبارة عن مجموعة من المعلومات التي تخبرك من أين أتت هذه المعلومات، على سبيل لمثال الكتاب المقدس عندما يناقش قصص القدماء فهو يقول لك الملك فلان عاش هنا وهذا القائد قاتل هنا معركة معينة وشخص آخر كان له عدد كذا من الأبناء وأسماءهم فلان وفلان الخ... ولكن هذا الكتاب "الإنجيل المحرف" دائماً يخبرك إذا كنت تريد المزيد من المعلومات يمكنك أن تقرأ الكتاب الفلاني أو الكتاب الفلاني لأن هذه المعلومات أتت منه" يكمل الدكتور ملير: "بعكس القرآن الذي يمدّ القارئ بالمعلومة ثم يقول لك هذه معلومة جديدة!! بل ويطلب منك أن تتأكد منها إن كنت متردداً في صحة القرآن بطريقة لا يمكن أن تكون من عقل بشر!!.. والمذهل في الأمر هو أن أهل مكة في ذلك الوقت - أى وقت نزول هذه الآيات - ومرة بعد مرة كانوا يسمعونها ويسمعون التحدى بأن هذه معلومات جديدة لم يكن يعلمها ولا قومه، بالرغم من ذلك لم يقولوا: هذا ليس جديداً بل نحن نعرفه، أبداً لم يحدث أن قالوا مثل ذلك ولم يقولوا ونحن نعلم من أين جاء محمد بهذه المعلومات، أيضاً لم يحدث مثل هذا، ولكن أحداً لم يجرؤ على تكذيبه أو الرد عليه لأنها فعلاً معلومات جديدة كلياً!!! وليست من عقل بشر ولكنها من الله الذى يعلم الغيب فى الماضى والحاضر والمستقبل".

وهكذا فإن القرآن حوّل هذا الرجل من عدو يبحث فيه ليجد أدلة للطعن عليه.. إلى داعية يسلم ويؤمن به. ويعمل للدفاع عنه ...

## الباب الأول تفسير القرآن الكريم لدى المفسرين القدامى

### الفصل الأول مزلق المفسرين القدامى

لما كان الهدف الرئيسي للقرآن هو دعوة الناس إلى الإيمان بالله فإن ذلك اقتضى أن تأخذ الصياغة القرآنية إيقاعاً موسيقياً وتصويراً فنياً. حتى يمكن أن يدخل الأذان فالقلوب، ولما كان المعجزة الدائمة الخالدة التي تعود إليها الأجيال جيلاً بعد جيل، وعصراً بعد عصر لتجد فيها الحكمة، والهدى والتوجيه السليم بحيث تظل له المكانة التي كانت له بالنسبة للجيل الأول الذي استنقذه القرآن من الظلمات إلى النور فإن ذلك اقتضى أن يقتصر القرآن على الأصول والكليات، وأن يهمل الفروع والتفاصيل والجزئيات وأن يستخدم التعبيرات المرنة التي تتسع للتأويل والتفسير وتأخذ منها الأفهام قدر طاقتها ومنشود حاجتها .

ولم يكن من هذا كله بد، لأن الله تعالى وضع للكون سنناً لا بد أن تتبع، ومعجزة القرآن ليست أن يخرق هذه السنن، ولكن أن يتلى على الناس ليجدوا فيه الرحمة والذكرى ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. { ٥١ العنكبوت } ..

ولهذا يستحيل تخيل صورة أخرى يمكن لمعجزة دائمة خالدة.. لكل الناس فى كل العصور وفى كل الأماكن غير أن تكون "كتاباً" ويستحيل تخيل صورة أخرى لمثل هذا الكتاب غير ما أخذها القرآن.. ليتمكن معها تحقيق هدفه العظيم الهداية الإلهية للبشرية كافة على مدار العصور والأزمان .

وكان الصحابة الذين عاصروا نزول القرآن يجدون فيه رياً لنفوسهم، وشفاءً لصدورهم ونهجا لما تكون عليه حياتهم وسلوكهم. ولم يطمحوا - باستثناء قلة - أن يحملوا القرآن كله، وكان حسبهم عدد من السور يتدبرها الواحد منهم فتغنيه، لأنها قد تكون ذات معان واضحة فيفهمها، أو تكون ذات إعجاز لغوى فتخشع لها نفسه، ويمكن أن يكون هذا أو ذلك معاً، وفى هذا أو ذلك رضا ومقنع. وكانوا على ما روى إذا تعلموا عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل، وقد استغرق عمر بن الخطاب ثمان سنوات فى حفظ البقرة، ولما أتمها نحر جزورا، ووقف عند كلمة "أباً" فى سورة عبس (الآية ٣١) ثم أعلن أن جهله بها لا يضيره، بل إن تفصيها هو التكلف بعينه .

ومما يزيد فى دلالة هذا المسلك ومغزاه أن النبى عليه الصلاة والسلام كان بين ظهرانيهم، وكان يمكنهم أن يسألوه، خاصة وقد كان كل ما جاء فى القرآن جديداً عليهم، ولكنهم آثروا أن لا يفعلوا ورأوا فى ذلك نوعاً من الفضول يثقل عليهم لارتباط العلم بالعمل عندهم. فالقليل الذى يطبقونه خير من الكثير الذى لا يقومون به أولاً يؤدون شكره، ويتنافى مع ما ينبغى للمؤمن من سمت وخلق. ولعلمهم تذكروا ضيق النبى صلى الله عليه وسلم بمن يسأل تزيدهم وتعننا أو تفصيلاً دون حاجة ملحة لذلك، "ذرونى ما تركتكم" وما جاء فى القرآن من تحريم السؤال عن أشياء "أن تبد لكم تسؤكم"

بل أعجب من ذلك في الدلالة أن النبي عليه الصلاة والسلام وقد تنزل عليه القرآن لم يخبرهم بتفاصيل عن تفسير أو تأويل ما جاء به إذ لو فعل ذلك لوصل إلينا قطعاً ليس فحسب من باب الرواية كعشرات الألوف من الأحاديث الأخرى ولكن من باب الأحكام لأن ما سيقوله سيعيد الحكم الفصل في الأمر ولكن الذى وصل إلينا من التفسير المرفوع إلى النبي لا يتعدى ثلاثة عشر صفحة على ما صوره السيوطى فى كتابه "الإتقان فى علوم القرآن" أجمل فيها التفاسير المصرح برفعها "صحيحها وحسنها وضعيفها ومرسلها ومعطلها" وإن لم يعول على "الموضوعات والأباطيل" كما استبعد ثلاثة أحاديث طويلة مرفوعة لم يثبت له صحتها أحدها حديث موسى مع الخضر.. والثانى حديث الفتون والثالث حديث الصور (الذى يتناول يوم القيامة) فسكوت النبي عن تفسير القرآن أو معظمه له دلالة التى لا يمكن إهمالها لما فيها من حكمة ..

ولخص أحد الشيوخ المعاصرين الموقف فى هذه النقطة فقال "إن القرآن الكريم لم يحظ بتفسير مروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم ولا عن صحابته إلا فى آيات قليلة جداً ومتناثرة فلا يمكن أن تكون تفسيراً كاملاً بالرواية يعتمد عليه" (١٢) .

وعلى كل حال فقد اختلفت الصورة بعد أن قبض النبي وانقضى جيل الصحابة وجاءت الفتوح بالألوف المؤلفة من الذين اسلموا مع انتصار الإسلام من يهود أو نصارى أو صابئة.. وحملوا معهم بقايا معتقداتهم القديمة التى لم يكن من السهل عليهم التخلص منها ولم تسعفهم معرفتهم المحدودة بالعربية فى تفهم القرآن أو إدراك إيجازه ومجازه، استعارته وإشارته، ولم يكن فيهم ذلك الحرص على الجمع بين العلم والعمل وإنما كان فى معظمهم فضول للتعرف على ما جاء فى القرآن ومدى اتفاق أو افتراق ذلك عما كانوا يعتقدونه وعزز هذا كله أن توسع المجتمع وتشعبت قضاياها وتعددت مسائله ولم يكن الذين ولوا الأمر بمنزلة النبي المشرع الذى يفصل فى الأمور بما لا يرد فانفتح الباب أمام ما أطلق عليه "علوم القرآن" وعكفت مجموعات من الناس على تأويل وتحليل وتفسير آيات القرآن كل من زاويتها الخاصة مستعينة فى ذلك بما كان فى الكتب القديمة وبوجه خاص التوراة وما كان بين يدي أهل الكتاب من أقاصيص وروايات طافحة بالتفاصيل ولم يجدوا حرجاً من ذلك لما رووه من أحاديث لا تحرم ذلك بل لقد رووا "حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج" فنقلوا من "علماء اليهود أو من ظنهم علماء بالتوراة وربما لم يكونوا من العلماء بل من النقلة المحرفين الذين يحرفون ويزيدون أو من عوامهم الذين يسمعون وينقلون ويزيدون. ويستمتع منهم المسلمون حتى لتجد كتب التفسير محشوة بتفاصيل لهذه القصص لم يذكرها القرآن ولكنها مأخوذة عن هؤلاء مما اشتهرت تسميته "بالإسرائيليات" وبعض هذه الإسرائيليات تجدها معزوه إلى ابن عباس أو غيره من الصحابة والتابعين مما يوهم روايتها عن الرسول صلى الله عليه وسلم وما هى كذلك وإنما هذا مصدرها الذى أتت منه، اليهود الذين أسلموا ونصبوا من أنفسهم أو نصب منهم المسلمون معلمين مخبرين، بما لم يذكره القرآن من تفاصيل القصص" (١٣). وامتألت كتب التفسير بهذه الأقسام وغيرها كأن ذكر ذلك هو القصد وليس تفسير القرآن بعينه حتى صح على بعضها ما قيل عن تفسير الرازى "فيه كل شىء إلا التفسير" .

وإذا تصورنا حالة المجتمع الإسلامى وقتئذ، وقد اكتسحه مد متلاحق من الأجناس التى آمنت بالإسلام، دون أن يتوفر للأغلبية الساحقة الورع من ناحية أو العلم بالأساليب العربية من ناحية أخرى، ودون أن تتخلص تماماً من مؤثراتها القديمة ورواسبها وتقاليدها العرقية والحضارية، وإذا وضعنا فى تقديرنا أن

(١٢) التفسير والمفسرون بقلم الشيخ عبد المنعم النمر - مجلة العربى العدد ١٢٥ محرم ١٣٨٩ أبريل ١٩٦٩ ص ٢٥، وسنعاود الإشارة إلى هذه النقطة عن الحديث عن "التفسير بالمأثور"...

(١٣) المرجع السابق ص ٢٣ .

هذا المجتمع الذي خرج لتوه من البيئة الصحراوية الساذجة، كان يبني كل نظمه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على الإسلام، أى على القرآن أساساً، لتأكد لنا وجود تناقض بين أمس هذا المجتمع ويومه، وفراغ كبير نتيجة لخروجه من البيئة البسيطة إلى العالم المعقد وكان لابد من ملء هذا الفراغ وتوسيع الأطر الإسلامية ليتمكن أن تحيط بأطراف هذا المجتمع المتمدن وتقى باحتياجاته المتزايدة. وتحدد الموقف إزاء الفلسفات والنظريات الوافدة، سواء كان هذا الموقف رفضاً أو اتفاقاً أو تسوية .

من أجل هذا نقول إن ظهور العلوم الإسلامية، سواء كانت فقهاً أو تفسيراً كان أمر مقضياً لتطلبه الظروف المعينة التي مر بها المجتمع الإسلامي وقتئذ، وإن لم يستتبع هذا أن تلك الظروف كانت هي الظروف المثلى أو أن النتيجة كانت موفقة ومبرأة من المآخذ. ذلك لأن الله تعالى أنزل القرآن - على ما هو عليه - لحكمة عظمى وكان يمكنه أن يذكر الأسماء والأرقام والتفاصيل ولكن القرآن ليس كتاباً للسرود والواقعة عنده ليست إلا سبيلاً لإيراد المضمون العام أو الحكمة الموضوعية المطلقة. ومن هنا فإن القرآن يتعمد الإبهام حتى عندما يكون للسياق دلالة معينة. لأن قراءة الآية محكومة بالسياق شئ. وذكر الآية دون السياق شئ آخر فهذا الأخير يجعل من المستطاع الاستشهاد بالآية في غير ما نزلت فيه على وجه التخصيص، ما دامت تحتل ذلك، وهي بالطبع تحتل ما دام النص لا يقصرها. فالآية مثلاً «وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ». {٥ القصص}.. مقصود بها بحكم الآيات التي تسبقها، والآيات التي تعقبها "بنى إسرائيل" ولكن الآية ما دامت لا تتضمن قصراً لها على بنى إسرائيل صراحة فيمكن أن تقدم مبدئاً لاستنهاض كل الذين يستضعفون في الأرض بحكم ظروف كظروف استضعاف بنى إسرائيل سواء كانوا في الهند أو السند، الشمال أو الجنوب، الحاضر أو المستقبل وتسهم في وضع قاعدة رئيسية من قواعد تحرير الشعوب وتحقيق العدالة.. الأمر الذي يمتنع لو قصرت الآية على بنى إسرائيل دون غيرهم صراحة .

(١)

### طريقة المفسر القدامى ...

سلك المفسرون القدامى طريقة واحدة بصفة عامة في التفسير فهم يبدأون بتفسير الفاتحة، ثم يسيرون مع السور بترتيب المصحف حتى السورة الأخيرة "الناس" وهم يبدأون في تفسير السور بترتيب آياتها فيأخذون الآيات آية فآية تبعاً لترتيبها في السورة وقد يضمن بعض الآيات بعضها لبعض إذا كان هناك ترابط. ولم يكن معدى عن ذلك، وهذا الترتيب قد لا يكون الطريقة المثلى لفهم القرآن، فكما لاحظنا في "تنوير القرآن" أن تفسير السور آية فآية هو نوع من التشريح الذي لا يتأتى إلا لجسم ميت أما إذا كانت الصياغة حية. متوثبة، متلاحمة فإن هذه الطريقة تذهب بحيويتها وفعاليتها التي تتجلى عند قراءة السورة - أو على الأقل - عدداً من آياتها مرة واحدة دون تجزئه. ولكن - كما قلنا - لم يكن من هذه الطريقة بد ما دام المطلوب هو تفسير القرآن آية فآية ..

ومن المفهوم أن المفسر يجب أن يحكم عدلاً من العلوم حتى يمكن أن يقوم بمهمته في التفسير. وقد شرحها علماء التفسير - كالتسيوطي في الإقتان وغيره - وأولى هذه العلوم هي علوم اللغة - لأن القرآن كلام - أى لغة ولا بد لتفسيره من إحكام اللغة التي يعبر بها. ويدخل في اللغة النحو، والصرف، والاشتقاق والمعانى والبيان والبدیع، والقراءات وعلم أصول الدين وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ، والفقهاء ويجب أن يكون ملماً بالسنة، وبوجه خاص الأحاديث التي تبين المجمل والمبهم .



وفى العادة. يبدأ المفسر فيذكر أولاً ما جاء عن الرسول عن هذه الآية إن وجد، فإن لم يجد فإنه يتحرى ما قدمه الصحابة. فإن لم يجد فإنه يتقصى التابعين. وقد يختلفون فى مدى الاعتماد على الرواية، فالذين يفسرون بالمأثور يعتمدون اعتماداً كلياً عليه.. أما الذين يأخذون بالرأى. فقد يكون لهم ملاحظات على أقوال بعض الصحابة - وإن ندر - لأن الصحابة جميعاً عدول كما قرر ذلك المحدثون. وقد يأخذون برأى التابعى - أو لا يأخذون ..

ويتجلى عبر التفسير الروح العامة للمفسر، فإن كان مذهبياً - معتزلي مثلاً كالزمخشري فإنه يفسر الآيات طبقاً لمذهبه، وقد يتعسف فى هذا، وإن كان محدثاً، فهو يأخذ الحديث بعجره وبجره، صحيحه وضعيفه، وإذا كان متلهفاً على معرفة المغيبات، وتبين المهمات فإنه يعتمد إلى ما رواه أهل الكتاب فيحشد صفحات طوال من أقوال التوراة أو أهل الكتاب وهم يرون أن بعض كبار المفسرين بالمأثور لا ينجون من هذا المزلق مثل الطبرى فى تفسيره لأنه يعد من المفسرين بالمأثور، كما يعدون من المفسرين بالمأثور معالم التنزيل للبقرى (المتوفى سنة ٥١٦ وتفسير ابن كثير (المتوفى سنة ٧٧٤). والجواهر الحسان فى تفسير القرآن لأبى زيد عبد الرحمن بن محمد الثعالبي المتوفى سنة ٨٧٦ والدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى (المتوفى سنة ٩١١) .

كما يعدون من مؤلفات التفسير بالرأى تفسير مفاتيح الغيب للرازى (المتوفى سنة ٦٠٦) و"أنوار التنزيل وأسرار التأويل" لقاضى القضاة ناصر الدين عبد الله بن محمد البيضاوى (المتوفى سنة ٦٨٥) و"لباب التأويل فى معانى التنزيل" لعلاء الدين على بن محمد بن إبراهيم المعروف بالخازن (المتوفى سنة ٧٤١) و"البحر المحيط" لأثير الدين أبى حيان محمد بن يوسف الأندلسى (المتوفى سنة ٧٤٥) و"إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم" لأبى السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادى المتوفى سنة ٩٨٢ وغيرها الكثير .

وبالإضافة إلى هذه التفاسير فقد وضعت كتب كثيرة فى كل موضوع من موضوعات علوم أو فنون القرآن.. فهناك كتب عديدة عن النسخ الذى اهتموا به أعظم اهتمام حتى كانت قولتهم لمن لم يعلم الناسخ من المنسوخ "هلكت وأهلكت!" وهناك كتب عن أسباب النزول. أما البحث عن إعجاز القرآن فقد كان طلبه علماء البلاغة وألف فيه كما ألف معظم علماء اللغة لأن القرآن هو أصل اللغة وسندها، وإن كان بعض اللغويين استبدت بهم صفتهم النحوية على ما سنذكر ..

ويجب أن نذكر أن التفسير كعلم بدء فى عهد الحديث، وكفرع منه، قال الدكتور محمد حسين الذهبى فى كتابه القيم "التفسير والمفسرون" ..

"ثم بعد عصر الصحابة والتابعين، خطا التفسير خطوة ثانية، وذلك حيث ابتدأ التدوين لحديث رسول الله فكانت أبوابه متنوعة، وكان التفسير باباً من هذه الأبواب التى اشتمل عليها الحديث، فلم يفرد له تأليف خاص يفسر القرآن سورة سورة، وآية آية، من مبدئه إلى منتهاه، بل وجد من العلماء من طوف فى الأمصار المختلفة فجمع بجوار ذلك ما روى فى الأمصار من تفسير منسوب إلى النبى أو إلى الصحابة، أو إلى التابعين، ومن هؤلاء: يزيد بن هارون السلمى (المتوفى سنة ١١٧) وشعبة ابن الحجاج (المتوفى سنة ١٦٠) ووكيعة بن الجراح (المتوفى سنة ١٩٧) وسفيان بن عيينة (المتوفى سنة ١٩٨) إلى أن يقول : وهؤلاء جميعاً كانوا من أئمة الحديث، فكان جمعهم للتفسير جمعاً لباب من أبواب الحديث، ولم يكن جمعاً للتفسير على

استقلال وانفراد، وجميع ما نقله هؤلاء الأعلام عن أسلافهم من أئمة التفسير نقلوه مسنداً إليهم، غير أن هذه التفاسير لم يصل إلينا شيء منها، ولذا لا نستطيع أن نحكم عليها<sup>(١٤)</sup> .

وينسبون إلى عالم الحديث عبد الملك بن جريج - وهو أحد علماء الحديث في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة أنه أول من اشتغل بكتابة تفسير. فكتب ثلاثة أجزاء عن ابن عباس وفي هذا التفسير نجد القسامات التي سيجدها في معظم كتب التفسير، أعنى حشد الرواية من صحيحها وسقيمها، وكان بن جريج من الموالى روميا كما ينم اسمه الذي هو تصغير "جورج" وكان أمويا وروى عنه مجاهد، وعطاء بن رباح وميمون بن مهران وابن شهاب الزهري والسفيانان ووكيع وعبد الرازق وهو وابن عروبة أول من صنف الكتب في الحجاز. مع هذه الصفات التي توثقه فإنه كان يدلس وتزوج نحو سبعين امرأة لأنه كان يرى رخصة نكاح المتعة. وقد يلقي أصله الرومى. واتجاهه الأموى وأنه يدلس شيئاً من الظلال أو الشبهات فيما نرى دون أن يمكن القطع بذلك .

**ونشأة التفسير في مهد الحديث وكفرع منه يعطينا إيضاحاً للأهمية التي أعطاها الأسلاف للتفسير بالمأثور في كتب التفسير .**

وبعد بن جريج دخل الحلبة أول اللغويين وهو يحيى بن سلام بن ثعلب البصرى (وتوفى سنة ٢٠٠هـ) وقد روى عن أصحاب الحسن البصرى وحامد بن سلمة وهمام بن يحيى وسعيد بن أبى عروبة . ثم جاء محمد بن جرير الطبرى الذى يعد أكمل المفسرين ووضع تفسيره "جامع البيان فى تفسير القرآن" الذى فقد حيناً من الدهر وقيل إنه لو سافر فرد ما إلى الصين فى طلبه لما كان كثيراً ..

\* \* \*

وعندما أقدم المفسرون على تفسير القرآن بحكم الظروف والملابسات التى أشرنا إليها.. وجدوا القرآن كالبحر هيهات أن يمحروا عبايه أو يسبروا أعماقه أو يدركوا دخائله، ورأوا أمواجاً عالية تدفعهم ذات اليمين وذات الشمال، وتيارات عميقة تشدهم من خلف أو أمام فشدهوا وسلم بعضهم، وارتضوا ما جذبته شباكهم من أسماك أو لآلى بحسب قدرتهم ومهارتهم لا بحسب ما يضمه البحر من ذخائر أو يكتنه من لآلى... بينما كابر البعض الآخر أو ادعى أو اختلق ما شاء من أقاويل أو ارتضى من روايات تحل مغاليق هذا البحر وتوضح مجاهله ..

وكانت هناك ثلاث مجموعات أقدمت على التفسير وعنيت به **فباللغويون** أرادوا أن يصلوا إلى أسرار الإعجاز اللغوى فى القرآن، وما جاء به من نظم بديع ونسق فريد، وتطويع فى بنية الكلمات ليحقق وحدة الإيقاع وتنغيم الألفاظ، وليصل بالجملة القرآنية إلى أقصى درجة من إحداث الأثر وأداء المعنى. **والمذهبيون** حاولوا إثبات مذاهبهم فى جوانب من العقيدة بمختلف الآيات مستغلين مرونة التعبير، وما يمكن أن يحمله تركيب الجملة القرآنية من معانى، وبوجه خاص الآيات المتشابهات، **والإخباريون** تتبعوا الوقائع التى ذكرت فى القرآن من خلق آدم حتى قيام الساعة وما بين ذلك من أحداث، وقصص الأمم التى تحدث عنها القرآن، وفى مقدمتها بنو إسرائيل ..

(١٤) التفسير والمفسرون ج ١ ص ١٤١ .

ونحن نفترض في معظم هؤلاء حسن النية، وأنهم أقدموا على هذه المهمة لخدمة القرآن والتقرب إلى الله، كما لا ننكر عليهم ما بذلوا من جهد وما تحملوا من مشقة وما توصلوا إليه من نتائج، ولكن هذا لا ينفى وجود عوامل عديدة أثرت عليهم كتمسكهم بالمفاهيم السابقة. فاللغويون دخلوا الميدان مسلحين بقواعدهم النحوية، فوجدوا القرآن في بعض الحالات، يضرب بهذه القواعد عرض الحائط، والمذهبيون وجدوا أن ظاهر النص قد لا يؤيدهم تماماً، أو هو أقرب إلى المخالفة، فعمد هؤلاء وأولئك إلى التعسف في التأويل. أما المؤرخون الذين لم يكن لهم منهج، وغلبت عليهم السذاجة فقد كانوا ضحايا للوضاعين وأسرى الإسناد، وجازت عليهم نصوص لا حصر لها، يمكن القول دون مبالغة - أنها مفتريات على الإسلام ومكايد نصبت للنيل منه .

ولعل أكبر مأخذ يؤخذ على هؤلاء جميعاً أنهم في غمرة اهتماماتهم بتخصصاتهم وعملهم لإثبات وجهات نظرهم أهملوا الإشارة إلى روح القرآن نفسه تلك الروح التي تنتظم آياته جميعاً ككتاب إحياء ونهضة وهداية يستهدف إخراج الناس من الظلمات إلى النور .

وكانت النتيجة أن المفسرين - كما لاحظ ذلك أحد أعضاء مجمع البحوث الإسلامية "قد تصوروا مهمتهم على نحو خاص كان له أثر بين في توجيه التفاسير التي وضعوها فقد واجهوا القرآن في البداية كنص يراد شرحه وإيضاح معانيه فشرحوا غامضه وحرروا معانيه وأشاروا إلى ما يتضمنه من مبادئ وأصول، ولكن الأمر لم يلبث أن تطور إلى صورة لم تكن تخطر لأحد على بال ولن نستطيع أن ندرك هذا التطور الجديد حق إدراكه إلا إذا تذكرنا أن العلوم العربية كانت في هذه الحقبة تنمو وتزدهر في دراستها فأوغل فريق في دراسة البلاغة وتوسع آخرون في دراسة النحو والصرف أو اللغة وجمع غيرهم في دائرة تخصصهم بين كل هذه العلوم أو عدد كبير معها .

والأمر الخطير هنا أن التخصص يصبغ صاحبه بصبغته الخاصة بصورة قوية وفعالة لا يستطيع أحياناً أن يتحرر منها حتى إنه لينظر إلى الأشياء من وجهة نظر تخصصه شاء أم أبى وقد اتجه كثير من هؤلاء اللغويين إلى تفسير القرآن فماذا كانت النتيجة؟ بحسبك أن تتظر في تفسير الزمخشري مثلاً وأن تتذكر حين النظر فيه أن الرجل من كبار علماء النحو والصرف واللغة والبلاغة فستجد في تفسيره مصداق ما أشرنا إليه آنفاً من تأثر الرجل تأثيراً عميقاً بالعلوم التي تخصص فيها فأول ما يأخذه نظره من القرآن فيحاول بحثه ودرسه هو الاستعارات والمجازات وغريب القرآن ثم نحو القرآن وصرفه حتى إذا وصلت إلى حاشية الجمل على الجلالين خيل إليك إن الرجل إنما كان يعنيه أن ينخذ من القرآن الكريم مجالاً لتطبيق علوم اللغة وبخاصة النحو والصرف أما معاني الآيات وموضوع القرآن فقد أصبح بمعزل عن مجال الشرح والعرض .

وخلاصة الأمر أن القرآن تنقلت به الحال من كتاب لتربية المسلمين وتعليمهم الدين والشريعة إلى نص لمجرد الفهم إلى ميدان فسيح لتطبيق علوم اللغة على اختلاف أنواعها وبهذا تم عزل القرآن كعامل يعمل لتربية المسلمين وتكوين عقائدهم وأخلاقهم وشريعتهم وتوجيه سلوكهم"<sup>(١٥)</sup> .

(١٥) الأستاذ إبراهيم اللبان في بحثه عن "القرآن وتجديد المجتمع" نشر في "التوجيه الاجتماعي في الإسلام" من بحوث ومؤتمرات مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩١ - ١٩٧٢ الجزء الثاني ص ١٦١ .

(٢)

## مزالق المفسرين القدامى

### أ. اللغوية

وقع المفسرون القدامى خلال تفسيراتهم العديدة فى مزالق نتيجة لاختلاف المنهج الذى نهجه كل فريق وأبرز هذه المناهج هو ما قام على أساس اللغة، وما تولاه اللغويون وهو أمر يبدو مفهوماً لأن الإعجاز اللغوى أسبق إلى الأذن وأظهر إلى العين من إعجاز المعانى الذى يتطلب أعمال الذهن ومن ثم تركز الاهتمام الأعظم لكثير من المفسرين على اللغة والأسلوب والصياغة والنحو والصرف .

وعثره اللغويين من المفسرين نشأت من أنهم ركزوا العناية على الصناعة اللغوية والنحوية بصورة تفرغ الأسلوب من المضمون فقالوا إن فى آية: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾. {٤٤ هود}. عشرين ضرباً من البديع وأن قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. {١٢٤ البقرة}. قد جمع الخبر والطلب والإثبات والنفى والتوكيد والحذف والوعد والوعيد.. وفضلوا الآية: ﴿وَلَكُمْ فِي الْفُصَّاصِ حَيَاةٌ﴾. {١٧٩ البقرة}. على التعبير العربى القديم "القتل أنفى للقتل" وتقصوا ما فى القرآن من تشبيه واستعارة وكناية وتعريض وإيجاز وإطناب وخبر وإنشاء الخ... وألفت كتب كاملة عديدة فى أنواع ذلك .

ولا ريب أن هذه الكتابات ألفت أضواء عديدة على فنون من الإعجاز القرآنى ولكن الله تعالى لم ينزل القرآن ليقارع اللغويين الذين يتصدون للحكم فى البلاغة. وليزعمهم الحجة ويحملهم على الاعتراف. إن القرآن أنزل لعامة الناس الذين لا تكون لهم عدة اللغويين ويكون التأثير عليهم بغير هذا التنفن اللغوى، وأهم من هذا وهو ما أغفله اللغويون وهم يبحثون فى تفاصيل ومفردات الإعجاز أن القرآن أولاً وقبل كل شىء كتاب دعوة أنزله الله هدى ورحمة ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بأن يحدث فى نفوسهم تلك الثورة التى أطلق عليها "الإيمان بالله" فتعريف الله تعالى وتقريبه إلى الأذهان ودعوة الناس للإيمان به ووضع الإنسان مكانه فى الكون والمجتمع هو الهدف الرئيسى للقرآن وكل ما جاء فى القرآن من بلاغة وإعجاز إنما أريد به تحقيق هذا الهدف ومن هنا فإن إعجاز القرآن وإن تضمن فيما تضمن ما أشار إليه البلاغيون القدامى إلا أن تكييف هذا الإعجاز والتعرف على منطلقه وجوهره هو ما فات اللغويين القدامى وكان السبب الرئيسى لذلك هو نظرهم إلى القرآن ككتاب بلاغة وليس ككتاب هداية وإغفالهم أن هدف هذا الإعجاز وإن كان يتضمن إفحام المخالفين إلا أنه بالدرجة الأولى اكتساب المؤمنين .

وأسوأ من عثرة التركيز على الصناعة بصورة تفرغ القرآن من مضمونه أنهم فى بعض الحالات افتأنوا على أسلوب القرآن وحاولوا أن يخضعوه لقواعدهم. فإذا نزلوا عن ذلك قالوا - كما روى السيوطى - "هذا تفسير معنى وهذا تفسير إعراب.. والفرق بينهما أن تفسير الإعراب لا يد فيه من ملاحظة الصناعة النحوية وتفسير المعنى لا تضره مخالفة ذلك"<sup>(١٦)</sup> .

وأشار كاتب محقق هو الأستاذ أحمد عبد الستار الجوارى فى كتابه "نحو القرآن" إلى المأزق الذى وقع فيه النحاة واللغويون عندما أرادوا الجمع بين مذاهبهم المقررة وما تشمل عليه الصياغة القرآنية من بلاغة، بدلاً من أن يجعلوا أساليب القرآن المثال الذى يقتدى به وتقتبس منه قواعد اللغة فقال: "ولكن الذى

(١٦) الإتيان للسيوطى ص ١٨٢ ج ٣ (الطبعة الثانية مكتبة محمود توفيق بالأزهر) .

كان ممن وضعوا النحو فى أول الأمر غير ذلك بل عكس ذلك من بعض الوجوه فقد اشتطت بهم السبل وعميت عليهم المسالك فتكبروا سبل القصد واعتمدوا فى وضع قواعد النحو على ما بلغهم من كلام العرب شعره ورجزه ومثله. أو أثروا جانب المنطق فتصوروا القاعدة قبل استقراء المادة اللغوية وركبوا مركب الشطط فحاولوا أن يجعلوا للقواعد المجردة سلطانا على المروى المأثور يحكمونها فيه ويحسبون أن ذلك هو الصواب وما هو إلا مجانبة الصواب ولقد بلغ بعضهم فى هذا المجال مبلغ الإيغال والغلو فحكموا على مواضع من آي القرآن بخروجها على نحو العربية.. وركنوا إلى التأويل والتخريج، حتى تنسجم تلك المواضع بأساليبها الرائعة وتراكيبها الدقيقة مع ما افترضوا من قواعد وما رسموا للنحو من حدود .

وثمة جانب آخر يستأهل التأمل والتفكير، ذلك أن النحاة القدامى قد احتكموا إلى المنطق كثيرا وأقاموا عليه قواعد النحو. ناسين أن التعبير باللغة فن ما أكثر ما يتجاوز حدود المنطق ورسومه فيحذف أو يذكر، ويقدم أو يؤخر استجابة لدواع لا تتعلق بالمنطق ولا تخضع له ..

ولقد أدى بهم ذلك الاستناد إلى المنطق إلى أن يرسموا للتركيب صورا ثابتة جعلوها هى الأصل، وما عداها خروجا على الأصل فقالوا: إن التركيب لا بد أن يشتمل على ركنين مسند ومسند إليه أو موضوع ومحمول، وذلك هو المبتدأ والخبر والفعل والفاعل، فإذا حذف أحدهما فعلى نية ذكره، ولا بد حينئذ من التقدير.

وقالوا إن المعمول لا بد له من عامل يلتزم فى التركيب فإذا جدوه ردوا إليه العمل وإلا قدره .

وتراهم أحيانا يتلمسون وجه الصواب ويقفون على الحقيقة أو بعض الحقيقة فيقولون: عدم التقدير أسلم من التقدير .

وتراهم يسلمون بوجود حذف العمدة فى مواضع استقرعوها أحسن استقراء ولكنهم يوجبون فى الوقت عينه تقدير المحذوف فيفسدون بذلك معنى الكلام ويضيعون على منثنه ما قصد إليه بالحذف أو التقديم والتأخير، وهم بذلك يعزلون النحو عن المعنى بل يجردونه من فنية التعبير التى لا يمكن أن ينسلخ عنها لو كان حقا دراسة شاملة للتركيب<sup>(١٧)</sup> .

وتعقب المؤلف بعض سقطات النحويين وتعسفاتهم وما حاولوه من الحجر على الطلاقة القرآنية بدعوى مبادئهم المقدسة .

"مثال ذلك قول الفراء فى إعراب "ويقولون طاعة. الرفع على قولك منا طاعة أو أمرك طاعة، وكذلك: "قل لا تقسموا: طاعة معروفة" معناه، والله أعلم قولوا سمع وطاعة، وكذلك فى سورة محمد صلى الله عليه وسلم .

"فأولى لهم، طاعة وقول معروف". ليست مرتفعة بـ (لهم)، بل هى مرتفعة على الوجه الذى ذكرت لك. وذلك أنهم أنزل الأمر بالقتال فقالوا: سمع وطاعة فإذا فارقوا محمدا صلى الله عليه وسلم غيروا قولهم فقال الله تبارك وتعالى:

﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾. {٢١ محمد} ..

(١٧) كتاب نحو القرآن للأستاذ أحمد عد الستار الجوارى - مطبعة المجمع العلمى العراقى ١٣٩٤ - ١٩٧٤ بغداد - من ص٧ - ١٠ (بتصرف) .

وقد يقول بعض النحويين (وذكر فيها القتال) وذكرت طاعة وليست فيها واو فيجوز هذا الوجه، ولو وردت الطاعة وجعلت كأنها تفسير للقتال جاز رفعها ونصبها .

أما النصب فعلى. ذكر فيها القتال بالطاعة أو على الطاعة والرفع على: ذكر فيها القتال ذكر فيها طاعة .

كل هذا السلوك فى الدروب الملتوية لتحقيق القاعدة التى يقوم عليها مذهب الفراء أن المبتدأ مرفوع بالخبر وأن الخبر مرفوع بالمبتدأ (ذلك مذهب أهل الكوفة) .

وأنت ترى أنه لا حاجة إطلاقاً لأى زيادة فى الكلام، وهذا اللفظ المفرد المرفوع (طاعة) يغنى عن تركيب، ويستغنى عن كل تقدير يقدم عليه أو يؤخر عنه، فهو إما إخبار يسد مسد تركيب، وإما إنشاء لا يحتاج إلى مزيد .

ومن أمثلة ذلك أيضا قول الزمخشري فى: ﴿أَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾. {١٧ هود}.. معناه أمن كان يريد الحياة الدنيا فمن كان على بينة أى لا يعقبونهم فى المنزلة ولا يقاربونهم .

وأى بون بين هذا التأويل ومعنى ما قصدت إليه العبارة فى الآية، وأنى للمعرب أن يضيف إلى العبارة ما ليس منها صراحة ولا ضمنا .

ويضيق النحاة بأسلوب القرآن فى الحذف الذى يخالف قواعدهم ولم يحيطوا بالاستعمالات الواردة فى العبارة القرآنية .

"ومن ذلك حذف المضاف والاكتفاء بالمضاف إليه، فى أسلوب تفردت به العبارة القرآنية، وقضت قواعد النحاة أن يهجر فلا يستعمله المنشئون، ويكثر ذلك حين يكون المحذوف المتصور علة لما قبله، أو بعبارة النحاة مفعولا له أو سببا، من ذلك قوله تعالى فى سورة هود :

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾. {١٢ هود} ..

قال الزمخشري: أن يقولوا مخافة أن يقولوا .

وقال أيضاً فى قوله تعالى من سورة النحل :

﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾. {١٥ النحل}.. كراهة أن تميل بكم وتضطرب .

وأدى تمسكهم بقواعدهم بالزمخشري لأن ينزلق دون أن يشعر فيقول فى تفسير ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَىٰ الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾. {٣ إبراهيم}.. (والأصل؟!). وييغون لها عوجا فحذف الجار وأوصل الفعل" ولم يستشعر الزمخشري حساسية أو أنه أساء التعبير عندما قال والأصل... الأمر الذى استشعره مؤلف "تحو القرآن" فوضع لفظة (والأصل) بين قوسين وأتبعها بعلامة تعجب واستفهام لأن الزمخشري دخل الحلبة كنعوى ولغوى يرى الأصل فيما يراه النحاة واللغويون.. بينما رأى الأستاذ الجوارى الأصل فيما يضعه القرآن .

ويستطرد الأستاذ عبد الستار الجوارى .

"ومما يقذف بالنحاة فى لجج الحيرة والتخبط قوله تعالى فى سورة النساء :

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾. {النساء} ١٢٧..

لأن الفعل "رغب" يصل إلى المفعول بحرفين يؤديان معنيين متعاكسين ولا بد من ذكر أحدهما إذا أريد معنى بعينه، فإذا قيل "رغب في" دل على معنى الإيجابية، وإذا قيل "رغب عن" دل على الرغبة السلبية، وحذف الحرف هنا يوقع في اللبس على حد ما يزعمون، يقول ابن مالك :

**وعد لا زما بحرف جر      فإن حذف فالنصب للمنجر**  
**نقلاً وفي أن وأن يطرد      مع أمن لبس كعجبت أن يدوا**

ولذلك يقول الزمخشري في توجيه هذه المسألة: "يحتمل في أن تتكوهن لجمالهن وعن أن تتكوهن لدمامتهن" .

وكان بعض أساتذتنا يذهب في تأويل هذه الآية مذهبا آخر فيقول: إن الرغبة ههنا "في" أو "عن" مستوية، ومن أجل ذلك حذف حرف الجر .

وأحسب أن الأمر هنا أيسر مما يذهبون إليه، لأن معنى الفعل أصلا هو المعول عليه، والحرف هو الذى يحدد علاقته بالمفعول سلبا أو إيجابا، والأصل فى الرغبة هو الذى يحدد علاقته بالمفعول أى أن تكون رغبة فى الشيء .

أما الرغبة عن الشيء فهى الفرع الذى لا يعرف إلا بذكر الحرف "عن" وهذا المعنى هو الذى يقتضى إثبات الحرف أما حذف الحرف فيصرف معنى الفعل إلى أصله وهو الرغبة فى الشيء .  
وإذن فلا مجال للالتباس على الإطلاق" انتهى<sup>(١٨)</sup> .

وأدى تمسك النحاة بما تواضعوا عليه إلى الإخلال بالمعنى القرآنى، فنجد أبا الحسن على بن عيسى الرماني النحوى يقول فى كتاب "معانى الحروف" فى تفسير "ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة" والمعنى "ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة" لأن باء الجر دخلت على المفعول .

وعندما لم يفهموا ضرورة النغم فى التعبير والإيقاع فى السياق وما يؤدى هذه المهمة من حروف أو كلمات، زعموا أن كل شىء يوجد لتحقيق ذلك، ولا يدخل فى استخداماتهم النحوية، يكون - بتعبيرهم "لغوا" ولم يجدوا حرجا من قول ذلك بالنسبة لنصوص قرآنية.. فنقرأ فى استخدامات "ما" .

"والثانى أن يكون لغوا وذلك نحو قوله تعالى ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ﴾. أى فبرحمة.. ومثل ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾. أى بنقضهم .

وأما قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾. ففيه قولان: أحدهما أن ما لغو، والتقدير إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا بعوضة والثانى أن ما نكرة وبعوضة بدلا منها يسد مسد الوصف ويجوز الرفع فى بعوضة من وجهين أحدهما أن تكون خبر مبتدأ محذوف على طريق الجواب كأن قائلًا قال ما هذا المثل فقيل بعوضة، أى هى بعوضة .

(١٨) المرجع السابق ص ٥٣ - ٥٤ .

والثانى أن تكون ما بمعنى الذى وبعوضة خبر مبتدأ محذوف والجملة من صلة ما والتقدير إن الله لا يستحى أن يضرب مثلاً الذى هو بعوضة<sup>(١٩)</sup> .

وعن الآية ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾. قالوا يحتمل عود ضمير الفاعل فى يرفعه إلى ما عاد عليه ضمير إليه وهو الله، ويحتمل عوده إلى العمل، والمعنى أن العمل الصالح هو الذى يرفع الكلم الطيب ويحتمل عوده إلى الكلم الطيب وهو التوحيد يرفع العمل الصالح .

فانظر إلى هذه الافتيات والتعسفات والتعبيرات الركيكة والتفسيرات السقيمة على حين يمر التعبير القرآنى بالنفس مرور النسيم العليل ويدخل الأذان دخول النغم الجميل .

وقد ينتظفون فلا يقولون "لغوا" ولكن زائدة كما قالوا فى "من" فى قوله تعالى "ما لكم من إله غيره" فى حين أن تركيز الجملة القرآنية يكاد يتأتى من حرف "من" الذى اعتبروه زائداً

ولقد لفت إطلاق تعبير "زائدة" على حروف أو كلمات أوردها القرآن، ومدى لياقة ذلك الإمام السيوطى، فأورد فيما يجب على المفسر.. .. أن يجتنب إطلاق لفظ الزائدة فى كتاب الله، فإن الزائد قد يفهم منه أنه لا معنى له، وكتاب الله منزّه عن ذلك، ولهذا فر بعضهم إلى تعبير بدله بالتأكيد والصلة والمقحم، وقال ابن الخشاب اختلفوا فى جواز إطلاق لفظ الزائد فى القرآن، فالأكثر على جوازه نظراً إلى أنه نزل بلسان القوم ومتعارفهم، ولأن الزيادة بازاء الحذف، هذا للاختصار والتخفيف وهذا للتوكيد والتوطئة، ومنهم من أبى ذلك وقال هذه الألفاظ المحمولة على الزيادة جاءت لفوائد ومعان تخصها فلا أفضى عليها بالزيادة قال والتحقيق أنه إن أريد بالزيادة إثبات معنى لا حاجة إليه فباطل، لأنه عبث فتعين أن إلينا به حاجة ولكن الحاجة إلى الأشياء قد تختلف بحسب المقاصد فليست الحاجة إلى اللفظ الذى عده هؤلاء زيادة كالحاجة إلى اللفظ المزيد عليه. وأقول بل الحاجة إليه كالحاجة إلى سواه بالنظر إلى مقتضى الفصاحة والبلاغة وأنه لو ترك كان الكلام دونه مع إفادته أصل المعنى المقصود أبتز خالياً عن الرونق البليغى لا شبهة فى ذلك، ومثل هذا يستشهد عليه بالإسناد البيانى الذى خالط كلام الفصحاء وعرف مواقع استعمالهم وذاق حلوة ألفاظهم، أما النحوى الجافى، فعن ذلك بمنقطع الثرى<sup>(٢٠)</sup> .

وأدت بهم تفرعاتهم إلى تفسيرات باردة، غثة تفتت على المعنى. فالمجاز فى التركيب، ويسمى مجاز الإسناد والمجاز العقلى وعلاقة الملابس مثل ﴿وَإِذَا تَلَّيْتُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتَهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾. نسبت الزيادة وهى فعل الله إلى الآيات وفى تعبير "يذبح أباؤهم" و "ياهامان ابن لى"، نسب الذبح - وهو فعل الأعوان إلى فرعون والبناء وهو فعل العملة إلى هامان، وفى مجاز إطلاق اسم الكل عن الجزء وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم" أى وجوههم، "فمن شهد منكم الشهر فليصمه" أطلق الشهر وهو اسم الثلاثين ليلة وأراد جزءاً منها كذلك أجاب به الإمام فخر الدين عن استشكل أن الجزء إنما يكون بعد تمام الشرط والشرط أن يشهد الشهر وهو اسم لعله حقيقة فكأنه أمر بالصوم بعد مضى الشهر وليس كذلك "ومن مثله إطلاق الجزء على الكل "قولوا وجوهكم شطره" أى ذواتكم لأن الاستقبال يجب بالصدر الخ... ومن أسخف ما أثاروه التساؤل عما إذا كان تعبير "يا أيها الناس" يشمل الكافر والعبد "لعموم اللفظ أو لا يشمل الكافر بناء على عدم تكليفه بالفروع

(١٩) معانى الحروف تأليف أبى الحسن على بن عيسى الرمانى النحوى تحقيق الدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبى دار نهضة مصر ص ٩٠ .

(٢٠) الإتيقان فى علوم القرآن للإمام السيوطى - ص ١٨٢ الجزء الأول .



ولا العبد لصرف منافعه إلى سيده شرعا" فهل هناك ما هو أكثر ركاكة ومناقضة لنص القرآن وروح الإسلام من هذا الكلام .

وأعيانهم جميعاً أن يفهموا كلمة "ليلاً" في الآية الأولى لسورة الإسراء ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الْخ...﴾. لأن السرى لا يكون إلا ليلاً، ومن ثم فإن تكرارها من الناحية اللغوية فحسب يكون لا معنى له، والحق أن القرآن أثبت ليلاً لأن لها ضرورة في نغم الآية لا يتأتى إلا بها، والقرآن إيقاع وموسيقى كما هو نحو ولغة، ومقتضيات الإيقاع والموسيقى أكثر ضرورة من مقتضيات اللغة، لأنها هي التي توجد التأثير الذي يريده القرآن .

على أن مواقفهم تلك كلها تهون أمام موقفهم تجاه "لحن القرآن" كما زعموا أى التعبيرات من نوع "إن هذان لساحران" و"المقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة" "إن الذين هادوا والصابئون" فهنا حطم القرآن أقدس المقدسات النحوية من رفع أو نصب وكان أهون عليهم أن يمسا قداصة القرآن من أن يمسا أو ثانهم التي ظلوا لها عابدين فأوردوا أحاديث مؤتفكات فرووا عن عروة أنه سأل عائشة عن ذلك فقالت: "يا بن أختي هذا عمل الكتاب أخطأوا في الكتاب" ورووا عن عكرمة قال "لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان فوجد فيها حروفا من اللحن فقال لا تغيروها فإن العرب ستغيرها أو قال ستعريها بألسنتها لو كان الكاتب من تقيف والمملى من هذيل لم توجد هذه الحروف"<sup>(٢١)</sup>. كما رووا عن أبان بن عثمان يرويه الزبير يقول قلت لأبان بن عثمان كيف صارت ﴿لَكِنَّ الرِّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ {١٦٢ النساء}.. ما بين يديها وما خلفها رفع وهى نصب؟ قال من قبل الكتاب كتب ما قبلها ثم قال ما أكتب؟ قال أكتب "المقيمين الصلاة" فكتب ما قيل له ونسبوا إلى سعيد بن جبير أنه قال في القرآن أربعة أحرف لحن "والصابئون" و"المقيمين" فأصدق وأكن من الصالحين" "إن هذان لساحران" .

ومن هذا أيضاً ما أخرجه ابن جرير وسعيد بن منصور فى سننه عن طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا﴾. قال إنما هى خطأ من الكاتب حتى تستأذنوا وتسلموا أخرجه ابن أبى حاتم بلفظ هو فيما أحسبه مما أخطأت به الكتاب وما أخرجه ابن الأنبارى عن طريق عكرمة عن ابن عباس أنه قرأ ﴿أَفَلَمْ يَتَّبِعِينَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾. فقيل له إنها فى المصحف ﴿أَفَلَمْ يَتَّبِعِينَ﴾. فقال أظن الكاتب كتبها وهو ناعس وما أخرجه سعيد بن منصور عن طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه كان يقول "وقضى ربك" إنما هى ووصى ربك التزقت الواو بالصاد وأخرجه من طريق الضحاك عن ابن عباس أنه كان يقرأ ووصى ربك ويقول أمر ربك إنهما واوان التصقت إحداهما بالصاد وأخرجه عن طريق أخرى عن الضحاك قال كيف تقرأ هذا الحرف وقضى ربك فقال ليس كذلك نقرأها نحن ولا ابن عباس إنما هى ووصى ربك وكذلك كانت تقرأ وتكتب فاستمد كاتبكم فاحتمل القلم مدادا كثيرا فالتزقت الواو بالصاد"<sup>(٢٢)</sup>. فهذه كلها إما أن تكون روايات متهافئة وإما أن تكون من باب "وكم من عائب قولاً صحيحاً. وآفته من الفهم السقيم" وهذا واضح عند مقارنة دعاوى القوم بنص التنزيل العظيم تعالى عما يزعمون ولا يخالجننا شك فى أن هذا الكلام بأسره موضوع أو موهوم حتى عندما يحكم المحدثون بأن فيه ما هو صحيح

(٢١) الإتيان فى علوم القرآن ج ١ ص ١٨٣ .

(٢٢) الإتيان ج ١ ص ١٨٥ .

على شرط الشيخين فلا عائشة ولا عثمان ومن باب أولى عروة وعكرمة وغيرهم يمكن أن يقولوا ذلك أو أن يحملوننا على قبوله والأسهل علينا أن نقول إن القرآن أراد أن يحطم وثنية هؤلاء النحاة الذين يعبدون القواعد دون المعانى كما أراد أن يحطم وثنية الذين يعبدون الملوك والآباء والشموس والأقمار دون خالقها جميعا .

والعجيب أن الذين رروا هذه الآثار أوردوا ما يفندها. فهذا السيوطى الذى نقل كل هذه الروايات يقول "وهذه الآثار مشكلة جدا وكيف يظن بالصحابة ألا أنهم يلحنون فى الكلام فضلاً عن القرآن وهم الفصحاء اللد ثم كيف يظن بهم ثانيا فى القرآن الذى تلقوه من النبى صلى الله عليه وسلم كما أنزل وحفظوه وضبطوه واتقوه، ثم كيف يظن بهم ثالثا اجتماعهم كلهم على الخطأ فى كتابته، ثم كيف يظن بهم رابعا عدم تنبيههم ورجوعهم عنه، ثم كيف يظن بعثمان أنه ينهى عن تغييره ثم كيف يظن أن القراءة استمرت على مقتضى ذلك الخطأ وهو مروى بالتواتر خلفا عن سلف، هذا مما يستحيل عقلا وشرعا وعادة، وقد أجاب العلماء عن ذلك بثلاثة أجوبة أحدها أن ذلك لا يصح عن عثمان، فإن إسناده ضعيف مضطرب منقطع، ولأن عثمان جعل للناس إماما يقتدون به فكيف يرى فيه لحنا وتركه لتقييمه العرب بألسنتها، فإذا كان الذين تولوا جمعه وكتابته لم يقيموا ذلك وهم بالخيار فكيف يقيمهم غيرهم.. وأيضاً فإنه لم يكتب مصحفا واحدا، بل كتب عدة مصاحف، فإن قيل إن اللحن وقع فى جميعها فبعيد اتفاقهم على ذلك أو فى بعضهم اعتراف بصحة البعض ولم يذكر أحد من الناس أن اللحن كان فى مصحف دون مصحف ولم تأت المصاحف قط مختلفة إلا فيما هو من وجوه القراءة وليس ذلك بلحن. والوجه الثانى على تقدير صحة الرواية أن ذلك محمول على الرمز والإشارة ومواضع الحذف نحو الكتاب والصابرين وما أشبه ذلك والثالث أنه مؤول على أشياء خالف لفظها رسمها كما كتبوا لا أوضعوا ولا أذبحنه بألف بعد اللام وجزاؤا الظالمين بواو وألف وبأييد بياءين فلو قرىء ذلك بظاهر الخط لكان لحنا وبهذا الجواب وما قبله جزم ابن اشته فى كتاب المصاحف وقال الانبارى فى كتاب الرد على من خالف مصحف عثمان فى الأحاديث المروية عن عثمان فى ذلك لا تقوم بها حجة لأنها منقطعة غير متصلة وما يشهد عقل بأن عثمان وهو إمام الأمة الذى هو إمام الناس فى زمنه وقدوتهم يجمعهم على المصحف الذى هو الإمام فيتبين فيه خلاا ويشاهد فى خطه زللا فلا يصلحه والله ما يتوهم عليه هذا ذو إنصاف وتمييز" (٢٣) .

وقد أشار أحد الكتاب إلى تخريجات الزمخشري لتعليل هذه الحالات لمخالفة القرآن على قواعد النحاة بأسس من لغات العرب، ولاحظ هذا الكاتب أن عثمان رضى الله عنه اختار حين كتب مصحفه رجلين هما زيد بن ثابت وكان أكتب الناس وسعيد بن العاصى وكان أفصح الناس وأشبههم لهجة برسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: "وما كانت تغيب عن عثمان ولا عن كانوا مع عثمان يوم شمروا لكتابه المصاحف هذه الاختلافات فى الرسم الإملائى التى ظهرت بعد كتابة المصحف وتمنى عثمان لو لم تكن حين قال "لو كان المملى من هذيل والكاتب من ثقف لم يوجد فيه هذا" .

ثم كيف ترد هذه التى وردت فى الحديث الأول عن عثمان وهو الذى كان من وراء من يكتبان يراجع ما يكتبانه حرفا وحرفا وكلمة وكلمة ويصلح ما فاتهما وما نظن عثمان ونى فى هذا العباء ولافتى وهو يعلم جده وخطره وهو يعلم المتحيزين به من وراء ذلك على عمل حمل عبئه على الرغم منهم

وأما ما جاء منسوباً إلى عائشة فما أظن عائشة تسكت على خطأ الكتابة في كتاب الله وترضى به يشيع ويخرج من المدينة إلى الأمصار ولم تكن بعيدة عن عثمان ولا عن الصحابة الكاتبين وما أظنها كانت أقل منهم حرصاً على سلامة كتاب الله .

وأما عن تلك التي ينسبونها لأبان بن عثمان فلا أدرى كيف جاءت على لسانه مع العلم بأنه ممن لم يشهدوا عصر التدوين ولا كان حاضراً ذلك فقد كانت وفاته سنة ١٠٥ و عثمان مات سنة ٣٥ .

وبعد فهذا الذى نسب إلى أبان استنباط لا رواية مأثورة وهذا الاستنباط الذى استنبطه لا يصح إلا عن مشاهدة أو سماع عن مشاهدة وكلاهما لم يتوفر لهذا الحكم<sup>(٢٤)</sup> .

\* \* \*

وتحدث مؤلف "نظرية النحو القرآنى - نشأتها وتطورها ومقوماتها الأساسية" الدكتور أحمد مكى الأنصارى عن موقف النحاة من الصياغة النحوية القرآنية فقال :

١. قسم ارتضاه النحويون ووافقوا عليه لأنه اتفق مع قواعدهم النحوية
٢. وقسم لم يرتضوه لأنه اصطدم بالقواعد النحوية فوقفوا منه مواقف ثلاثة تتمثل فى الظواهر الآتية .
  - (أ) ظاهرة المعارضة الصريحة .
  - (ب) وظاهرة المعارضة الخفية .
  - (ج) وظاهرة التأويل<sup>(٢٥)</sup> .

وقال إن العصبية المذهبية دفعت ببعض النحاة لأن يصفوا اللغة التي جاءت بها بعض القراءات القرآنية بالرداءة أو لحناً. فعندما لم يجوزوا تحقيق الهمزتين إن لم تكونا عينين وأن الهمزتين - على ما قال ابن جنى "لا تتقيان فى كلمة واحدة أن لم تكونا عينين نحو سئال وسئار، فإنهم مدوا حكمهم هذا على كلمة "أئمة" التي تكرر ورودها فى القرآن، فلما جاءهم الإبدال (أى إبدال الهمزة الثانية ياء فى كلمة أئمة وصفوه باللحن أيضاً وقال الزمخشري "فأما التصريح بالياء فليس بقراءة، ولا يجوز أن تكون قراءة، ومن صرح بها فهو لحن محرف" .

ويقول مؤلف "نظرية النحو القرآنى" .

"وقريب من هذا، أو أشد منه موقفهم من قراءتين سبعيتين جاءتتا فى قوله تعالى ﴿إِنْ هَذَا لَسَاحِرٌ أَرِينِي﴾ حيث قرئت كلمة "هَذَا" بالألف مع تشديد النون من "إن" فى قراءة سبعية متواترة، بل فى قراءات متعددة، فعارضها بعض النحاة معارضة صريحة، بل أنكروها إنكاراً تاماً وقالوا إنها ليست من القرآن لأنها غلط من الكاتب .

فلما جاءتهم قراءة سبعية أخرى بالياء "هذين" عارضوها أيضاً معارضة صريحة.. وقالوا: إنها "غلط من الكاتب" أيضاً .

---

(٢٤) الأستاذ إبراهيم الإبيارى - فى كتابه "تاريخ القرآن" صفحات ١٠٤ - ١٠٥ / ١١٠ - ١١١ بتصرف .  
(٢٥) "نظرية النحو القرآنى نشأتها وتطورها ومقوماتها الأساسية" تأليف الدكتور أحمد مكى الأنصارى - دار الفيلة للثقافة الإسلامية سنة ٨٤ ص ١٥٧ .

وكان من القواعد التي تمسك بها النحاة أنه "لا يجوز عطف الاسم الظاهر على الضمير المخفوض إلا بعد إعادة الخافض" ولكن آية ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾. جرت الأرحام عطفاً على الضمير المخفوض بدون إعادة الخافض وهي كما يقول مؤلف نظرية النحو القرآني قراءة جماعة من كبار الصحابة والسلف الصالح من أمثال ابن عباس والحسن البصرى والنخعي وقتاده والأعشى ويحيى بن وثاب وطلحة بن مصرف ورواية الأصفهاني والحلبى عن عبد الوارث، وجملة القول - كما يقول أبو حيان - أنها قراءة متواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ بها سلف الأمة، واتصلت بأكابر الصحابة مثل عثمان وعلى وابن مسعود وزيد بن ثابت وأقرأ الصحابة أبي بن كعب".

### ويستطرد مؤلف "نظرية النحو القرآني".

مع كل هذا التوثيق الدقيق لهذه القراءة المحكمة المتواترة رفض جمهور النحاة أن يتخذوها أساساً للتقعيد، وأكثر من هذا أنهم ردوها أو ضعفوها كما أنهم خطئوها وحرّموا القراءة بها تحريماً قاطعاً ولهذا قال المبرد .

"لو إنى صليت خلف إمام يقرأها لقطعت صلاتى وحملت نعلى ومضيت".

وقال النحويون "لا يجوز الفصل بين المتضامين فى النثر مطلقاً" ولكن جاء فى القرآن ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ﴾. فى قراءة بن عامر، وهى قراءة سبعة محكمه فقال الزمخشري "وأما قراءة ابن عامر فشئء لو كان فى مكان الضرورات وهو الشعر لكان فى قول الشاعر مردوداً "زج القلوص إلى مزادة" فكيف به فى الكلام المنثور، والذي حمله على ذلك أنه رأى فى بعض المصاحف "شركائهم" مكتوباً بالياء .

ومن أمثلة ذلك أيضاً أن النحاة يقولون تضاف مائة إلى المفرد، ولا تجوز إضافتها إلى الجمع. ولكن القرآن قال ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾. وعارض كثير من النحويين هذه الصياغة القرآنية، وحكموا عليها بالخطأ فقالوا "وقد قرأ بعض القراء بالإضافة فقالوا "ثلاثمائة سنين" وهذا خطأ فى الكلام غير جائز، وإنما يجوز فى الشعر للضرورة .

نقول إن عبدة القواعد هؤلاء اعتبروا القرآن نثراً، وحرّموا عليه ما أجازوه للشعر وفاتهم أن القرآن ليس نثراً، وإن لم يكن شعراً، ولكنه نظم فذ لم يسبق، ولم يلحق ولا يجوز أن تجرى عليه قواعدهم الغثة كما لم يفتنوا إلى أن من الأساس فى الصياغة القرآنية تحرى اتساق تركيب الكلمة، وأن يكون لها وقع موسيقى ولو قال القرآن "ثلاثمائة سنة" لما اختلف عن كتاب حساب يدرس للصبيان... فأنى يؤفكون...

وقال النحويون "لا يجوز وقوع الاستثناء المفرغ بعد الإيجاب" مع أن فى القرآن الكريم ثمانى عشرة آية وقع فيها الاستثناء المفرغ بعد الإيجاب مثل ﴿وَأَنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾. و ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ .

ومن قواعدهم يجب فتح ياء المتكلم ولا يجوز كسرها فى نحو مصرخى {سورة إبراهيم آيه ٢٢} وتبعاً لهذا أنكروها ورموها بالفح والحن والرداءة والغلط والوهم والشذوذ وقالوا "إنها رديئة مردولة" ..

وقال النحاة "يمتنع وقوع "كل" المضافة للنكرة مفعولاً به، مع أن هذا أمر جاء فى القرآن الكريم ٣٧ مرة.. وجاءت خمس مرات فى سورة الأنعام.. وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها. {٢٥} وسع ربي كل شئ

علماء. {٨٠} وحشرنا عليهم كل شيء قبلا. {١١١} وخلق كل شيء. {١٠١} وعلى الذين هادوا حرمانا كل ذي ظفر. {١٤٦} .

وضرب المؤلف مثلاً لمعارضة النحاة "ما جاء فى تحقيق الهمزتين فى مثل أئمة فى قراءة سبويه متواترة.. بل فى قراءات متعددة متواترة..، ومع ذلك وصفوها باللحن بحجة أنها لا تتفق مع القياس.. ونسوا أن السماع الصحيح الكثير المتواتر.. فوق كل قياس، لأن اللغة تثبت بالسماع الصحيح الكثير قبل أن تثبت بالقياس.. وما أجمل المبدأ القائل : "مقياس الترجيح هو السماع الصحيح" ..

وقد وضع مؤلف "نظرية النحو القرآنى" أربعين تعديلاً لأربعين قاعدة من قواعد النحاة لتتفق هذه القواعد مع ما جاء به القرآن .

إن الشقة بعيدة بعيدة بين النحاة الذين يحترفون النحو ويتشبثون بقواعدهم.. والقرآن العظيم الذى لا ينظر إلى اللغة إلا كأداة لإحداث الأثر أو توصيل المعنى، وعندما تضيق اللغة العربية كلها، أو لا يجد التعبيرات أو الألفاظ التى يريدونها بعينها فإنه يتحدث ألفاظاً، أو يستخدم كلمات لها أصول غير عربية وقد كتب الشيخ حمزة فتح الله كتيباً بعنوان "الأصل والبيان لمعرب<sup>(٢٦)</sup> القرآن" تضمن أكثر من مائة لفظة أعادها إلى أصول غير عربية.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض قدامى النحاة كالإمام السكاكى، انتهوا بعد المسيرة النحوية البلاغية الطويلة وتعليل الإعجاز اللغوى للقرآن إلى أن الأفضل هو عدم تعليل الإعجاز لأن الإعجاز يدرك ولا يمكن وصفه ولأن ما يدرك هو الذوق، ومن هنا كان معظم الكتاب والأدباء المحدثين أكثر توفيقاً من أسلافهم النحاة فى تعليل الإعجاز القرآنى، إذ أخذوا بما انتهى إليه السكاكى، ولم يكدوا الذهن فى تتبع ما فى الاستخدام القرآنى الفريد للحروف والكلمات، وما فيه من وجوه البلاغة من استعارة أو تشبيه أو مجاز الخ... وآثروا إعادة الإعجاز بأسره إلى عامل أكثر أصالة مما تواضع عليه البلاغيون أنفسهم .

(٣)

## مزالق المفسرين القدامى

### ب. ملههيوه

أما أصحاب المذاهب فى العقائد، وخاصة ما يتعلق بذات الله تعالى فقد أخذهم هوس بقضية الصفات ما بين ناف لها ومثبت إياها. وهى قضية كان يفترض أن لا توجد أصلاً بين المفكرين الإسلاميين لأن القرآن قد أوضح أن الاستدلال على الله يكون عن طريق النظر فى بدائع خلقه وروائع صنعه من شمس وأقمار وبحار وأنهار وجبال وأمطار وحيوان وأشجار وحياء بعد موت وموت بعد حياة والسنن والقوانين التى وضعها الله لها وللمجتمعات الإنسانية، واستبعد صراحة إمكان العقل البشرى إدراك ذات الله وكنهه عندما قال "لا تدرکه الأبصار" "ليس كمثلہ شيء" ﴿فَلَا تَصْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالُ﴾. ثم جاءت السنة مؤكدة هذا النهج أمره المسلمين أن لا يبحثوا فى ذات الله وإنما فى آلاء ونعم ومخلوقات الله. فكان يجب الوقوف عند هذا ليس فحسب لوجوب الامتنال للقرآن والسنة - وإن كان هذا فى حد ذاته كاف - ولكن أيضاً لأن الذهاب أبعد من

(٢٦) الأصل والبيان المعرب القرآن تأليف فضيلة الأستاذ المرحوم الشيخ حمزة فتح الله علق عليه محمد إبراهيم وراجعہ الشيخ محمد عبد المطلب. مطبعة مصر الحرة بحارة عمر شاه رقم ١٥ بالسيدة زينب بالقاهرة (بدون تاريخ) .

ذلك لن يكون إلا نوعاً من التعسف وتسخير العقل فيما هو غير مؤهل له، وما يخالف مقوماً من مقومات الإيمان بالغيب وليس غيباً ما يدركه النظر العقلي أو النظر العيني .

وبعد هذا كله، فإن آيات الصفات لم تكن لتستحق هذا الجدل، فضلاً عن أن تكون محوراً لفرقة عظيمة لأن أي عارف بالأساليب العربية، بل إن أي قارئ للقرآن يعلم أن القرآن يستخدم.. المجاز والتشبيه والاستعارة الخ... وقد جاءت فيه ﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾. و﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾. و﴿فَمَا رِبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾. و﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. و﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا﴾. الخ... وعندما ينضم القرآن آيات مثل ﴿الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾. أو ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾. أو ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾. أو ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾. ﴿يُدُّ اللَّهُ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾. فمن المفهوم بداهة أنه يستخدم هذه العبارات، كما استخدم العبارات السابقة (جناح الذل - الخيط الأبيض..) لمجرد إعطاء المعنى المطلوب، وأن التشبيه باليد والعين يعود إلى أن اليد هي أداة الفعل والبطش، وأن العين هي أداة النظر. فلما أراد القرآن أن يقرب قوة الله تعالى ومقدرته إلى الأذهان استخدم هذه التشبيهات ليعطينا المعنى بالألفاظ التي نفهمها دون أن تكون الحقيقة الإلهية هي ما نفهمه نحن من تعبيرات اليد والوجه.. لأن ذاته تعالى هي مما تعجز العقول عن تصورها فليس هناك إشكال، ولأن القلب المؤمن، والفطرة العربية السليمة لا تتجاوب في مضمون كلمة وجه أو يد بالنسبة لله تعالى. وإنما هي تتجاوب مع التأثير الذي أراده القرآن .

وقد ذكر القرآن الكريم اليد بصفاتها الرمزية في مواضع عديدة مثل:

- ﴿إِنَّ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ(٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. {٤٢ فصلت} ..
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ...﴾. {٣١ سبأ} ..
- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ...﴾. {٤٨ الفرقان}
- ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾. {٤٦ سبأ} ..
- ﴿أَلَسْتُمْ أَنْ تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ﴾. {١٣ المجادلة} ..

ولكن كما ذكرنا، لم يكن من السهل على محدثي الإسلام أن ينسوا روايتهم، أو أن يفهموا التعبير العربي بالإضافة إلى الذين أرادوا أن يكيّدوا للإسلام غداة انتصاره واكتساحه للروم والفرس الخ... مع جهالة العامة، وغلبة السفسطة على الفكر الإسلامي حيناً من الدهر. وكانت النتيجة أن أصبحت قضية الصفات مسألة المسائل ومحك الاعتقاد ووجدت "مجسمة" يؤمنون بأن الله يدا وأذنا وعينا.. وأنه يجلس على العرش الخ... كما وجدت معتزلة يستبعدون استبعاداً تاماً كل هذه الصفات بحيث كادوا عندما نفوا رؤية الله تعالى أن يصلوا إلى مشارف التجريد الفلسفي الذي يجعل الله بلورة للمثل الأعلى.. وما بين ذلك من مذاهب أقرب إلى هذه أو تلك وظل الخلاف قائماً من القرن الأول الهجري حتى السنوات الأولى للحكم السعودي في الحجاز عندما كان السؤال "ماذا نقول في الاستواء" هو الامتحان العام لكل مرشح لوظيفة وكان الرد المرضي هو مؤهل التعيين سواء كان مدرساً أو طبيباً أو مهندساً .

وكانت وجهة نظر المعتزلة أن هذه الصفات مما لا يمكن أن تنسب إلى الله تعالى واضطرهم هذا التعسف في تفسير بعض العبارات التي جاءت في القرآن. فقالوا في تفسير الآية ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾. أن "كلم" ليست من "الكلام" بمعنى الحديث أو الكلام، ولكنها من "الكلم" بفتح الكاف وسكون اللام بمعنى الجرح وقالوا إن المعنى هو جرح الله لموسى بأظفار المحن ومخالب الفتن .

"ومثل هذا ما فعلوه في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾. فبدلاً من أن يقرأوا كلمة غلف بضم الغين وسكون اللام قرأوها بضم الغين واللام أى جمع غلاف أى وعاء. كأنهم يفتخرون بأن قلوبهم أوعية للعلم، وإنما لجأ المعتزلة إلى هذا التحرير حتى لا يقال أن طبيعة قلوبهم هي المانع من قبول الإسلام فلا يكون عليهم ذنب في الكفر لأنهم هكذا خلقهم الله" (٢٧) .

وعلق الشريف المرتضى على الآية الكريمة ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾. {٢٤ يوسف}.. "أنه إذا ثبت بأدلة القبول التي لا يدخلها الاحتمال والمجاز ووجوه التأويلات أن المعاصي لا تجوز على الأنبياء عليهم السلام صرفنا كل ما ورد ظاهره بخلاف ذلك من كتاب أو سنة إلى ما يطابق الأدلة ويوافقها، كما يفعل ذلك فيما يرد بظاهره مخالفاً لما تدل عليه العقول من صفاته تعالى وما يجوز وما لا يجوز" (٢٨) .

فهذا النص يتضمن التباسات التبتت على الشريف المرتضى في شقى حديثه. فالزج بتعبير "المعاصي" بصدد الآية ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾. مما لا ينطبق على مضمون الحدث، فليس هو "معصية" يتوفر لها العمد والإرادة، كما توحى كلمة "معصية" قدر ما هو تراخ في لحظة ضعف، والأنبياء بعد بشر، وقد أكد القرآن بشرية الأنبياء وجوز عليهم في غير تأديتهم لرسالتهم - الضعف والخطأ وتحدث عن خطيئات آدم وموسى وسليمان ودادود وذى النون الخ... وقال شاملاً كل الأنبياء ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. {٥٢ الحج} ..

وإذا كان الأنبياء معصومين، فبرحمة الله ورعايته لهم كما توضح ذلك تعبيرات "لولا أن رأى برهان ربه" كذلك "لنصرف عنه السوء والفحشاء" وهناك بعد تفرقه بين التصرف الخاص للنبي الذي يصدر عن إرادته وشخصه، وبين تبليغ الرسالة التي يوحى بها الله إليه .

فالشق الأول من كلام الشريف المرتضى بالطريقة التي ساقها لا يستقيم لا مع ظاهر الآيات ولا ما تشترطه العقول في الأنبياء.. والشق الثاني أيضاً إبهام للعقل البشرى بما ينوء به. وما يمكن أن يتخبط فيه عندما يتحكم في صفاته تعالى. وما يجوز عليه أو ما لا يجوز لأن أكثر ما تدعيه العقول. وما يدور عليه صلاح الدنيا بأسرها وما رفعتها عالياً المعتزلة بالذات وهو العدل كما نعرفه - لا يمكن أن نلزم به الله تعالى لأن أحكامنا لا تخلو من خطأ أو قصور في تصور العدل وتعريفنا له. وهي مقيدة بعالمنا هذا ومقصورة عليه. وليست هي بالمعصومة. وقد تطرقت "النسبية" حتى إلى المبادئ الحسابية والرياضية. والأمر بالنسبة لله تعالى أعظم من ذلك والله تعالى أن يصف نفسه بالعدل ولكن ليس لنا أن نلزمه العدل. ونحن لا نخلق الله كما يخلق الفلاسفة "الفكرة" ولكن الله تعالى هو الذى يخلقنا. وقصارى ما نصل إليه هو أن نكتشف جانباً من

(٢٧) قصة التفسير للشيخ أحمد الشرباصى ص ١١٣ .

(٢٨) أمالى المرتضى ج ٢ ص ١٢٥ - ١٢٩ .

جوانب عظمتها، وقد تجاوز عدل الله حدود العدل إلى الرحمة وإلى العفو وإلى إثابة المحسن بسبع مائة ضعف وهو ما يخالف مقاييس العدل والوزن متقال ذرة .

وليس معنى هذا أن نستبعد حكم العدل ولكن أن نستهدف به كما يوجهنا القرآن الحكام والنظم. وليس الله تعالى، ويكون ما نعمل له ونركز عليه هو إقامة جادة العدالة في الدنيا. وتصحيح النظام بما يحقق ذلك. وإلزام الحكام به. وليس أن نحقق ما إذا كان الله تعالى يدخل الجنة مسيئاً أو يدخل النار محسناً، فالله تعالى أعلم وهو بعد يفعل ما يشاء. وتركيز الحديث حول هذه المسألة يبعدنا عن المسألة التي تهمننا حقا وهي العدل في الحياة الدنيا. وكان جديرا بالمعتزلة أن يتساءلوا عن عدل الخلفاء بدلاً من أن ينفقوا أعمارهم في قضية ذهنية جدلية ليس لها أثر عملي في حياة الناس .

وفي مقابل المعتزلة نجد الحنابلة ومنهم إسحاق المروزي يقولون في تفسير الآية ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾. {٩٧ الإسراء}.. إن المقام المحمود هو قعود النبي على العرش يوم القيامة. ولما قال الطبري إن حديث الجلوس على العرش محال "ثار عليه طائفة من الحنابلة وقذفوه بالمحابر وقذفوا داره بالحجارة" .

وتفاهم الأمر، بحيث "عدّل ببعض الآيات عن معانيها وأغراضها التي سيقّت لها". على ما ذكر الشيخ شلتوت ويستطرد الشيخ فيقول: "وكثيراً ما تفسر الآية على مقتضى القواعد الأصولية التي استخلصها أرباب المذاهب من الفروع الفقهية واتخذوها أصولاً تحاكموا إليها في فهم القرآن والسنة واستنباط الأحكام. ولم يقف ذلك عند التشريع وآيات الأحكام. بل تعدى إلى العقائد وآراء الفرق، فتراهم يقولون هذه الآية لا تتفق ومذهب أهل السنة فهي مؤولة بكذا وكذا. وكما يقولون هذه الآية لا تتفق ومذهب الحنفية وتأويلها كذا وكذا. وكما يقولون هذه الآية أو تلك الآيات - وربما نيفت على السبعين - لا تتفق ومشروعية القتال فهي منسوخة .

وهكذا صار القرآن فرعاً بعد أن كان أصلاً وتابعا بعد أن كان متبوعاً وموزوناً بغيره بعد أن كان ميزاناً. يقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. {٥٩ النساء}.. والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول هو الرد إلى سنته الصحيحة. ولكن هؤلاء عكسوا القضية وقلبوا التشريع وردوا كتاب الله وسنة رسوله إلى ما لهم من آراء ومن مذهب "انتهى" .

من أجل هذا، فإن كل ما سود به المفسرون والعلماء صفحاتهم عن آيات الصفات أمر لا داع له، بل هو إهدار للجهود والتزام بما لا يلزم، وهو أمر دخيل على قضية الإيمان، وليس من أركانه كما وهموا. وصرف النظر عن هذه القضية أجدى حتى من محاولة تفنيد الخطأ فيها لأن التفنيد سيستنزل الفقهاء والمفسرين إلى الحديث بلغة المخالفين واستخدام أسلحتهم وهو ما لم يوصلهم إلى طائل .

وقد كان هذا هو المأزق الذي وقع فيه المتأخرون من سنة أو معتزلة أما المتقدمون فقد عصمهم إيمانهم وجعلهم ورعهم يرفضون القضية أصلاً، وكان للمتأخرين مندوحة ويسعهم ما وسع أسلافهم .

\* \* \*

ولن نعرض هنا كما يعرض الآخرون، لبعض تفسيرات الشيعة فالشيعة مثلهم كمثل بقية المذاهب لهم اجتهاداتهم. أما ما يروونه من أقاصيص الغلو، فلا يجوز أن تنسب إلى الشيعة أو تبوء بها، وإنما هي من آثار ما يتورط فيه كل كفاح سرى يتعرض لاضطهاد طويل. ثم لما أذن الله تعالى بانتصارها على يد الدولة الصفوية. فإن هذه الدولة دخلت في صراع حياة أو موت مع الدولة العثمانية ونشر حكامها نوعاً من الدعاية



السياسية تقوم على تجريح المذهب الحنفي - وهو المذهب المقرر للدولة العثمانية - واختلقت أقاويل وادعاءات لا يمكن أن تفهم إلا في ضوء احتدام العداوة السياسية بينما هذه كلها لا تحسب على فكر الشيعة، ولكن على سياسة الحكام الصفويين الذين انحرفوا بالمذهب .

والشيعة اليوم غير الشيعة الصفوية وهم يضمون مجموعات من أفضل المثقفين الذين يلمون بفكر العصر وثقافته ويعملون لتقويم المذهب. ودولتهم هي إحدى آمال العالم الإسلامي، فلا داعي لإثارة الأحقاد القديمة، ونحن نريد أن نوحّد العالم الإسلامي. نعيش حاضره ونواجه تحدياته.. لا أن نحى الماضى المنذر.

\* \* \*

وإذا كنا قد أعرضنا عن الإشارة إلى تفسير الشيعة للاعتبارات التي قدمناها فإننا نرى أن من المهم أن نشير إلى ما أحدثه الخوارج من تفسير، لأن هذا التفسير يمكن أن يعد بداية لفكرة التكفير، التي جعلت شعارها "لا حكم إلا لله" والتي طويت مع الخوارج ثم عادت مرة أخرى مع الجماعات الإسلامية الشاردة - أو الرافضة الجديدة - كما أطلقنا عليها. فقد ذهب الخوارج إلى أن مرتكب الكبيرة يصبح كافراً. ومثلها سائر الذنوب إن لم يتب منها، إذ لا فرق بين كبيرة وصغيرة، وكذلك اعتبار مخالفيهم كفاراً، ومن الشاذ العجيب تفسيرهم قول ﴿الله هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾. وهذا يقتضى فيما يرون أن من لم يكن مؤمناً فهو كافر. فالناس فريقان لا ثالث لهما، كما في قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾. {١٠٦ آل عمران}.. وفي آية ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفَرَةٌ﴾ (٣٨) ضاحكة مُسْتَبْشِرَةٌ. {٣٩ عبس}.. قسموا الوجوه إلى وجوه مؤمنة، ووجوه كافرة ..

وذهبوا إلى أن قول الله تعالى ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾. يقتضى أن لا يكون جزاء إلا على الكفر.. وقيل مثل ذلك عن ممن ثقلت موازينه ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدِينَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ. {١٠٥ المؤمنون} ..

كما أنهم لم يجيزوا ما أضافته السنة من تشريع إلى القرآن. كتحريم جمع المرأة على عمدتها أو خالتها، وعلى تنزيل بنت البنت وبنت الابن منزلة البنت، وأن المعاملة في الأصول والفروع تجرى على هذا النحو .

وفى قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾. أوجبوا حد القذف، ورد الشهادة، والحكم بالفسق على قاذف المحصنة فحسب، أما قاذف المحصن فلا حد عليه إذ لم يرد له ذكر في الآية (٢٩).

وفى قوله سبحانه ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾. قرروا أن الوصية واجبة للوالدين مع كونهما وارثين، ولا عبرة عندهم لما تقرر في حديث: "لا وصية لوارث" فلا يحجب الوالدان عن الميراث ولا عن الوصية في كل حال (٣٠)

كما لم يذهبوا إلى رجم الذاني المحصن، إذ لا يذكر له في القرآن وحكموا بتكفير على عثمان والحكمين وأصحاب الجمل وصفين وكل من رضا بالتحكيم مما يستتبع بالطبع عدم الأخذ بمروياتهم .

(٢٩) انظر مدخل إلى مناهج المفسرين تأليف الدكتور محمد السيد جبريل - أستاذ بكلية أصول الدين ص ١٧١ .  
(٣٠) وقد نقل العلماء مثل الشيخ محمد أبو زهرة في تاريخ المذاهب الإسلامية، والدكتور الذهبي في: التفسير والمفسرون، هذه الأنماط من تفسيرهم للآيات القرآنية، وأكثرها من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد .

وإن كان يذكر لهم بالشكر أنهم رأوا وجوب الخروج على السلطان الجائر، وأن تكون الخلافة للأكفأ من المسلمين وليس حصرها في قريش. كما ذهب الجمهور .

وما دما قد ذكرنا تفسير بالمعتزلة، والخوارج والحنابلة، فلا بأس بأن نقدم مثالا لتفسير بعض فلاسفة الإسلام وهو تفسير ابن سينا للآيات ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. {٥٣ النور}..

"... فالنور إما ذاتي أو حقيقي، أو مستعار، والمستعار إما الخير وإما السبب الموصل إلى الخير. وفسر السموات والأرض بأنها الكل. والمشكاة هي العقل الهولاني ومفتاح العقل المستعار والزجاجة بالواسطة، وشجرة مباركة بالقوة الفكرية، والنار بالعقل الكلي المدبر للعالم المشاهد. وهو النفس الكلية عند أفلاطون".

وأدلى الصوفية بدلوهم في التفسير، ولما كان التصوف يقوم على العاطفة والذوق فإنه عادة يفقد الضوابط التي تضعها الشريعة، وقد يكشف هذا لصاحبه مجالات جديدة، ولكن يغلب أن يجمع به إلى بدياء الفكر.. وما يؤدي إليه الاجتهاد إلى خروج وشدوذ قد يصل به إلى وحدة الوجود.. وهذا مذهب في الفلسفة وليس اجتهاداً في الدين وقد أوتيت الصوفية منه، ومع أن الذين ذهبوا هذا المذهب واعتقدوا "أن ليس في الحجة إلا الله" على ما قال الحلاج. وابن عربي، وابن سبعين أوجدوا تصوفاً يخرج فعلاً عن الحدود. فقد يكون لهم جوانب أخرى يمكن أن تصل إلى المثالية كما في أبيات ابن عربي المشهورة عندما يقول "أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني" كما نجد في تائية السلوك لابن الفارض ما يماثلها لكن يظل بعد هذا أن الأديان وإن كانت شرعة تحرير إلا أن نظمها ومنهجها، وضوابطها، هو مما لا يمكن صرف النظر عنه كلية وهذا ما نفتقده في انطلاقة الصوفية في متاهات النفس وتيارات العاطفة .

واعتبر مؤلف "مدخل إلى مناهج المفسرين" تفسير شهاب الدين الألوسي المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ بالكرخ (بغداد) المسمى روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع مثاني" من التفاسير الصوفية إلى حد ما، وهو من أكبر التفاسير "في ثلاثين جزءاً" فإن صاحبه تأثر بالطريقة النقشبندية وتلمذ على يدي أحد شيوخها هو الشيخ خالد الكردي الذي قال عنه "هو الحائز للحكمتين العلمية والعملية، الفائز بالرئاستين الظاهرية والباطنية، فلا يرى مكرمة إلا ومصيرها إليه، ولا منقبة إلا وروافها ممدود وهي مقصورة عليه، وينشد فيه قائلاً :

فلى فيه أستاذ ولى فيه مرشد ولى فيه قطب ذو اتصال ولى ولى

واقتبس مؤلف مناهج المفسرين بعض مقاطع توضح التفسير "الإشاري" من ذلك في تفسير الآية ٣ من سورة المائدة ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَالْحَمُّ الْخَنِزِيرُ وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِفَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّبَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْقُمُوا بِالْأَرْزَامِ ذَلِكَمْ فَسَقَ الْيَوْمَ يَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

قال ...

حرمت عليكم الميتة - وهي خمود الشهوة بالكلية، فإنه رذيلة التفريط المنافية للغة - والدم - وهو التمتع بهوى النفس - ولحم الخنزير - أى سائر وجوه التمتع بالحرص والشرة وقلة الغيرة - وما أهل لغير الله به - من الأعمال التى فعلت رياءً وسمعة - والمنخقة - وهى الأفعال الحسنة صورة مع كمون الهوى فيها - والموقوذة - وهى الأفعال التى أجبر عليها الهوى - والمتردية - وهى الأفعال المائلة إلى التفريط والنقصان - والنطيحة - وهى الأفعال التى تصدر خوف الفضيحة وزجر المحتسب مثلاً - وما أكل السبع - وهى الأفعال التى من ملائمت القوة الغضبية من الأنفة والحمية النفسانية - إلا ما ذكيتم - من الأفعال الحسنة التى تصدر بإرادة قلبية لم يمازجها ما يشينها - وما ذبح على النصب - وهو ما يفعله أبناء العادات لا لغرض عقلى أو شرعى - وان تستقسوا بالأزلام - بأن تطلبوا السعادة والكمال بالحظوظ والطوالع وتتركوا العمل، وتقولوا: لو كان مقدرًا لنا لعلنا، فإنه ربما كان القدر معلقًا بالسعى - ذلكم فسق - خروج عن الدين الحق، لأن فيه الأمر والنهى والانتكال على المقدر - اليوم - وهو وقت حصول الكمال - أكملت لكم دينكم - ببيان ما بينت - وأتممت عليكم نعمتى - بذلك أو بالهداية إلى - ورضيت لكم الإسلام ديناً - أى الانقياد للإمام - فمن اضطر - إلى تناول لذة فى مخمصة، وهى الهيجان الشديد للنفس - غير متجانف لإثم - غير منحرف لرذيلة - فإن الله غفور رحيم - فيستر ذلك ويرحم بمدد التوفيق" (٣١) .

واستشهد مؤلف "مدخل إلى مناهج المفسرين" بآيات أخرى مثل الآيات ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ. {١٢٦ البقرة}.. وقيل الآية ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضًا بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. {٤ الرعد}.. مما يضيق المجال عن إيراده (٣٢) .

وأثر الصوفية بارز بالطبع، وقد اعترف هو نفسه فى مقدمه تفسيره "وأما كلام السادة الصوفية فى القرآن فهو من باب الإشارات إلى دقائق تتكشف على أرباب السلوك، ويمكن التوفيق بينها وبين الظواهر المرادة، وذلك من كمال الإيمان ومحض العرفان لا أنهم اعتقدوا أن الظاهر غير مراد أصلاً، وإنما المراد الباطن فقط - فهو إذ ذاك اعتقاد الباطنية الملاحدة توصلوا به إلى نفى للشريعة بالكلية، وحاشى سادتنا من ذلك" (٣٣) .

وعقب على ذلك الشيخ محمد الفاضل بن عاشور بعد أن ذكر احتياطات الألوسى لنفسه فى إيراده التفسير الإشارى.. "ومع ذلك فإن هذا الاحتياط لم ينفعه لأنه فى إيراد الإشارات متجنباً استفادتها من دلالة اللفظ قد فتح خرقاً جديداً يقتضى أن هنالك طريقاً لاستفادة المراد غير مقتضى الألفاظ، وهو خروج عن قواعد أهل السنة فى أن الإلهام ليس من أسباب المعرفة، وإذا كانت تلك المعانى مقصودة فكأن غيرها حائل دونها، وبذلك صح له أن يسمى الفقهاء والعلماء فى كثير من المقامات بأهل الحجاب، وذلك هو ما أثار على

(٣١) روح المعانى ج ٦ ص ٦٨ .

(٣٢) مدخل إلى مناهج المفسرين - مرجع سابق ص ٢٢٧ .

(٣٣) روح المعانى المقدمة ج ١ ص ٧ .

تفسير الألوسي الطامة الكبرى من العلماء المتمسكين بالمبادئ الأصلية المدركين ما فى تلك الخروق من الأخطار".

وقد يوضح لنا هذا تفسير ابن عربى لقوله تعالى ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾. يقول: "... وادخلى جنتى التى هى ستري، وليست جنتى سواك، فأنت تسترنى بذاتك الإنسانية، فلا أعرف إلا بك، كما لا تكون إلا بى فمن عرفك عرفنى، وأنا لا أعرف فأنت لا تعرف. فإذا دخلت جنتك دخلت نفسك، فتعرف نفسك معرفة أخرى غير التى عرفتها حين عرفت ربك بمعرفتك إياها، فتكون صاحب معرفتين: معرفة به من حيث أنت، ومعرفة به بك من حيث هو لا من حيث أنت، فأنت عبد رأيت رباً. وأنت رب لمن له فيه أنت عبد، وأنت رب وأنت عبد لمن له فى الخطاب عهد" (٣٤).

وقد فرق الدكتور الذهبى الذى اقتبسنا منه الفقرة السابقة بين نوعين من التفسير الصوفى نوع أطلق عليه الصوفى الإشارى.. ونوع آخر أطلق عليه النظرى ورأى "أولاً: أن التفسير الصوفى النظرى يبنى على مقدمات علمية تتقدح فى ذهن الصوفى أولاً، ثم ينزل القرآن عليها بعد ذلك، أما التفسير الإشارى فلا يرتكز على مقدمات علمية، بل يرتكز على رياضة روحية يأخذ بها الصوفى نفسه حتى يصل إلى درجة تتكشف له فيها من كيف العبارات هذه الإشارات القدسية، وتنهل على قلبه من سحب الغيب ما تحمله الآيات من المعارف السبحانية.

واستبعد مؤلف "مناهج المفسرين" التفسير الصوفى النظرى، ورأى فيها جرأة على الله وقول بغير علم وإلحاد.. فلا يعد من قبيل التفسير، بل هو فكر الحادى.

أما النوع الثانى - وهو التفسير الإشارى أو الفيضى فقد تقبل بعضه، وضرب المثل بتفسير روح المعانى الذى سبقت الإشارة إليه.

(٤)

## مزالق المفسرين القدامى

### ج. لأخباريون ورواة المأثور

والمجموعة الثالثة التى عنيت بالتفسير وكتبت عنه هى مجموعة الإخباريين ورواة الآثار الذين عنوا بالأخبار التى تضمنها القرآن وتتبعها منذ خلق آدم حتى قيام الساعة وجمع الآثار التى تفسر آيات القرآن وهو ما يطلق عليه "التفسير بالمأثور".

وتضم كلمة المأثور كل ما يؤثر عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن التابعين. وقد اختلف فى المأثور عن الرسول، فذهبت عائشة وبعض الصحابة والفقهاء أنه نذر قليل ورأى آخرون أنه أكثر من ذلك وقد ألف البخارى منه جزءاً مستقلاً. وقد يخضع هذا - أى حجم المأثور - لتقدير المحدثين وقواعدهم فى ضبط الحديث. أما الصحابة فهم مراتب فالأحاديث المنقولة عن الخلفاء الأربعة فى التفسير قليلة وقد لا يبلغ ما روى عن أبى بكر عشرة. وأكثرهم هو على بن أبى طالب ولكن كثيراً مما روى عنه مما دس عليه.

(٣٤) انظر ما نقله عنه الدكتور محمد حسين الذهبى فى التفسير والمفسرون ج ٢ ص ٣٢٤.

وقد ارتأى بعض الفقهاء أن الآية ٤٤ من سورة النحل ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. تتضمن تفسير أو بيان الرسول لكل القرآن لأنه هو ما نزل إليهم.. ورووا في ذلك كلمات لابن تيمية كما قال الفخر الرازي عند تفسيره لهذه الآية "ظاهر الكلام يقتضى أن هذا الذكر مفتقر إلى بيان رسول الله، والمفتقر إلى البيان مجمل، فظاهر هذا النص يقتضى أن القرآن كله مجمل، فلهذا المعنى قال بعضهم: متى وقع التعارض بين القرآن وبين الخبر وجب تقديم الخبر، لأن القرآن مجمل والدليل عليه هذه الآية، والخبر مبين له بدلالة هذه الآية، والمبين مقدم على المجمل والجواب: أن القرآن منه محكم ومنه متشابه، والمحكم يجب كونه مبينا، فثبت أن القرآن ليس كله مجملا، بل فيه ما يكون مجملا، فقوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾. محمول على المجملات" (٣٥).

وهذه هي جناية المنطق المجرد، والأحكام المطلقة دون فكر أو عقل. فلا يمكن لمن لديه ذرة من العقل أن يقول إنه عندما يحدث التعارض بين الخبر وبين القرآن يقدم الخبر ! .

### لأن من الثابت ..

أولاً: أن الله تعالى قال ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾. فدل على تيسير القرآن للذكر بما لا يحتاج - ضرورة - لتبيين وأكثر من هذا وضوحاً وصف الله تعالى للقرآن بأنه "مبين" والمبين لا يحتاج إلى بيان .

ثانياً: أن الأغلبية العظمى من الآيات واضحة، بيّنة لا تحتاج إلى بيان. فقد حدد القرآن نفسه الموقف منها ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾. {٧ آل عمران} ..

ثالثاً: إننا إذا استبعدنا مما قيل أن الرسول قد فسره الحديث الضعيف والمنحول فلا يبقى إلا النذر الطليق وهذا هو ما صرح به السيوطي في الاتقان "والذى صح من ذلك (أى تفسير الرسول للقرآن) قليل جداً بل أصل المرفوع منه غلبة القلة (ج ٢ ص ٢٢٣). ويلحظ في هذا النذر القليل أن الرسول لم يكن يفسر برأيه، وإنما كان يفسر القرآن بالقرآن. كما حدث عندما نزلت الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾. شق ذلك على المسلمين فقالوا يا رسول الله أبنا لا يظلم نفسه قال ليس الأمر ذلك. إنما هو الشرك ألم تسمعوا ما قال لقمان لأبنه وهو يعظه "يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم" وقد كانت بعض أحاديثه شرحاً لما جاء في الكتاب أى عرض المعنى بأسلوب الحديث - وهو أسلوب السرد العادى - وليس بأسلوب القرآن الذى قد يشكل مع بعض الناس ممثلاً قوله "لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خصلة رضى الله منها خصلة أخرى" هو شرح لقول الله تعالى ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. {١٩ النساء}.. وحكمه بأن الله يضاعف الحسنات سبعمائة ضعف مأخوذ من قوله تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. {٢٦١ البقرة}.. وقد جاءت كلمة الروح والساعة مراراً في القرآن. فلما سئل عنهما الرسول أمسك حتى جاءه الوحي ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. {٨٥ الإسراء}.. ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلِ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ

السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا». {٦٣ الأحزاب}.. فالرسول لم يكن يفسر القرآن برأيه، وإنما بالقرآن نفسه إما بالرجوع إلى آيات فيها الكلمة التي غمض معناها أو بانتظار الوحي - وهو قرآن - حتى يقوله وقد رويت حالات عديدة عن أن الرسول كان يتوقف عن الإجابة على أسئلة حتى ينزل عليه وحى. فيطلب السائل ليلبغه ما جاء به الوحي .

إن هذه الوقائع الثابتة، وأعني ندرة ما فسر الرسول، وأنه في هذه الحالات الندرة كان يرجع إلى القرآن نفسه أو إلى وحى قرآني.. في منتهى الأهمية لأنها تكاد تستتبع. أن كل ما تسرده كتب التفسير سرداً كأنه قضية مسلمة وتخالف ما ذهب إليه المفسرون من أن طريقة التفسير هي أن تعود إلى القرآن. فإن لم تجد فتعود إلى السنة فإن لم تجد فتعود إلى الصحابة وقد يلحقون بالصحابة التابعين .

ما هذا أيها السادة! كيف تحكّمون الأخبار الركيكة والأحاديث الموضوعة في كلام الله ثم تأتون بكلام من زيد أو عمر من الصحابة - ثم لا تقفون بل تضمنون إليهم النابغين؟ هل جعلتم كلام الله - تجاريب وتمارين ومجالات يذهب فيها من يشاء كما يشاء! ألا اتقيتم الله وجعلتم لكم في رسول الله أسوة حسنة، وقد رأيتم كيف كان يعرف للقرآن قدره لا يحكم فيه برأيه أو جعلتم في أبي بكر أسوه وهو الذي لم يجد أرضاً نقله، ولا سماء تظله إذا قال في القرآن برأيه. وأنتم تهرعون وفي كل واد تهيمون ..

ومعنى هذا عدم الالتزام بما رووه من أحاديث عن الرسول، ومن باب أولى عدم الالتزام بما جاء من كلام الصحابة لأن الصحابة ليسوا مشرعين، بل أن الرسول نفسه ليس مشرعاً إلا فيما كلفه الله به صراحة دون تأويل، وحصيلة هذا. هدم تفسير المأثور، وهو أكبر مراجع التفسير .

فإذا كان التفسير بالمأثور منسوبا إلى الرسول، وقد أوردنا تحفظاتنا عليه، فإن ما يورد عن الصحابة أجدر بالتحفظ أما عن التابعين فيفترض أن لا ينظر فيه أحد إلا إذا كان تفسيراً بالرأى لأن الشقة قد بعدت ما بين الرسول والتابعين بحيث يكون من الصعب على ما يرويه هؤلاء إن يقال عنه تفسير بالمأثور .

وقد دافع الفقهاء والمفسرون عن تفسير الصحابة، وأنه يؤخذ به عندما لا يوجد في القرآن والسنة. وادعوا لهذا دعاوى لا تثبت أمام النقد السليم لأنه لا يمكن تحكيم آحاد من البشر - مهما كانوا - في النص المعجز، فهذا خطأ أصولي ولا يمكن الاعتذار عنه وإذا كان أبو بكر يقول "أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إن قلت في كتاب الله بما لا أعلم" فكيف يجوز أن نأخذ بأقوال آحاد الصحابة - خاصة إذا أخذنا بقاعدة المحدثين أن الصحابة جميعاً عدول بتعديل الله" فأول ما يثير الاعتراض صحة نسبة ما ينسب إلى الصحابة عبر السند الطويل، ثم يأتى ما يقال - أنه ليس للصحابة ولا لغيرهم من آحاد الناس أن يحكموا ويفسروا، فهذا إذا أبيض لأحد للرسول وحده، وقد رأينا الرسول يتريث حتى ينزل عليه وحى، أو يفسر القرآن بالقرآن ثم ما صح عنه نذر قليل .

نحن لا ندخل في صراع فكري مع الفقهاء في قبولهم تفسير الصحابة والتابعين لاختلاف المناهج التي يدور عليها النقاش فنحن نأخذ بمنهج طبائع الأشياء والأمر الثابت القطعي والعقل والمنطق وهم يأخذون بالأقوال فيدافعون عن المرويات بالمرويات، وهذا لا يستقيم ولا يعملون ذهنهم أو فكرهم أبداً، وإنما هو قيل وقال ..

ولعل أكبر دليل على ما ذهبنا إليه ما يساق من تفسير عن ابن عباس والحديث عن بن عباس يجب أن يشمل ابن عباس نفسه. ومن روى عنهم ومن روى عنه حتى تتكامل الصورة عما ينسب إليه من تفسير .

ولا ريب أن ابن عباس - هذا الفرع الوارف من الدوحة النبوية كان نابغة وقد رزق ذكاءً وقادا وذاكرة لاقطة وثقافة عربية ولغوية ضليعة وتذوقاً فنياً. كما كان حريصاً على العلم وتلمسه من كافة مظانه، وأنه كأبي هريرة كانت له حسنة التفرع والتخصص ويفضل أبا هريرة أنه بدأ من السن الباكرة التي يكون فيها الذهن منفتحاً والذاكرة حافظة. وهذه المزايا كلها جعلته "ترجمان القرآن" وأكسبته التقدير وأدخلته وهو في ريعان الشباب بين شيوخ الصحابة وكبارهم، وقيل إن الرسول قد دعا له، وشهد له عمر بن الخطاب، ولكن هذا كله لا ينفي أنه - كأبي هريرة - وقع فيما يقع فيه المكثرون والحريصون على تلمس المعرفة من كافة مظانها. فإن رغبتهم تلك - حتى عندما تكون خالصة لوجه الله والمعرفة يمكن أن تغرب بصاحبها وتذهب به إلى مسالك نائية وموحشة وقد كان هذا في أصل "شواذ" ابن عباس التي لحظها أبو جعفر المنصور ووجه الإمام مالك لتوقيها في كتابه "الموطأ" كما كان ذلك في أصل مروياته عن كعب الأخبار ونقله للكثير من الإسرائيليات التي لم ير فيها مخالفة لأصول الشريعة وفاته أن عدم المخالفة لا يستتبع ضرورة الاتفاق أو يكفل الصحة وقد كان كعب الأخبار الداهية حريصاً على التقرب إلى ابن عباس وكان ابن عباس شديد التقدير لبعض مسلمة يهود وحسبك أنه فسر الآية "لكن الراسخون في العلم" أنهم عبد الله بن سلام وأصحابه، وروى أن ابن عباس كان يرجع إلى أبي الجعد غيلان بمن يسأله عن بعض هذه الإسرائيليات وأنه كان يتلقاها منه تلقياً حسناً. وأوجد ذلك صعيداً مشتركاً ما بين ابن عباس وكعب الأخبار، على أن هذا لا يعنى أن ابن عباس كان يسلم بكل ما يدعيه كعب فإن فطنة ابن عباس كانت تأبى هذا وثمة حالات كشف فيها ابن عباس ادعاءات كعب، بل لقد روى عنه النهي عن سؤال أهل الكتاب فروى البخارى في كتاب الاعتصام باب قول النبي لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء أن ابن عباس قال "يا معشر المسلمين تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذى أنزل على نبيكم أحدث الأخبار بالله تقرأونه محضاً ولم يُشَبَّ (٣٦) وقد حدثكم أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتب فقالوا ﴿هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾. ولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم فلا والله ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذى أنزل عليكم" ومن العسير أن يتفق هذا القول مع ما قيل عن أخذه عن كعب ووهب وتأثره بهما اللهم إلا إذا كان الرواة عنه قد كذبوا عليه وهو احتمال قوى لما سيلى من البراهين .

هذا عن ابن عباس نفسه.. أما من روى عنهم فهم كثيرون وهم يصعدون إلى القمة التي لا غاية وراءها - النبي صلى الله عليه وسلم ثم يتابعون حتى يصلوا إلى كعب الأخبار ووهب بن منبه على ما روت عنه كتب السنة وما ألقى ظلاً من الشبهات على كثير من مروياته .

ويجب أن نذكر أن ابن عباس كان طفلاً في حياة الرسول وأن مروياته نقلاً عن الصحابة وليست سماعاً عن الرسول، وروى أنه كان ينام على عتبة أبواب الصحابة ليلقاهم ويسمع منهم .

أما من روى عنه فهم كثيرون ولكن مما يلفت الانتباه وقد لا يخلو من مغزى أن الشبهات قد ثارت حول معظمهم حتى عكرمة وهو أكبر رواة وأفضلهم أما السدى الصغير ومقاتل وعبد الله بن جريج وعطية العوفى فإن الشبهات تكتفهم وتصل ببعضهم إلى الكذب الصراح .

وحتى لا نتهم بالتحامل فإننا ننقل هنا ما جاء عن هذه النقطة من الإتيان :

"وقد ورد عن ابن عباس في التفسير ما لا يحصى كثرة وفيه روايات وطرق مختلفة فمن جيدها طريق على بن أبي طلحة الهاشمي عنه قال أحمد بن حنبل "بمصر صحيفة في التفسير رواها على بن أبي

طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيرا" أسنده أبو جعفر النحاس في ناسخه قال ابن حجر وهذه النسخة كانت عند إبي صالح كاتب الليث رواها عن معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وهي عند البخارى عن أبي صالح وقد اعتمد عليها في صحيحه كثيرا فيما يعلقه عن ابن عباس، وأخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر كثيرا بوسائط بينهم وبين أبي صالح وقال قوم لم يسمع ابن أبي طلحة من ابن عباس التفسير وإنما أخذه عن مجاهد أو سعيد بن جبير قال ابن حجر بعد أن عرفت الوسطة وهو ثقة فلا ضير في ذلك وقال الخليلي في الإرشاد تفسير معاوية بن صالح قاضى الأندلس عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رواه الكبار عن أبي صالح كاتب الليث عن معاوية وأجمع الحفاظ على أن ابن أبي طلحة لم يسمعه من ابن عباس قال وهذه التفاسير الطوال التي اسندها إلى ابن عباس غير مرضية ورواتها مجاهيل كتفسير جويبر عن الضحاك عن ابن عباس وعن ابن جريح في التفسير جماعة رروا عنه وأطولها ما يرويه بكر بن سهل الدمياطى عن عبد الغنى بن سعيد عن موسى بن محمد عن بن جريح وفيه نظر. وروى محمد بن ثور عن ابن جريح نحو ثلاثة أجزاء كبار وذلك صححه وروى الحجاج بن محمد عن ابن جريح نحو جزء وذلك صحيح متفق عليه وتفسير شبل بن عباد المكي عن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قريب إلى الصحة وتفسير عطاء بن دينار يكتب ويحتج به وتفسير أبي روق نحو جزء صحوه وتفسير إسماعيل السدى يورده بأسانيد إلى ابن مسعود وابن عباس. وروى عن السدى الأئمة مثل الثورى وشعبه لكن التفسير الذى جمعه رواه أسباط بن نصر، وأسباط لم يتفقوا عليه غير أن أمثل التفاسير تفسير السدى فأما ابن جريح فإنه لم يقصد الصحة وإنما روى ما ذكره فى كل آية من الصحيح والسقيم وتفسير مقاتل بن سليمان فمقاتل فى نفسه ضعفه وقد أدرك الكبار من التابعين والشافعى أشار إلى أن تفسيره صالح انتهى كلام الإرشاد، وتفسير السدى أشار إليه يورد منه جرير كثيرا من طريق السدى عن أبى مالك عن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وناس من الصحابة هكذا ولم يورد منه ابن أبى حاتم شيئا لأنه التزم أن يخرج أصح ما ورد والحاكم يخرج منه فى مستدركه أشياء ويصححه لكن من طريق مرة عن ابن مسعود وناس فقط دون الطريق الأول وقد قال ابن كثير إن هذا الإسناد يروى به السدى أشياء فيها غرابة ومن جيد الطرق عن ابن عباس طريق قيس عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عنه وهذه الطرق صحيحة على شرط الشيخين وكثيرا ما يخرج منها الفريابى والحاكم فى مستدركه ومن ذلك طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبى محمد مولى آل زيد بن ثابت عن عكرمة أو سعيد بن جبير عنه هكذا بالترديد وهي طريق جيدة وإسنادها حسن وقد أخرج منها ابن جرير وابن أبى حاتم كثيرا وفى معجم الطبرانى الكبير منها أشياء وأوهى طريقه الكلبى عن ابن صالح عن ابن عباس فإن انضم إلى ذلك رواية محمد بن مروان السدى الصغير فهي سلسلة الكذب وكثيرا ما يخرج منها الثعلبى والواحدى لكن ابن عدى فى الكامل للكلبى أحاديث صالحة وخاصة عن أبى صالح وهو معروف بالتفسير وليس لأحد تفسير أطول منه ولا أشبع وبعده مقاتل بن سليمان إلا أن الكلبى يفضل عليه لما فى مقاتل من المذاهب الردية وطريق الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس منقطة فإن الضحاك لم يلقه فإن انضم رواية بشر بن عمار عن أبى روق عنه فضعيفة لضعف بشر وقد أخرج من هذه النسخة كثيرا ابن جرير وابن أبى حاتم وإن كان من رواية جويبر عن الضحاك فأشد ضعفا لأن جويبر شديد الضعف متروك ولم يخرج ابن جرير ولا ابن أبى حاتم من هذا الطريق شيئا إنما خرجها ابن مردويه وأبو الشيخ ابن حبان وطريق العوفى عن ابن عباس وأخرج منها ابن جرير وابن أبى حاتم كثيرا والعوفى ضعيف ليس بواه وربما حسن له الترمذى، ورأيت فى فضائل الإمام الشافعى لأبى عبد



الله بن أحمد بن شاکر القطان أنه أخرج بسنده من طريق ابن عبد الحكم قال سمعت الشافعی يقول لم یثبت عن ابن عباس فی التفسیر إلا شبيهه بمائة حدیث" (٣٧) .

**وقال السيد رشيد رضا رحمه الله عن تفسير ابن عباس ..**

وأما ما روى عن ابن عباس فی تفسيره فأكثره موضوع لا یصح لأنه مروى من طریق الكذابين الوضاعين كالكلبي والسدى ومقاتل بن سليمان. وذكر ذلك الحافظ السيوطی وسبقه إليه شيخ الإسلام بن تيمية بل إن رواية هؤلاء وأضرابهم التفسیر عنه وعن غيره هي المقصودة من قول الإمام أحمد رحمه الله تعالى "ثلاث كتب لا أصل لها المغازى والملاحم والتفسیر" قالوا إنه أراد كتباً مخصوصة فی هذه المعانى الثلاثة غير معتمد عليها لعدم عدالة ناقلها ولزيادة القصاص فيها وذكرها منها تفسير هؤلاء بل نقلوا عن الإمام أنه قال فی تفسير الكلبي "من أوله إلى آخره كذب لا یحل النظر فيه" وقالوا إن كل من ينقل فی تفسيره من الأحاديث الموضوعة لا یوثق بتفسيره بالمأثور ومن هؤلاء الثعلبي والواحدى والزمخشري والبيضاوى" (٣٨) .

**"وهذه الكتب التي يسميها كثير من الناس التفسير فيها كثير من التفسير منقولات عن السلف مكذوبة عليهم وقول على الله ورسوله بالرأى بل بمجرد شبهة قياسية أو شبهة أدبية .**

وأما كونه ثابتاً عن ابن عباس أو غيره فهذا مما لم یثبت ومعلوم أن فی كتب التفسیر من النقل عن ابن عباس من الكذب شيء كثير من رواية الكلبي عن أبى صالح وغيره فلا بد من تصحيح النقل لتقوم الحجة" (٣٩) .

وهذه الكلمات صريحة فی أن كثيراً من المنقولات عن السلف مكذوبة عليهم وقول على الله ورسوله بالرأى المجرد بشبهة قياسية أو شبهة أدبية ومن يطالع كتب التفسیر يجد الكثير مما یصدق عليه إطلاق الآراء، أو الاجتهادات الركيكة أو الاستشهادات الباطلة بأبيات من الشعر ما انزل الله بها من سلطان .

ومن المحتمل أن یصور موقف ابن عباس والصادقين من روايته إزاء هذه الإسرائيليات ما أورده مؤلف "الحديث والمحدثون" إذ قال :

"وفى تفسير كبار الأئمة كثير من الإسرائيليات المنسوبة إلى كعب وهب وغيرهما كما تراه فی تفسير ابن جرير وغيره ولا ینبغى أن یذم هؤلاء الأئمة بذكرها فی كتبهم لأنهم رووها على أنها إسرائيلييات توزن بميزان الشرع. ولأنهم قد ذكروا أسانيداً إلى قائلها تاركين تمييز صحيحها من باطلها لمن يأتي بعدهم كما فعل المحدثون عند تدوين الحديث ولأنهم بذكر الإسناد قد برئوا من عهدتها لأن أحوال الرجال كانت معروفة لمعاصريهم على خلاف ما نحن عليه اليوم .

هذا وليس كل ما ینسب إلى كعب وهب وأضرابهما صحيحاً فقد اختلق عليهم الوضاعون كثيراً لیروجوا باطلهم بنسبته إليهم وتناقل هذه الأخبار المكذوبة بعض القصاص والمؤرخين والأدباء وبعض القاصرين من المفسرين على أنها حقائق من غير أن یتثبتوا من صحة نسبتها إلى من عزيت له وبدون أن

(٣٨) الإتحان للسيوطی ص ١٨٨-١٨٩ الجزء الثانى .

(٣٨) السيد محمد رشيد رضا رحمه الله فى "الوحدة الإسلامية والأخوة الدينية" (نشرت فى المجلد الثالث والرابع والسادس من المنار) ص ١١ .

(٣٩) تفسير سورة النور لابن تيمية حققه وخرج أحاديثه محمد إبراهيم زايد وعبد المعطى (دار الوعى - حلب) ص ١٩٠-١٩١ .

يفطنوا إلى أنهم كانوا يرونها على أنها إسرائيلية بتقدير صحتها عنهم فضلوا وأضلوا والذنب ليس ذنب كعب ووهب ولكنه ذنب القصور والتقصير" (٤٠) .

فهذه الفقرة تمثل أصدق تمثيل الملابس التي دفعت بكبار الأئمة إلى إدراج الإسرائيليات بصدد تفسير القرآن، كما تصور نفسية السلفيين إزاء ذلك والورع والحرص الذي حملهم على الدفاع عن هذا المذهب وعدم المساس به. وأن الذنب ليس ذنب كعب ووهب ولكنه ذنب القصور والتقصير رغم أن كعب ووهب هما اللذان زجا بهذه الأقاويل المدعاة وكان لهما عن هذا مندوحة فضلاً عن أن اختصاص الوضاعين بهذين وما حاط بهما يثير الشبهات القوية التي تجعل حسن الظن بهما أقرب إلى الغفلة منه إلى الفطنة، والمؤمن كيس فطن وليس كما صحفوا - وفعلوا "كيس قطن" ..

وقد رفض مؤلف "الحديث والمحدثون" بقوة من زعم أن كعب ووهب من اليهود الذين تظاهروا بالإسلام ليكيدوا له وأن هذا انطلى على المحدثين وقال "وهذا الزعم بنوعيه لا يصدر إلا عن جاهل قد ملأه الغرور أو مجنون لا يدري ما يقول. ولو أنه كلف نفسه النظر في أسانيد هذه الروايات التي تنسب إليهما ليتبين أصححها أم هي باطلة، ثم تأمل بعد ذلك إلى أنهما كان يرويانها على أنها إسرائيلية ما رمى الصحابة والتابعين ومن بعدهما من حذاق الناقدين بهذا البهتان المبين" وهذا العنف - أو القذف - يوضح مدى حساسية المحدثين المعاصرين لما يوجه من نقد أو تمحيص حتى عندما يراد منه الدفاع عن الإسلام والحفاظ على نقاء الحديث .

وفي حياة ابن عباس حدث تاريخي وقع عندما ولاه الإمام على بن أبي طالب ولاية البصرة، ولم يرسل ابن عباس "ميزانية" هذا المصر الهام فاستحنه الإمام على فتناقل فدارت بينهما مراسلات مؤثرة انتهت بان استحوز ابن عباس على ما في بيت المال وأخذه ثم ذهب إلى مكة فابتنى قصراً، واشترى جوارى الخ... إن هذا الحدث يلقي ظلالاً كثيفة على شخصية ابن عباس وعلى المرويات التي تكون قد صدرت عنه فعلاً (وليس مذكورة عليه) لأن لهذا الحدث، بل السقطة الجسيمة، دلالاتها السيئة، ولا ينجيه منه أى تأويل، ولا نرى ذكراً لهذا الحدث فى تراجم ابن عباس لدى المحدثين، إما جهلاً منهم وإما تستراً، وإذا كانوا يرفضون المساس بكعب ووهب، فما بالك بابن عباس والحق أحق أن يتبع، وهو يقضى على الرجال كائناً ما كانوا

\* \* \*

وقد ولع الإخباريون ورواة الآثار بثلاثة مجالات ملأوا بها التفسير بالمأثور.. هي أولاً: الأخبار عن آدم وحواء والأنبياء، وبوجه خاص بنى إسرائيل والفتن والملاحم ويوم القيامة والجنة والنار مما يمكن أن يطلق عليه الإسرائيليات لأن معظمه - إن لم يكن كله - هو من روايات أهل الكتاب. ثانياً: تعيين المبهمات التي أبهمها القرآن عن عمد بالطبع وذكر من أريد بها.. ثالثاً: أسباب النزول .

ولا يتسع المجال لإيراد، ولو نماذج من الإسرائيليات لأن هذا يتطلب كتاباً مستقلاً، وقد لفتت الظاهرة ابن تيمية وابن خلدون. ففند ابن تيمية الاستشهاد بحديث استشفاة آدم بالنبي وقال أنه "إنما نقل عن مثل كعب ووهب وابن إسحاق ونحوهم ممن أخذوا ذلك عن مسلمة أهل الكتاب"

وشرح ابن خلدون في مقدمته أسباب نقل المفسرين هذه الإسرائيليات فقال "والسبب هو أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية، وإذا تشوقوا إلى معرفة شئ مما تشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فإنما يسألون أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى، وأهل الكتاب الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها - مثل أخبار بدء الخليقة، وما يرجع إلى الحدثن، والملاحم، وأمثال ذلك، وهؤلاء مثل: كعب الأحبار ووهب بن منبه، وعبد الله بن سلام، وأمثالهم فامتلت النفاسير من المنقولات عنهم، وفي أمثال هذه الأغراض أخبار موقوفة عليهم وليست مما يرجع إلى الأحكام، فتتحرى فيها الصحة التي يجب بها العمل وتساهل المفسرون في مثل ذلك، وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات وأصلها، كما قلنا عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية، ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك، إلا أنه بعد صيتهم، وعظمت أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة، فتلقيت بالقبول من يومئذ" (٤١) .

وفي كتب التفسير من الإسرائيليات "طامات وظلمات" لا يتسع المجال لذكر نماذج منها وقد يكفى لإعطاء الفكرة المطلوبة أن نستشهد هنا ببعض ما جاء في فهرس كتاب "الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير" للأستاذ الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة .

"الإسرائيليات في قصة أصحاب أهل الكهف - الإسرائيليات في قصه ذى القرنين - الإسرائيليات في قصة يأجوج ومأجوج - الإسرائيليات في قصة بلقيس ملكة سبأ - الإسرائيليات في قصة الذبيح وأنه إسحاق وليس إسماعيل عليه السلام - الإسرائيليات في قصة إلياس عليه السلام - الإسرائيليات في قصة داود - الإسرائيليات في قصة سليمان - الإسرائيليات في قصة أيوب - الإسرائيليات في قصة إرم ذات العماد - الإسرائيليات فيما يتعلق بعمر الدنيا وبدء الخلق الخ.. - ما يتعلق بعمر الدنيا - ما يتعلق بخلق الشمس - ما يتعلق بتعليل بعض الظواهر الكونية - ما ذكره المفسرون في الرعد والبرق - جبل ق المزعوم وحدث الزلازل - الإسرائيليات في تفسير (ن والقلم) الخ...".

ومن باب الأهم قبل المهم، من هذا الركام المتعالى يكفى أن نشير إلى حديث "خلق الله آدم على صورته" وحديث أن المرأة خلقت من ضلع الرجل وأن الذبيح هو اسحق وليس إسماعيل مع أن أدنى صورة للتوحيد تستبعد خلقه مخلوق على مثال الله، ولأن الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾. ترفض هذا التفسير التوراتي، لأن النفس تختلف عن الجسد أو البدن وما فيه من عظام.. ولأن آيات القرآن تذكر أن إسماعيل هو الابن البكر لإبراهيم الذي كان محل تجربة واختبار إبراهيم وأن الله تعالى كافأه على ذلك بتبشيريه أولاً أسحاق ثم يعقوب ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. {١١٢ الصافات}.. ولكن قوة وأثر الإسرائيليات جعلت الزمخشري يذهب إلى ما ذهب إليه الإسرائيليون لأنه روى خطاباً "من يعقوب إسرائيل الله ابن اسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله".

\* \* \*

والقرآن لا يلجأ إلى الإبهام إلا لحكمة. ولو أراد التصريح والإعلان لما أعجزه وكان يجب على المفسرين أن يدركوا هذا وأن يفهموا هذه الحكمة ويقفوا عندها. وحكمة القرآن أنه يريد بهذا الإضمار للمعاني التي تتعلق بهذه المبهمات أن تكون عامة وأن يتعظ الناس بها جميعاً دون أن تكون مخصوصة بصاحبها ولكن المفسرين سامحهم الله افتاتوا على القرآن وغلبتهم الطلعة والفضول أو فاتهم المعنى المقصود واعتقدوا أنهم يحسنون صنعا بالتعيين. وأفوا في ذلك الكتب ككتاب التعريف والأعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام - لعبد الرحمن بن علي عبد الله السهيلي الأندلسي وكتاب "الإقران في مبهمات القرآن" ولولا حسن نيتهم وفضل الله ورحمته لدخلوا فيمن قال الله فيهم ﴿قُلْ أَتَعَلَّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. { ١٦ الحجرات } ..

ولم يُفْتُ بعض المفسرين أن يذكر القرآن أن هذا الأمر من الأمور مما استأثر الله بعلمه. فقد قال الزركشي في البرهان "لا يبحث عن مبهم أخبر الله استثنائه بعلمه كقوله ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعَلَّمُونَهُمُ اللَّهَ يَعْلَمُهُمْ﴾. وقال "والعجب ممن تجرأ وقال إنهم قريظة أو من الجن" ولكن السيوطي عقب على ذلك فقال "ليس في الآية ما يدل على أن جنسهم لا يعلم وإنما المنفى على أعيانهم ولا ينافيه العلم بكونهم من قريظة أو من الجن وهو نظير قوله في المنافقين ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعَلَّمُهُمْ نَحْنُ نَعَلَّمُهُمْ﴾. فإن المنفى علم أعيانهم ثم القول في أولئك أنهم قريظة أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد والقول بأنهم من الجن أخرج ابن أبي حاتم من حديث عبد الله بن غريب عن أبيه مرفوعاً عن النبي صلى الله عليه وسلم فلا جراءة" (٤٢) .

فانظر كيف يحدث التحايل والمماحكة، والعجب كيف لم تنثر ريبة السيوطي أن يروى شخص واحد (ابن أبي حاتم) روايتين متعارضتين عن واقعة واحدة. الأمر الذي يصور مدى هيمنة الإسناد على النفوس .

وقطع المفسرون أن آية ما تخص شخصاً بعينه اعتماداً على بعض القواعد النحوية ثم تطرقوا إلى تعيين هذا الشخص، فالآية ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى. الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾. قالوا إنها نزلت في أبي بكر رضي الله عنه وأنها "تقصر عليه قطعاً" وقالوا "ووهم من ظن أن الآية عامة في كل من عمل عمله إجراء له على القاعدة وهذا غلط فإن هذه الآية ليس فيها صيغة عموم إذ الألف واللام تفيد العموم إذا كانت موصولة أو معرفة في جمع زاد قوم أو مفرد بشرط أن لا يكون هناك عهد واللام في الأتقى ليست موصولة لأنها لا توصل بأفعل التفضيل إجماعاً و"الأتقى" ليست جمعا بل هو مفرد والعهد موجود خصوصاً مع ما يفيد صيغة أفعل من التمييز وقطع المشاركة فبطل القول بالعموم وتعين القطع بالخصوص والقصر على من نزلت فيه رضي الله عنه" .

فهذا الكفاح المرير مع الحروف وقواعد النحو لقصر المعنى على شخص بعينه دون أن يكون لديهم دليل قطعي ويقيني أنه أبو بكر بصرف النظر عن مدى التوفيق والنجاح فيه يمكن أن يوقف دفع الآية واستحاثتها على العمل من تدفعه العاقبة الجميلة والثواب الموعود. فضلاً عن أن سياق السورة يأباه لأن الآيات السابقة تتحدث عن الأشقى بالصيغة نفسها التي تحدثت بها عن "الأتقى" فوجب أن يعين الأشقى أيضاً كما عينوا الأتقى وقد اختلفوا فيه فقبل وقيل. وكان لهم عن هذا وذاك مندوحة لولا أنهم حكموا قواعد نحوهم في القرآن والقرآن أعظم منها .

وبالطبع، فإن هذه ليست إلا أمثلة عارضة وإلا فإن علماء التفسير لم يدعوا مبهماً في القرآن إلا وعينه، بل وحددوا اسمه. وقد خصص السيوطى ست صفحات كبار لإيضاح المبهمات .

ولم يقتصر الإبهام على الأشخاص عندما لا يذكر القرآن الاسم، فإن بعض المفسرين يرى أن من واجبه أن "يعرف" أى واقعة لم يُعَيَّنْها أو يحددها القرآن تحديداً تاماً، وهم لا يعدمون أقوالاً يستندون عليها فى أداء هذا الواجب! هى فى الأغلب من مصادر إسرائيلية .

وقد يغربون مع وضوح اللفظ وانعدام الحاجة إلى الأعراب. فيفسرون "ويل للمطففين" بأن ويل واد فى جهنم ثم يصفونه، وكذلك عند تفسير "أعوذ برب الفلق" الفلق واد فى جهنم، كأنهم مولعون بأودية جهنم وقد يقطعون الكلمة إلى كلمات نفى آية "عينا فيها تسمى سلسبيلاً" يقولون خطأ من وصل هذه الكلمة "سلسبيلاً" وإنما هى "سل سبيلاً يا محمد" .. وقالوا فى "كانوا يأكلون الطعام" كناية عن الغائط، وكذلك "وقالوا لجلودهم" أى لفروجهم

وقد يطنبون إلى مدى واضح الزيف والسخف إلى درجة يسلمون هم أنفسهم بها.. كما جاء فى ابن كثير عن سعيد عن قتادة عن الحسن (وهم من أعلام المحدثين ويفترض أن تقبل روايتهم) أن اسم النملة التى قالت ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. هو "حرس" وأنها من قبيلة يقال لها: بنو الشيطان وأنها كانت عرجاء! وكانت بقدر الذئب !! .

ويستطرد "وقد قال أبو حاتم حدثنا أبى حدثنا محمد بن بشار حدثنا يزيد بن هارون حدثنا مسعد عن زيد العمى عن أبى الصديق الناجى قال: خرج سليمان بن داود يستسقى فإذا هو بنملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهى تقول: اللهم إنا خلق من خلقك ولا غنى بنا عن سقياك وإلا تسقنا نهلك" فقال: سليمان ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم .

ويروى كذلك عن هدهد سليمان وأن اسمه كان عنبر، ورووا عن مجاهد أن الله دفع عنه بيره بأمه .

وبعد أن يسرد الأذى ابن كثير صفحات كثيرة يقول. والأقرب فى مثل هذه السياقات أنها متلقاه من أهل الكتاب، مما وجد فى صحفهم كروايات كعب ووهب سامحهم الله فيما نقلنا إلى هذه الأمة من أخبار بنى إسرائيل من الأوابد والغرائب والعجائب، مما كان ومما لم يكن ومما حرف وبدل ونسخ وقد أغنانا الله عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ والله الحمد والمنة.. "على أن هذا لم يجعله يكف من قبل، أو حتى من بعد، فأخذ يورد أمثال ذلك فى بقية السور لأن مذهبه هو كما قال هو نفسه: "أن تستوعب الأقوال فى ذلك المقام. وأن تنبه على الصحيح منها ونبطل الباطل وتذكر فائدة الخلاف وثمرته". وتحدث مفسرون آخرون عن الدابة التى جاء ذكرها فى الآية ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾. فيقولون أن رأسها رأس الثور وعينها عين الخنزير وأذنها فيل وقرناها قرن أيل وصدرها صدر أسد ولونها لون نمر وخاصرتها خاصرة هرة الخ ...

وهذه الفقرات تصور المناخ الذى سيطر على المفسرين وجعلهم يوردون هذه الخرافات فى حين أن ذلك يمكن أن يغرس الشك فى صحة ما يرويه هؤلاء الرواة وبعضهم من كبار وثقة الرواة - خاصة، وأن ما أوردناه ليس إلا مثلاً عارضاً، وإلا فإن معظم كتب التفسير حافلة بأمثال هذه المنكرات.. حتى كاد هذا

المسلك يكون تقليدا. وقد تحدث الأستاذ الشيخ متولى الشعراوى عن "الفرس" التى كان يركبها فرعون وتقحمت به البحر حديثا يعيد إلى الذهن ما أورده ابن كثير عن نملة سليمان (٤٣).

\* \* \*

أما المجال الثالث فهو أسباب النزول.. وقد كتب عنه كثيرون من أشهر هذه الكتابات كتاب (لباب النقول فى أسباب النزول) للسيوطى الذى جمع فيه أفضل ما وجدته فى كتب أسباب النزول فضلا عن اجتهاده الخاص. ومع هذا فقد تضمن الأمثلة الآتية .

١. ﴿وَإِنَّ امْرَأَةً خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾. {النساء} ..

روى أبو داود والحاكم عن عائشة قالت فرقتُ سوده أن يفارقها رسول الله حين أسنت فقالت يومى لعائشة فنزلت الآية .

وروى الترمذى مثله عن ابن عباس .

ونقول إن هذا سبب لا يمكن أن ينسب إلى النبى صلى الله عليه وسلم ولا إلى أم المؤمنين سوده وصياغة الآية تستبعد أن يقصد بها الرسول وأم المؤمنين .

٢. ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾. {الحجر} ..

روى الترمذى والنسائى والحاكم وغيرهم عن ابن عباس قال كانت امرأة تصلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حسناء من أحسن الناس – فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون فى الصف الأول لئلا يراها ويستأخر بعضهم حتى يكون فى الصف المؤخر فإذا ركع نظر من تحت أبطية فأنزل الله ولقد علمنا المستقدمين الآية .

وأخرج ابن مردويه عن داوود بن صالح أنه سأل سهل بن حنيف الأنصارى "ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين" أنزلت فى سبيل الله قال لا، ولكنها فى صفوف الصلاة .

ونقول أن ذلك يخالف الوقائع. ويناقض السياق وقد فسر السيوطى نفسه فى تفسير الجلالين الشق الأول من الآية "أى من تقدم من الخلق من لدن آدم" والشق الثانى "المتأخرين إلى يوم القيامة" ..

٣. ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾. {النحل} ..

أخرج ابن أبى حاتم عن أبى بكر بن أبى حفص قال كانت سيدة الأسدية مجنونة تجمع الشعر والليف فنزلت ولا تكونوا كالذى نقضت غزلها!! ..

(٤٣) جاء فى التفسير الذى تنشره مجلة لواء الإسلام للشيخ الشعراوى "وأوحى الله لموسى أن يضرب العصا على الفرق العظيم فانشقت فى كل فرقة كوة يمكن لكل جماعة أن ترى الأخرى منها ويقال إن فرعون كان قد ركب "فرسة" أتاها الشبق وهى تمخر فى البحر. كانت الفرس قد ملأها الهياج الخ... ص ١٣ مجلة اللواء الإسلامى - ٦ ربيع ثان ١٤٠٣هـ - ٢٠ يناير ١٩٨٣ م .

٤. ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾. {٢٥ الكهف}.. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قالت أنزلت "ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة" فقالوا يا رسول الله سنين أو شهوراً فانزل الله "سنين وازدادوا تسعا" .

٥. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانَ فِي أُمَّيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. {٥٢ الحج} ..

أخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر من طريق بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال: قرأ النبي صلى الله عليه وسلم بمكة "والنجم" فلما بلغ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾. ألقى الشيطان على لسانه "تلك الغرائيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى" فقال المشركون ما ذكر ألهتنا بخير قبل اليوم - فسجد وسجدوا فنزلت ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾

وأخرجه البزار وابن مردويه من وجه آخر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسبه وقال لا يروى متصلاً إلا بهذا الإسناد وتفرد بوصله أمية بن خالد وهو ثقة مشهور .

وأخرجه البخاري عن ابن عباس بسند فيه الواقدي وابن مردويه عن طريق الكلبي عن ابن صالح عن ابن عباس وابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس .

وأورده ابن إسحق في السيرة عن محمد بن كعب وموسى بن عقبة عن ابن شهاب وابن جرير عن محمد بن قيس وابن أبي حاتم عن السدي كلهم بمعنى واحد .

وكلها إما ضعيفة أو منقطعة سوى طريق سعيد بن جبير الأولى .

قال الحافظ بن حجر ولكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً، على أن لها طريقين صحيحين مرسلين أخرجهما ابن جرير أحدهما من طريق الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام والآخر عن طريق داود عن هند عن أبي العالية ولا عبرة بقول ابن العربي وعياض إن هذه الروايات باطلة ولا أصل لها .

ونقول إن هذا الكلام يوضح لنا مرة أخرى هيمنة الإسناد، فمع أن بعض الروايات اعتبرت باطلة، إلا أن الطرق الأخرى التي ظاهرها رواة آخرون أقوى (رغم أنهما كانا مرسلين) كانا سبباً لاستبعاد كل ما وجه لها من نقد، مع أن الأمر يتعلق بشخص النبي وأدائه للرسالة، وليس هناك ما هو أخطر من هذا وأدعى لدفع مثل هذه المفتريات، وإذا كانت الحدود تدرأ بالشبهات، أفما كان واجبا أن تستبعد هذه الشبهات المتكاثفة ما جاءت به الرواية من ادعاءات بعيدة في حد ذاتها عن الحقيقة. وقد علق مصحح لباب المنقول "المطبوع على هامش تفسير الجلالين بمطبعة البابى الحلبي سنة ١٣٤٢ هـ" .

"العقيدة تعتمد اليقين أو ما يقاربه في السند لأنها يقين في موضعها وإذن الحق مع عياض وابن العربي وغيرهم من المحققين، بل العقل في هذا الموضوع ينفر كل النفور من صحة هذه الرواية" .

٦. ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُتَّكِّفُوا أَرْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾. {٥٣ الأحزاب} ..

عن السدي قال بلغنا أن طلحة بن عبيد الله قال أيجبنا محمد عن بنات عمنا ويتزوج نساءنا لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده فأنزلت الآية .

وأخرج ابن سعد عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم نزلت في طلحة بن عبيد الله لأنه قال إذا توفي رسول الله تزوجت عائشة .

وهذا كلام لا يقبل وطلحة بن عبيد من السابقين إلى الإيمان، ومن العشرة المشهود لهم بالجنة، ومعاذ الله أن يقول ما افتراه عليه الرواه، وما لا يقوله إلا عربى جاف مشرك، كما جاء في بعض الروايات الأخرى.

٧. «وَالَّذِي قَالَ لَوْلَا دَيْهٍ أَفَّ لَكُمْ أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلْتُ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَخِيثَانِ اللَّهَ وَيَلْتَكُ آمِنْ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ». {١٧ الأحقاف} .

أخرج ابن أبي حاتم عن السدى أنها نزلت في عبد الرحمن ابن أبي بكر قال لأبويه وكانا قد اسلما وأبى هو أن يسلم فكانا يأمرانه بالإسلام فيرد عليهما ويكذبهما ويقول فأين فلان وفلان يعنى مشايخ قريش ممن قد مات، ثم أسلم بعد فحسن إسلامه فنزلت توبته في هذه الآية «لِيُؤْفِقَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ» .

وأخرج ابن جرير عن طريق العوفى عن ابن عباس مثله .  
ونقول إن وقائع التاريخ وسياق الآية يكذبان هذا الزعم، وقد كذبت عائشة هذه الدعوى وقال الحافظ بن حجر ونفى عائشة أصح إسناداً وأولى بالقبول .

٨. وعمد هؤلاء إلى سورة من أجمل سور القرآن وأشدّها تأثيراً وتعبيراً عن إحدى الفترات النفسية التي تتعثر الأنبياء والمفكرين وأضفى الله تعالى على نبيه فيها من كرمه ورعايته ما يعيد إليه الأمل هي سورة الضحى.. فجعلوا سببها وجود جرو تحت سرير النبي: قال الحافظ ابن حجر "قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة لكن كونها سبب نزول الآية غريب، بل شاذ مردود بما فى الصحيح" وما فى الصحيح أفضل من هذا، ولكنه يعرض بطريقة تهبط بروعة السورة وعمق المناسبة ومناخها النفسى وما توحى به عن معاناه ..

٩. وفى تعليق نزول آية «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاتَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ». هذه الآية المعجزة التي تقدم أساساً لمحكمة عدل دولية، وتضع قواعد عملها، يقول بعض المفسرين إنها "نزلت فى قضية هى أن النبى ركب حماراً، ومر على ابن أبى، فبال الحمار فسد بن أبى أنفه، فقال ابن رواحة والله لبول حماره أطيب ريحا من مسكك فكان بين قوميهما ضرب بالأيدى والنعال والسعف" فانظر كيف هوى هؤلاء بهذه الآية من روعة التقنين المحكم إلى بول حمار .

وعندما جوبهوا بروايات متعددة عن أسباب نزول الآية الواحدة وما يؤدى إليه هذا من تضارب وتهاوى بعضها. عز عليهم - فيما يبدو - أن يضحوا ببعضها لأنهم نقله روايات وعبدة نصوص فحاولوا الجمع بينها على أساس "الاحتمال" وباب الاحتمال يمكن أن يحمل كل شىء. فعندما تعددت الروايات عن أسباب نزول الآية «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ». فقيل إنها نزلت فى أبى طالب عم النبى وحامى الدعوة الأول وقيل إنها نزلت فى أمه (أى أم الرسول). وقيل إنها نزلت فى رجل استغفر لأبويه المشركين - قال الحافظ ابن حجر "يحتمل أن يكون لنزول الآية سبب متقدم وهو أمر أبى طالب ومتأخر وهو أمر أمانة وقصة على" مع أن نص الآية لا



يتفق مع هذه الروايات لأنها أسست عدم الاستغفار على ظرف معين هو "من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم" وهذا لا يمكن القطع بأنه ينطبق على عم الرسول. أو أمه. أو الأبوين المشركين في الرواية الثالثة. ولو فرضنا أن النبي صلى الله عليه وسلم أنبئ عن مصير عمه أو أمه - فإن الآية لا تقتصر على النبي ولكنها تضم الذين آمنوا وهم لا يعلمون من هم أصحاب النار ومن هم أصحاب الجنة على وجه اليقين - وبالنسبة لأفراد بعينهم حتى يستغفروا لهم .

ومن هنا فإن محاولة تعيين فيمن نزلت هذه الآية يتنافى مع الآية نفسه والأصول الأولية للإسلام وهو يكشف كيف أن طاعة التعيين تنتهك هذه الأصول والسياق، حتى عندما تكون ما انتهت إليه متضاربة، وبالنسبة لعم النبي وأمه ..

ولو لم يستعبدهم الإسناد، لما ساورهم شك في أن الله تعالى الرحمن الرحيم لا يمكن أن يجعل من أصحاب الجحيم أم الرسول التي حملته ثم ماتت وهو طفل - أي قبل نبوته. أو عم الرسول الذي حماه من عدوان قريش، حتى وإن لم يؤمن .

وأسباب النزول بعد هذا كله ليست لها الأهمية المظنونة. اللهم إلا إذا كانت الآيات تتعلق بحالة خاصة أو شخص معين يذكر بالاسم أو تحدده القرائن القوية كقوله تعالى "ثاني اثنين إذ هما في الغار" إذ لم يكن مع النبي في الغار إلا أبو بكر أو "إن فرعون علا في الأرض" فيدل على أن الأرض هنا هي مصر لأن فرعون لقب خاص بملك مصر ولأن الحادث كله حدث في مصر. ولكن الأغلبية العظمى من الآيات القرآنية توجيهات وأحكام عامة تكون العبرة فيها بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقولون ففي هذه الحالة لا يكون لأسباب النزول أهمية إلا إشباع الفضول. بل يمكن أن يؤدي ذكر سبب النزول إلى جعل الحكم العام محل المساءلة وتحميل عموم اللفظ بخصوص السبب وهو أمر غير مطلوب فإن القرآن الكريم لم يضع أحكام الظهار واللعان والقذف والسرقة والزنا الخ... كأحكام لحالات فردية ولكنه وضعها كأحكام عامة ووضع القرآن نفسه أو تولت السنة النبوية تعيين الحدود والتفاصيل دون أن تشير إلى الحالة التي قيل إن الآيات نزلت فيها .

وظل تأثير "أسباب النزول" قوياً حتى لدى عدد كبير من خيرة الكتاب الإسلاميين وممن لا ينقصهم التجديد فقال بعضهم "إن أسباب النزول من الأحكام هي بمثابة المذكرة التفسيرية التي تلحق بالقوانين ويعاد إليها لفهم ملبسات صدور القانون". والأمر هنا يختلف تماماً وقياس غير دقيق ومعاملة للقرآن كما لو كان أحد المراجع القانونية العادية. وقد فات هؤلاء نقطة هامة أشار إليها الدكتور طه جابر العلواني<sup>(٤٤)</sup>. هي أن الرسول قام قبل وفاته توقيفاً بإعادة ترتيب آيات الكتاب الكريم وسوره، فقطعه بذلك عن أسباب النزول، وعن تاريخ النزول، وعن السياق الزمني وذلك لحكمة بالغة لعل منها أنه - عليه الصلاة والسلام - أراد أن ينبه العالمين كلهم من عصره إلى يوم القيامة إلى أن هذا الكتاب الكريم كتاب مطلق عام وشامل لكل البشرية ولكل ما تحتاجه البشرية، وهو قادر بإطلاقته هذه على استيعاب وتجاوز كل ما يأتي ويستجد من القضايا بعد عصر النبوة التي ختمت بكريم عطائه المتجدد وبقدرات الاستيعاب المودعة فيه .

فأسباب النزول، بناء على قيام الرسول بإعادة ترتيب آيات الكتاب توقيفاً فقدت الأهمية المظنونة، وكذلك ما يظن بعض الكتاب المحدثين من أن إعادة ترتيب السور تبعاً لوقت نزولها يلقي الضوء على

(٤٤) بحث الاجتهاد وهاجس التأصيل وتحدي التحرير "مجلة رؤى الحضارية بباريس" ص ١٠ السنة الرابعة العدد ١٧ - ٢٠٠٣ .

ملايسات النزول ويعين في فهمها فهذا كله قياس للقرآن على الكتب العادية. والقرآن ليس كتاباً عادياً. ومجرد معاملته ككتاب ككل الكتب يجعل الأحكام عن ذلك باطلة. وهذا هو النقص الرئيسي في كتابات المستشرقين لأن ألف باء القرآن أنه كتاب الله. وكل من لا يؤمن بذلك فلا يوثق بما ينتهي إليه لأن المقدمة بنيت باطلة وما بنى على الباطل باطل ...

وقد ادعو أن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب وهذا تلاعب بالألفاظ. ونحن نؤمن أن الله تعالى لا يصدر أحكاماً إلا لعلّة أو سبب أو حكم له من السلامة الموضوعية ما يجعله أصلاً لإصدار هذا الحكم ويكون علينا تعرف هذه الحكمة (أو السبب) وقد تستبعد التطورات الاقتصادية والاجتماعية والحكمة التي أنزلت من أجلها الأحكام وعندئذ فإن الحكم ينتفى تلقائياً لأن الحكم يسير مع العلة وجوداً وعدماً. وهذا هو ما ينطبق على أحكام الرق والغنائم والجزية وغيرها من الأوضاع الاجتماعية أو الاقتصادية التي جاوزها التطور وليس هناك غضاضة مطلقاً في القول إن العلة قد انتفت من هذا الحكم، فانتهى وجوبه لأن الله تعالى جعل الأحكام حلاً لعلل معينة فإذا جاوزها التطور انتفت الأحكام بالتبعية وقد أمرنا القرآن الكريم بأن نتدبر الآيات وأن لا نقف أمامها صمّاً عمياناً. وهذا هو ما فعله عمر بن الخطاب في اجتهاداته المشهورة .

أما قولهم إن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب فحسبك في فساده المثل الذي ضربوه هم أنفسهم ظناً منهم أنه يؤيدهم فقد قالوا أشكل على مروان بن الحكم معنى قوله تعالى ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وقال لئن كان كل امرئ فرح بما أوتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل لنعذب أجمعون حتى بين له ابن عباس أن الآية نزلت في أهل الكتاب. حين سألهم النبي عن شيء فكتموه وأخبروه بغيره وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك (أخرجه الشيخان) (٤٥) .

فتفسير الآية طبقاً لما أورده ابن عباس يقصرها على واقعة معينة، خاصة إذا أخذنا بما أوردته روايات أخرى عن أن ابن عباس قال في صدر كلامه "ما لكم ولهذه الآية..." ويفرغها من محتواها ومضمونها، بحيث يجعل الذين يفرحون بما أوتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا بمفازة من العذاب - أي على نقيض ما أرادت الآية. في حين أن الآية جزء ثمين من التوجيه الخلقى الدائم للقرآن. الذي ينطبق على كل من يفرح وأن يحمد بما لم يعمل ويظن أنه بمفازة من العذاب والآية تضم قسمين: الأول التنديد بالذين يفرحون بما أوتوا، والثاني التنديد بالذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا. ومفتاح التوجيه في القسم الأول من الآية أن القرآن الكريم يستخدم كلمة الفرح - في أغلب الحالات - بالمعنى السيء لها، أي الزهو والفخر والغرور، كما تدل على ذلك الآيات ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾. و﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾. و﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾. فالقرآن هنا يجمع ما بين الفرح والفخر، وهما قريبان في معظم الحالات. وقلما ينجو من ذلك إلا القلة القليلة التي أوتيت الحكمة والنصح أما عامة الناس فهم في حاجة إلى هذا التأديب والتوجيه من القرآن وإذا تركت الطبيعة البشرية وشأنها فإن الفرح يطغىها وقد صاغ القرآن كلمة "أوتوا" بصيغة المجهول يدل على أنهم ليسوا أصحاب الفضل فيما وصلوا إليه، أو على الأقل ليسوا الوحيدين، لأن الأمر كله لله، فضلاً عن القرآن بحب للمؤمن بصفة عامة أن لا تمتلكهم العواطف التي تنزل بالأقدام وتؤثر على الأحكام، وخلق بمن يمتلكه الفرح بما يصل إليه، أن يمتلكه الحزن بما يضيع منه والقرآن يوجه المؤمنين ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا

آتاكم». وأوضح الحديث النبوي الموقف النمطي إيجابا وسلبا للمؤمن فقال أن المؤمن إذا أصابته ضراء صبر، وإذا أصابته سراء شكر، ولم يقل فرح. وشتان بين الشكر والفرح .

والقسم الثانى من الآية وهو التنديد بالذين يحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا، وما أكثر هؤلاء الأذعياء الذين يسرقون عمل الآخرين، ويدعون لأنفسهم ما لم يفعلوا، ويسلطون الأضواء على أشخاصهم، وأشخاصهم هواء

ويوحى تعبير "بمفازة من العذاب" بأن الذين يحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا يرون مسلكهم هذا هينا بعيداً عن المساءلة كما تصور مروان فى حين أنه يتضمن بذرة أعظم الموبقات قاطبة إلا وهى الغرور والاستعلاء والإدعاء

فالآية تجمع جمعاً محكماً، يمثل الإعجاز القرآنى فى تركيز اللفظ وتكثيف المعنى والربط بين المشاعر التى تمت إلى أصل واحد. وقد أدت الآية ما أراده الله لها عندما أثارت مروان وأيقظته من غفلته، فجاء هذا التفسير الخاص ليجعل له مخرجا وليفوت ما أراده القرآن ...

والآية تقدم مثالا نمطيا لتفسير يقوم على فهم القرآن وتفسير آخر يقوم على روايات وكيف أن الأول يجعل من القرآن كتاب هداية مطلقة عامة، والثانى يجعل منه كتاب رواية مقيدة خاصة كما أن استشهاد الكتاب المعاصرين وأساتذة الجامعات بهذه الواقعة نقلاً عن الكتب القديمة وعرضها كما عرضها القدماء فى كتبهم المقررة لطلبة الجامعات دون أن يخطر لواحد منهم أن يعمل ذهنه وهم أساتذة يعلمون الجيل أو يوجهون الجماهير، يوضح جريرة العقلية النقلية ومدى شلها لبواعث التفكير حتى لدى أساتذة الجامعة فضلاً عن طلبتها أو عامة الناس .

من ذلك أيضاً ما نقلوه عن أبى يوسف فى قوله تعالى «ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا» إن ذلك فى الشرك "لأنهم كانوا حديثى عهد بكفر فيريد أحدهم التوحيد فيهم فيخطئ بالكفر فعفا لهم عن ذلك كما عفا لهم عن النطق بالكفر عند الإكراه قال فهذا على الشرك ليس على الأيمان فى الطلاق والعتاق والبيع والشراء (حيث) لم تكن الأيمان والعتاق زمانهم"<sup>(٤٦)</sup>. فهل فات هذا العالم العلامة - إمام الحنفية وهم سادة القياس أن ما يسرى على هذا الأمر الخطير أمر الأيمان والشرك يسرى على ما هو أقل.. أو كيف غفل عن أن الآية مدنية واحتمالات حدائة العهد بالكفر هى آخر ما يمكن أن يحتج به فى الآيات المدنية وهذا القول المنقول عن أبى يوسف وما رتبوه عليه من أحكام يذهب بهذه الآية الجميلة والابتهال الذى يصدر من أعماق قلوب كل المؤمنين كما يفتات على السياق المحكم لها وما يضعه من مبدأ أصولى عام .

هذه أمثلة عارضة فحسب تبين أن تفسير القرآن طبقاً لأسباب النزول يمكن أن يغير المعنى أو يذهب به فإذا كان المعول والعمل هو بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فإن أسباب النزول تكون فضولاً ولا معنى لها وككل فضول فإنها تكون على حساب الهدف المطلوب على وجه التحديد بحيث تميغه، وإذا كانت أسباب النزول تجعل العبرة بخصوص السبب وهو فى حقيقة الحال ما يوحى به أو يؤدى إليه ذكر السبب كما يتضح ذلك من أن ابن عباس عندما قدم سبب نزول "لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا.. الآية" قال أولاً "ما لكم ولهذه الآية" إنما دعا النبى يهود فسألهم الخ... نقول إذا كانت أسباب النزول ستقتصر العمل على "خصوص السبب" فإنها ستذهب بالقرآن ككتاب هداية للناس كافة إلى يوم يبعثون وتجعله كتاب قصص وحكايات .

(٤٦) أصول الفقه للشيخ الخضرى ص ٢١١ .

ومما يوضح لنا شيئاً من هذا الإسفاف أن المفسرين ارتضوا قول الصحابي في الحديث عن أسباب النزول واعتبروا أن قول الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا.. حديثاً مسنداً، كما أنهم اعتبروا المرسل من كلام التابعين مرفوعاً. وقد يقبل إذا صح المسند إليه وكان من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير أو اعتضد بمرسل آخر وبهذا انفتح الباب أمام روايات لا تمثل إلا نقولاً من الكتب السابقة اعتقدوا صحتها باعتبارها من علم أهل الكتاب، وهناك رخصة بروايتها، ومعظم الذين رووا عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير مطعون فيهم، فضلاً عن أن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير أنفسهم لم يسلموا من المآخذ التي تلقى ظلماً من الشبهة على روايتهم .

\* \* \*

على أن أسوأ ما وقع فيه المفسرون القدامى هو القول بالنسخ واعتبارهم هذا النسخ أهم علوم القرآن المدعاة بحيث كانوا يقولون لمن جهله "هلكت وأهلكت!" .

وما من مفارقة تثير الذهول كهذه، فبدعوى خدمة القرآن أعْمَل هؤلاء المفسرون سكين النسخ قطعاً وبتراً في مئات الآيات.. فهل يختلف عملهم هذا عن عمل "جزار اليهود بالبقر.." كما رأى شوقي "برأها من العيوب.. وعقر!!" ..

لا أدري كيف وانتت هؤلاء المفسرين الجرأة على هذا الجرم العظيم.. وأغرب من ذلك وأعجب أنهم رأوا في المفسر الوحيد الذي أنكر النسخ – أبو مسلم الأصفهاني – أنه "جاهل بهذه الشريعة جهلاً فظيماً كما قال الشوكاني في إرشاد الفحول" أو أن قوله ضعيف مردود مردول" كما قال ابن كثير .

وجاء في "فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت" وأجمع أهل الشرائع على وقوعه سمعاً خلافاً لأبي مسلم الأصفهاني الجاحظ من شياطين المعتزلة وهو لا يصح ممن يدعى إسلامه إلا بتأويل .

وقال السيوطي "والناس في هذا بين طرفي نقيض فمن قائل لا يقبل في النسخ أخبار الأحاد العدول ومن متساهل يكتب في بقول مفسر أو مجتهد والصواب خلافهما" .

**فأنظر كيف أصبح النسخ لعبة "المتساهلين" ..**

ودفع النسخ أحد الشيوخ المعاصرين لأن يقول "فالنسخ يتمشى مع العقل البشري وأنه لا معارضة بينهما أصلاً فإن الشرائع السماوية ما هي إلا كالقوانين التي يضعها الناس لأنفسهم لتحقيق المصلحة العامة والخاصة بالناس وأن هذه القوانين تعدل وتغير حسب مقتضيات الزم من التقدم البشري" وقد جاءت هذه الفقرة في كتاب له صدر سنة ١٩٧٨ وأعادها بعلاقتها في كتاب آخر له سنة ١٩٨٠ (٤٧) .

هل قوانين الله من القوانين التي يضمها الناس لأنفسهم وقيم الحاجة أذن إلى كتاب الله !! .

وجاء في كلام أحد المدافعين – أو قل المتشججين – عن النسخ عند تفسيره للآية ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ .

**"ووجه الدلالة أن الآية صريحة في جواز النسخ على الله تعالى" .**

والعجب أن الذين يصدر عن هذه التعبيرات الفجة يعيرون من ينكر النسخ بإساءة الأدب! لأنه – كما اتهموا أبا مسلم "أساء الأدب مع الله في تحمسه لرأى قائم على تحاشي لفظ اختاره جلت قدرته ودافع عن

(٤٧) الدكتور شعبان محمد إسماعيل "مع القرآن" ص ٥١٠ (١٩٧٨) و "المدخل لدراسة القرآن" ص ٤٦٠ (١٩٨٠) .

معناه بمثل قوله "ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها.. وهل بعد اختيار الله اختيار وهل بعد تعبير القرآن تعبير ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾. وهذا معنى ذكره بالنص تقريبا عدد من المناصرين لقضية النسخ من المعاصرين الذين ينقلون بعضهم عن بعض، ويتلقف المتأخر ما ذكره المتقدم .

ويمائل ذلك ادعاء بعض العلماء المعاصرين " إن أعداء الإسلام من ملاحدة ومبشرين ومستشرقين اتخذوا من النسخ في الشريعة الإسلامية أسلحة مسمومة طعنوا بها في صدر الدين الحنيف ونالوا من قدسية القرآن الكريم وقد أحكموا شرك شبهاتهم واجتهدوا في ترويح مطاعنهم حتى سحروا عقول بعض المنتسبين إلى العلم والدين من المسلمين فجددوا وقوع النسخ وهو واقع وأمعنوا في هذا الجحود الذي ركبوا له أخشن المراكب من تمحلات ساقطة وتأويلات غير سائغة" (٤٨) .

فهل الذين يقولون إن القرآن محكم هم الذين ينالون من "قدسية القرآن" أو هم الذين يعطلون المئات من آياته المثبتة وأوامره ونواهيه بدعاوى ثبت زيفها حتى من أنصار النسخ أنفسهم؟؟.

وأغرب من هذا وأعجب أن يجيزوا للسنة أن تنسخ القرآن! بحجة أنها وحى! وهنا يصل الإغراض أو الغفلة بصاحبها إلى منتهاه، وعندما يرفض الشافعي ذلك، فإن الفقهاء المتأخرين أنكروا عليه هذا ورأوا فيه سقطة كبيرة فقال الكيا الهراسي "هفوات الكبار على أقدارهم ومن عد خطؤه عظم قدره" وكان عبد الجبار بن احمد كثيراً ما ينظر في مذهب الشافعي في الأصول والفروع فلما وصل إلى هذا الموضع قال "هذا الرجل كبير ولكن الحق أكبر منه!" وتطلب الأمر أن يتحايل أنصار الشافعي للشافعي وأن يبحثوا عن محامل يحمل عليها كلامه حتى يمكن أن يتفق مع التيار الغالب الذي كان يجيز نسخ السنة للقرآن متعللين بتأويلات متعسفة .

وذهب المفسرون مذاهب شتى في عدد الآيات المنسوخة فذهب ابن الجوزي أنها {٢٤٧} آية. وذهب أبو عبد الله بن حزم "وهو غير أبو محمد بن حزم الأندلسي الظاهري المشهور" إلى أنها {٢٠٨} آية. وعند أبي القاسم هبة الله بن سلامة {٢١٢} آية. وعند أبي جعفر النحاس {١٣٤} آية. وعند عبد القادر البغدادي {٦٦} آية .

وقد عالجتنا موضوع النسخ في سبعين صفحة من كتابنا "الأصلان العظيمان الكتاب والسنة" وأثبتنا أن القرآن لا يستخدم كلمة آية كما نستخدمها نحن بمعنى "نص" ولكن بمعنى قرينة أو معجزة أو دلالة وأوردنا كل المواضع التي جاءت فيها كلمة آية في القرآن "٨٢ موضعا" وكلها بلا استثناء بهذا المعنى، ومن هنا فإن بناءهم النسخ على ما جاء في سورة البقرة ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها الخ...﴾ لا يجوز الاستدلال به فضلاً عن أن القرآن استخدم كلمة نسخ بمعنى إثبات أو كتابة فالدعوى ساقطة تماماً ..

\* \* \*

ولا تقف جريرة دعوى النسخ على أنها تنتسخ كل آيات الحكمة والسماحة والحرية الخ... بل إنها فتحت باباً نعوذ بالله منه، ولا يخالجتنا أنه كله من كيد شياطين الأئس من اليهود أو أعداء الإسلام وأن كل ما تضمنه من إسناد يصل إلى عائشة وعمر بن الخطاب هو محض تلفيق وكان يجب أن لا تدون، وإذا دونت فعلى أساس أنها أمثلة للدرجة الوقاحة التي وصل إليها الوضع .

(٤٨) مناهل العرفان للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ج ٢ ص ٧٠ .

## ولكى يأخذ القارئ فكرة عنها نورد بعض نماذج منها :

١. قالت عائشة كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات فنسخن بخمس معلومات فتوفى رسول الله وهن مما يقرأ من القرآن رواه الشيخان قال السيوطي "وقد تكلموا في قولها وهن مما يقرأ من القرآن. فإن ظاهره بقاء التلاوة وليس كذلك وأجيب بأن المراد قارب الوفاة أو أن التلاوة نسخت أيضا ولم يبلغ ذلك كل الناس إلا بعد وفاة رسول الله فتوفى وبعض الناس يقرؤها وقال أبو موسى الأشعري نزلت ثم رفعت وقال مكي هذا المثال فيه المنسوخ غير متلو والناسخ أيضا غير متلو ولا أعلم له نظيرا .
٢. ورووا عن ابن عمر أنه قال لا يقولن أحدكم أخذت القرآن كله وما يدريه ما كله قد ذهب منه قرآن كثير ولكن ليقبل قد أخذت منه ما ظهر
٣. وعن عائشة قالت كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمن النبي مائتي آية فلما كتب عثمان المصاحف لم نقدر منها إلا ما هو الآن .
٤. وعن زر بن حبیش قال لى أبى بن كعب كم تعد سورة الأحزاب قلت اثنتين وسبعين آية أو ثلاثة وسبعين آية قال إن كانت لتعدل سورة البقرة وإن كنا لنقرأ فيها آية الرجم قلت وما آية الرجم قال إذا زنا الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم .
٥. وعن حميدة بنت أبى يونس قالت قرأ علىّ أبى وهو ابن ثمانين سنة فى مصحف عائشة أن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما وعلى الذين يصلون الصفوف الأولى قالت قبل أن يغير عثمان المصاحف .
٦. وعن عطاء بن يسار عن أبى واقد الليثى قال كان رسول الله إذا أوحى إليه أتيناها فعملنا مما أوحى إليه قال فجئت ذات يوم فقال أن الله يقول إنا أنزلنا المال لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ولو أن لابن آدم واديا من ذهب لأحب أن يكون إليه الثانى ولو كان إليه الثانى لأحب أن يكون الثالث ولا يملأ جوف بن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب .
٧. وأخرج الحاكم فى المستدرک عن أبى بن كعب قال: قال رسول الله أن الله يأمرنى أن أقرأ عليك القرآن فقرأ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ومن بقيتها لو أن ابن آدم سأل واديا من مال فأعطيه سأل ثانيا وأن سأل ثانيا فأعطيه سأل ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب وأن ذات الدين عند الله الحنيفية غير اليهودية ولا النصرانية ومن يعمل فلن يكفره .
٨. قال أبو عبيد حدثنا حجاج عن حماد بن سلمة عن على بن زيد عن أبى حرب بن أبى الأسود عن أبى موسى الأشعري قال نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظت منها أن الله سيؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى واديا ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب .
٩. وأخرج بن أبى حاتم عن أبى موسى الأشعري قال كنا نقرأ سورة نشبهها بإحدى المسبحات ما نسيناها غير أنى حفظت منها يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا مالا تفعلون فتكتب شهادة فى أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة .

١٠. قال أبو عبيد حدثنا حجاج عن سعيد عن الحكم بن عتيبة عن عدى بن عدى قال عمر كنا نقرأ لا ترغبوا عن آباءكم ثم قال لزيد ابن ثابت كذلك قال نعم .

١١. حدثنا ابن أبي مريم عن نافع بن عمر الجمحي حدثني بن أبي مليكة عن المسور بن مخرمة قال: قال عمر لعبد الرحمن بن عوف ألم تجد فيما أنزل علينا أن جاهدوا كما جاهدتم أول مرة فأنا لا نجدها قال سقطت فيما أسقط من القرآن .

١٢. حدثنا ابن أبي مريم عن ابن لهيعة عن يزيد بن عمرو المغافري عن أبي سفيان الكلاعي أن مسلمة بن مخلد الأنصاري قال لهم ذات يوم أخبروني بأيتين في القرآن لم يكتب في المصحف فلم يخبروه وعندهم أبو الكنود سعد بن مالك فقال ابن مسلمة إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ألا ابشروا أنتم المصلحون والذين آووهم ونصروهم وجادلوا عنهم القوم الذين غضب الله عليهم أولئك لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون .

١٣. وأخرج الطبراني في الكبير عن ابن عمر قال قرأ رجلان سورة اقرأهما رسول الله فكانا يقرآن بها فقاما ذات ليلة يصليان فلم يقدرأ منها على حرف فأصبحا غاديين على رسول الله فذكرا ذلك له فقال أنها مما نسخ فألهوا عنها .

١٤. وفي الصحيحين عن أنس في قصة أصحاب بئر معونة الذين قتلوا وقتلوا يدعو على قاتليهم قال أنس نزل فيهم قرآن قرأناه حتى رفع أن بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا .

١٥. وفي المستدرک عن حذيفة قال ما تقرأون ربعها يعني براءة .

١٦. ورووا عن عبد الله بن زهير الغافقي أنه قال لعبد الملك بن مروان عن علي بن أبي طالب " لقد علمني سورتين علمهما إياه رسول الله ما علمتهما أنت ولا أبوك اللهم أنا نستعينك ونثنى عليك ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجرك اللهم إياك نعبد ولك نصلى ونسجد وإليك نسعى ونحفد نرجو رحمتك ونخشى عذابك بالكفار .

١٧. وأخرج البيهقي عن طريق سفيان الثوري عن جريح عن عطاء عن عبيد بن عمير أن عمر بن الخطاب قنت بعد الركوع فقال بسم الله الرحمن الرحيم اللهم نستعينك ونستغفرك ونثنى عليك ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجرك اللهم إياك نعبد ولك نصلى ونسجد وإليك نسعى ونحفد ونرجو رحمتك ونخشى نعمتك إن عذابك بالكافرين .

وتطلق بعض المصادر على هذا النص سورتي الحفد والخلع وتزعم أنهما كانا في مصحف بعض

الصحابة .

**نقول للذين جاءوا بهذه المؤتفكات تبت أيديكم! ألم تسمعوا قول الله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فكيف تتأتى هذه التخرصات مع حفظ الله؟ إنكم بأكاذيبكم تلك قدمتم لأعداء الإسلام أقصى الأسلحة للطعن في القرآن وفي الإسلام وتحسبون أنكم تحسنون صنعا !!! .**

\* \* \*

كيف إذن جازت دعوى النسخ على الأئمة الأعلام ؟ جازت لأنهم تصوروا أنه لا يصح أن يتضمن القرآن أحكاماً متفاوتة في الحالة الواحدة. لأنهم يريدون أن يأخذوا الناس بحكم واحد، ولو استطاعوا أن يضعوهم على مثل حد السيف لفعلوا، ولكن القرآن لا يقبل هذا وهو لم ينزل للعرب وحدهم وإنما نزل للبشرية جميعاً، وهو لم ينزل لعصر واحد، ولكن نزل لكل العصور. فكان لا بد أن يوجد التفاوت والتعدد، والبدائل فما يصلح لشعب وعهد قد لا يصلح لشعب وعهد آخر والمسلم ما دام يأخذ بآية فإنه يأوى إلى ركن حصين ويمسك بدليل مكين أما الرد عليه بالنسخ فمردود، لأن القرآن لا يضرب بعضه بعضاً، فالقرآن كما قال الرسول "القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على أحسن وجوهه" وكما قال الرسول في حديث آخر "أن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً. فما عرفتم فاعملوا به، وما تشابهه فآمنوا به".

وقد نزلت آيات تحريم الخمر بتدرج لأن العرب ما كان يمكن أن يقلعوا مرة واحدة عن الخمر ولم تنسخ الآية الأخيرة الآيات الأولى لأن من الممكن أن تتكرر التجربة فيطبق التدرج لا التحريم، وقد حدث هذا بالفعل عندما أراد القيصر الوثني فلاديمير قيصر روسيا سنة ٩٨٧ أن يختار لشعبه ديناً سماوياً فاستقدم ثلاثة من علماء الإسلام والمسيحية واليهودية، وكان ميالاً للإسلام ولكن ما أن قيل له إن الإسلام يحرم الخمر حتى قال "أسف إن شعبي لا يطيق الاستغناء عن الفودكا" فلو طبق في روسيا ما طبق في العرب، بمعنى أن لا يصدم الروس بالتحريم، وإنما يستخدم التدرج حتى يتأصل الإسلام في قلوبهم ويمكن التحريم لكسب الإسلام شعب روسيا بأسره ولتغير التاريخ<sup>(٤٩)</sup>.

\* \* \*

من هذا العرض لمعالجة المفسرين يتضح لنا أن اللغويين منهم افتاتوا على لغة القرآن وأسلوبه، وأسأعوا فهمه، وأرادوا تحكيم صناعتهم وما وضعوه من قواعد، وأن الأخباريين سودوا صفحات كتبهم بالإسرائيليات وبكل ما جاء من "لغو" في القرآن وأعملوا سكين النسخ دون أن تأخذهم رافة ..

وبمثل هذا الخطأ في المعالجة أنهم عمدوا إلى تقطيع أوصال القرآن كل آية على حدة في حين أن القرآن لا يحدث أثره أو يحقق رسالته إلا نتيجة لتلاحم آياته بعضها ببعض، وتقطيع أوصال القرآن كان يعنى قتله، ثم العكوف على دراسة كل شلو من أشلائه.. وهو ما يمكن أن يقدم لنا مادة أو معلومة، ولكنه لا يقدم حياة، ولا يثير عاطفة ولا يبعث على عمل، ولا يؤدي إلى هداية

...

وهذا هو المضمون الحقيقي لتفريغ القرآن من ثوريته ..

وعندما يفكر الإنسان ملياً فيما فعله المفسرون وما عكفوا عليه القرون الطوال فإن الحيرة تتملكه كيف هان عليهم القرآن حتى يقحموا هذه النقول الركيكة والأقوال السقيمة والمزاعم المسفة.. وكيف لم تتوقف أيديهم وهي تعمل سكين النسخ بترأ وتطبيعاً، وكيف يتفق ذلك مع ما روى عن هؤلاء المفسرين من تقوى وإخلاص فإذا لم يكن قد تحرك في نفوسهم أو حاك في قلوبهم شئ فإن هذا يكون دليلاً فذاً على أن قوة روح

(٤٩) نوجه الأنتظار إلى أن موضوع النسخ سيعالج بالتفصيل في كتاب مستقل تكون مادته الرئيسية ما جاء في كتابنا الأعلان العظيمان: الكتاب والسنة".



عصرهم المغلق جعلت هؤلاء الأسلاف يرتكبون جريمة شنعاء فى حق القرآن وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وقدموا شواهد لأعداء القرآن وهم يحسبون أنهم يدافعون عن القرآن .

(٥)

### قيمة التفاسير السلفية

رأينا أن كتب التفسير بالمأثور قد حشيت بالإسرائيليات والروايات المدسوسة حتى التبس الصحيح بالعليل على حد تعبير السيوطى.. ولما كان هذا التفسير هو أقرب إلى قلوب الناس على ما فيه من هذه المؤتفكات وأكثرها شهرة فقد أصبح ذلك مشكلة، وقد قرأنا رأيا فى هذه النقطة للأستاذ الشيخ عبد المنعم النمر عندما كان بصدد الحديث عن تفسير الطبرى الذى عد أفضل التفاسير وأثرها لدى الناس وقيل عنه إنه لو سافر الإنسان إلى الصين لطلبه لما كان كثيرا، فبعد أن أشار إلى أن عصر الطبرى وهو عصر الاعتماد على الرواية وتهيب التفسير بالرأى فَتَحَ الباب واسعا لدخول حشد هائل من الروايات غير الصحيحة - قال :

"وجاء الطبرى فحشدها فى تفسيره وكنا نحب ألا تتقل إلى ما بعد عصره وألا تحويها الكتب حتى تموت بموت من يحملونها ولو تدريجيا ولكن وجودها مع ذلك يعطينا جانبا من صورة الجو الفكرى الذى راجت فيه رواج جعل الطبرى وأمثاله يعنون بتدوينها ..

ولقد كان الطبرى يورد هذه الروايات وهو عالم بما فيها من تناقض أو كذب أو ضعف ثم ينقدها أحيانا ويأتى أيضا بالكثير منها ويتركها بلا نقد .

وبعض النقاد يميلون إلى تبرئة ساحة أبى جعفر من النقد لسياقه هذه الروايات دون نقدها. قائلين إنه ذكر لك السند وعليك أنت أن تبحث عن صحته أو كذبه أو ضعفه. راوين العبارة المشهورة بين علماء الحديث (من أسند لك فقد حمّلك) يعنون من ذكر لك سند الرواية فقد برئت ذمته وحملك أنت مسئولية البحث عن صحته .

ومع أن هذا الكلام صحيح فى حد ذاته وربما كان محتملا للخاصة أو خاصتهم، إلا أنه يحمل القراء أمانة فوق طاقتهم. فليس كل قارئ عارفا بالرجال أو بأساليب النقد حتى يستطيع التمييز بين المقبول وغير المقبول وليس كل قارئ عنده الرغبة أو الأمانة التى تحمله على التوقف حتى يتبين .

على أن هذا إن كان ممكنا فى زمن كثرت فيه الكتب المطبوعة المتداولة التى عنيت بالرواية ونقدهم وبيان غثهم من سمينهم فإنه لم يكن متيسرا من قبل شيوع هذه الكتب ومن أجل هذا كان الارتفاع بهذه الروايات التى كانت متداولة فى أيامه - ومعروف بين العلماء أنها كانت بضاعة القصاص للتكسب والرواج عند العامة - أقول كان رفعها إلى مقام التدوين ووضعها بجانب كلام الله على أنها تفسير له مما ساعد كثيرا على إشاعة الخرافات والأضاليل فى نفوس المسلمين ملصقة بتفسير كلام الله فقد جاء بعض المفسرين بعد الطبرى ونقلوا هذه الروايات فى كتبهم فأتاحوا لها جوا أوسع من الذبوع والانتشار والسيطرة على الأفكار .

بل إنى أقول أكثر من هذا فيما يتصل بالروايات التى نقدها وهى أمنية تمنيت أن لو كانت قد تحققت فى ذلك الزمن المبكر فيمن وضع التفسير. كنت أتمنى أن لو اقتصر الطبرى وأمثاله على الروايات الصحيحة فى تفاسيرهم وجردوها من الروايات الباطلة التى كروا عليها بالنقد. لأنها كانت ستموت فى زمنها أما بعد أن دونت ووضعت بجانب التفسير فقد فتحوا الباب للقصاص وأصحاب الهوى أن يطلعوا عليها ويستندوا إليها

فى حكاياتهم للعوام لجذب انتباههم وكسب إعجابهم. وابتزاز أموالهم كما نرى الكثير فى أيامنا ممن يدورون فى الأرياف وبين العوام أو متخلفى الثقافة يتحدثون فى التفسير أو الدين ويستولون على ألبابهم بهذه الروايات الخيالية الخرافية دون خوف من الله ولا حرج من أصحاب العقل والفهم. ولا مراعاة لما يجب أن يكون عليه تكوين الأمة العقلى والفكرى .

ولقد روى لنا كيف أن الخرافيين ممن كانوا يعتمدون على هذه الروايات كانوا يستولون على قلوب العامة ويهيجونهم ضد العلماء الذين ينكرونها حتى يوجعونهم ضربا وإهانة ومع ذلك عنى الطبرى بتدوينها . إننا نجنى من هذا وذاك الآن الكثير من المر. والكثير من التهجم على الإسلام وكتابه.. ولقد كونت هذه الروايات عقلا خرافيا فى أوساط المسلمين نحتاج إلى كثير من الجهد والوقت للقضاء عليه وبعض أعداء الدين من المسلمين أنفسهم مع الأسف ممن تمذهبوا بمذاهب وافدة يتخذون من هذا تكاة لرفض الدين كلية مع أنهم مبطلون إلا أنهم أصحاب هوى. يستغلون الضعف عند عدوهم لينقضوا عليه، ونحتاج نحن إلى دفاع وإلى جهد كبيرين لتطهير عقول الناس من هذه الخرافات والروايات الإسرائيلية المضللة .

أفما كان من الأولى لهؤلاء السلف الطيبين أن يكونوا بعيدى النظر، فيريحوا أنفسهم والأجيال التى بعدهم من هذه الخرافات والأضاليل ويذكروا لنا ما صح فى سنده وما رأوه بعقولهم الناضجة؟.. نعم كان من الأولى ولكن ماذا نفعل الآن وهذا هو الذى كان ولعل لهم عذرا ؟ ..

إن هذا يحملنا الآن مسئولية ضخمة وإن لم تكن عسيرة أو صعبة ولكنها تحتاج إلى همة وغيره وجهد يتكاتف فيه العلماء مع الحكومات التى تعنى بهذه الناحية .

هذه المسئولية هى تجريد هذا التفسير وأمثاله من كل رواية غير صحيحة. سواء أكانت إسرائيلية أو موضوعة.. وإخراج الكتاب بعد ذلك للناس بريئا من هذه العيوب.. ثم جمع كل النسخ الأصلية من الأسواق ووضع ما أمكن منها فى المكتبات العامة ويحظر الإطلاع عليها لغير الخاصة كما يحظر نقل ما لم ينقل منها فى التجريد .

بذلك نقضى على هذه الخرافات والإسرائيليات من العقول ولا بد بجوار ذلك من جهد آخر هو عدم السماح بطبع أى كتاب آخر فيه شىء من هذه الأضاليل<sup>(٥٠)</sup>. فقد تسربت من كتب التفسير وكتب التاريخ كذلك إلى كتب أخرى بعناوين أخرى وتحتاج إلى المتابعة المستمرة وإذا كانت هناك رقابة على المطابع فى الأمور السياسية، فمن الواجب أن تفرض هذه الرقابة فى مثل هذه الأمور التى تتدخل قويا فى تكوين عقلية المسلمين وإلى أجيال.. وتفسد تصوراتهم عن القرآن والحياة، وهذا شىء ليس بالقليل. بل هو من الخطورة بمكان كما سبق أن أشرنا إليه .

ولا أظن أن فىنا من يعارض مثل هذا المشروع بحجة صيانة التراث أو بحجج أخرى. فالتراث سيظل لمن يريد الاطلاع عليه على أننا سوف نقدم التراث الفعلى حقيقة ولا نحرم المطلعين من شىء له فائدة

---

(٥٠) مع اتفاقنا فى الفكرة العامة التى ذهب إليها الكاتب ورغبته فى التجريد، إلا أننا لا نتفق مع إشارته إلى الحظر وتقييد الطباعة لما قد يستتبعه من اعتماد على تقنين مقيد لحرية الفكر. إن إظهار الحق هو أكثر الأساليب فعالية فى تفنيد الباطل. وستموت هذه الأباطيل من تلقاء نفسها مع ارتفاع المستوى الفكرى للمسلمين لأنها إنما تعيش على مناخ الجهالة والتخلف .

بل نحول بينهم وبين سموم هذه الخرافات ونقيهم أضاليلها ونشجع المطلعين على الاطلاع ونقدم الكتاب في حجم أقل كثيراً من حجمه الحالي وبثمن أقل من ثمنه مما يغري بالشراء والاطلاع... (\*)

أوردنا هذه الفقرات علي طولها لأنها تعرض القضية أفضل عرض ولما تضمنته من إشارة ذات مغزى بعيد . فقد تمنى الكاتب عندما كان يكتب هذه الكلمات عام ١٩٦٩ . أن نجد التفسير من تلك الحواشي الخرافية ولكن بعد أكثر من عشرة أعوام من ذلك التاريخ أن عددا من دور النشر خاصة في بيروت يشرف عليها تجار لا يفقهون من شئون الدين شيئاً ولا يفرقون بين التفسير وألف ليلة وليلة . ولا وقت لديهم لتفتيح أو حتى مراجعة.. وهدفهم الوحيد هو الكسب السريع .. قد سطوا على مجلدات التراث وصوروها كما هي بعجزها وبجرها وأخطائها المطبعية "بالأوفست" ونشروها في الأسواق . وكأن هذا لم يكن كافياً، إذ ظهرت في الجامعات المصرية ناشئة متحمسة للإسلام عجزت قياداتها عن أن تقدم لها الرؤية الإسلامية التي يمكن أن تتعامل بها مع هذا العصر فتملكتها نزعة نكوصية وعادوا للتراث وفعلوا كما فعل ناشرو بيروت مع الفارق الكبير في المقصد.. وبهذا عادت مرة أخرى تلك المؤتفكات لتعيش في هذا العصر وتعشش في أذهان الناشئة المثقفة وتكون عقبة جديدة أمام التفكير الإسلامي الموضوعي الذي يقوم علي أعمال الفكر والذهن وليس مجرد النقل والرواية .

\* \* \*

على أن الشيخ المجتهد محمود شلتوت لم ير تجريد التفسير التقليدية من خرافاتها، لأنه انتقد طريقة المفسرين القدامى فقال: "لتفسير القرآن الكريم طريقتان إحداها أن يسير المفسر بتفسيره مع آيات الذكر الحكيم وسوره علي الترتيب القرآني المعروف فيفسر المفردات ويربط بين الآيات ويبين المعاني التي تدل عليها، وهذه هي الطريقة التي عهداها الناس منذ كان التفسير وكان المفسرون، ومن مظاهرها اختلاف طرق التفسير باختلاف روح المفسرين فمن غلبت عليه روح العلوم البلاغية عني في تفسيره بالتطبيق علي قواعدها، ومن غلبت عليه روح النحو والصرف عني في تفسيره بإعراب الكلمات وتصريفها، ومن غلبت عليه الروح التاريخية عني بالقصص والأخبار وربما أسرف فأدخل في التفسير كثيرا من الإسرائيليات دون تحقيق ولا تمحيص، ومن غلبت الروح الفلسفية حبيب إليه البحث في الكائنات وعني في تفسيره بهذا الجانب، ومن غلبت عليه روح الجدل الكلامي أو الفقهي تأثر تفسيره بما غلب عليه وهكذا .

واقترح الشيخ شلتوت طريقة جديدة فقال :

أما الطريقة الثانية فهي أن يعمد المفسر أولا إلي جميع الآيات التي وردت في موضوع واحد ثم يضعها أمامه كمعادن يحللها ويفقه معانيها ويعرف النسبة بين بعضها وبعض فيتجلى له الحكم ويتبين المرمي الذي ترمي إليه الآيات الواردة في الموضوع .

وبذلك يضع كل شئ موضعه ولا يكره آية علي معني لا تريده كما لا يغفل عن مزية من مزايا الصوغ الإلهي الحكيم وهذه الطريقة في نظرنا هي الطريقة المثلي وخصوصا في التفسير الذي يراد إذاعته علي الناس بقصد إرشادهم إلي ما تضمنه القرآن من أنواع الهداية وإلي أن موضوعات القرآن الكريم ليست نظريات بحتة يشتغل بها الناس من غير أن يكون لها مثل واقعية فيما يحدث للأفراد والجماعات من أفضيه ويصل بحياتهم من شئون .

وهي تمكن المفسر من علاج موضوعات عملية كثيرة كل موضوع منها قائم بنفسه لا يتصل بسواه

(\*) الشيخ عبد المنعم النمر . التفسير والمفسرون مجلة العربي العدد ١٢١ أكتوبر ١٩٦٩ ص ٢٠-٢٤ .

ولا يختلط بغيره فيعرف الناس موضوعات القرآن بعناوينها الواضحة ويعرفون مقدار صلة القرآن بحياتهم الواقعية: القرآن وأصول التشريع، القرآن والعلم، القرآن والأسرة، القرآن وآداب الاجتماع، القرآن والسياحة، القرآن والاقتصاد، القرآن والتضحية، القرآن والبر، وهكذا.. إلي آخر ما يمكن عرضه من موضوعات القرآن التي تعتبر بحق عمدا قوية في بناء الأمة ونهضتها وبهذا يطمئن الناس بطريقة عملية واضحة إلي أن القرآن ليس بعيدا عن حياتهم ولا عن نواحي تفكيرهم ولا عن مشكلاتهم التي تعرض لهم في كل حين يطمئنون إلي أن القرآن ليس كتابا روحيا فقط مهمته أن يشرح طرق القربى إلي الله من غير أن يعني بشيء من وسائل الحياة<sup>(51)</sup>.

ورأينا الخاص أن التفاسير التقليدية ليست ضرورية، بل إنها تسيء أكثر مما تفيد إن القرآن آية في النسق والصيغة والمضمون إنه «سكر معقود» وسيبكية محكمة لا شائبة فيها وإعجاز فني وأدبي. والإنسان لا يلتبس للإعجاز تفسيراً. إذ لو حدث لما كان إعجازاً. وشأن القرآن في هذا هو الشأن في الجمال يفتن به الإنسان بمجرد أن يراه، ولا يحتاج إلي تفسيرات، لأنه يؤخذ به ويخشع له ويستزيد منه.. وبقدر ما يحدث هذا، بقدر ما يتحقق الأثر المطلوب. فإذا ما يدخل بين القارئ وهذه العاطفة فإنه يفسده لأنه يميعة ويذهب بترابطه وإحكامه ويفرض عليه فهم أصحابه وهو دون مستوى القرآن ويستدل عليه بشعر زيد أو عمرو. وربما مجاهيل من الأعراب أو أحاديث مرسله أو منكرة فضلاً عن أن الفهم والمناخ والعصر الذي وضعت فيه معظم هذه التفاسير كان فهماً سقيماً ومناخاً وبيلاً أثر على "نفسية" وذهنية أعظم الأئمة الذين عاشوا فيه كالغزالي والطبري وابن تيمية فهؤلاء الأئمة الذين لا يشك في ذكائهم وفهمهم وإخلاصهم ومعرفتهم الموسوعية لم يستطيعوا أبداً التخلص من روح العصر وأملى عليهم أحكاماً لا يمكن تبريرها أو الاعتذار عنها إلا بأنه كان من العسير إن لم يكن من المستحيل أن يتخلص الإنسان من محوطاته ومن المناخ الذي يعيش فيه .

ومطالعة الأجيال المعاصرة لهذه التفاسير يسيء إساءة مضاعفة إساءة تتعلق بفهم القرآن، وإساءة تتعلق بإبعاد الجيل عن عالمه وعصره الذي يعيش فيه. والذي لا يمكنه تجاهله أو الفرار منه. وستكون نتيجة مثل هذه المطالعة والتعقيد أو الانحراف أو النكوص ..

وإذا كان لابد من تفسير فلا يمكن أن يتصدى لتفسير القرآن إلا القرآن نفسه فالتلاوة المتكررة للقرآن والتفكير فيه يفتح آفاقه ويجلي معانيه ويستكمل بعضه بعضاً مع ملاحظة فهم الآيات في السياق أي ملاحظة ما قبلها وما بعدها وعدم بترها بحيث يتغير معناها ويصبح "ويل للمصلين" أو الاستشهاد بها في غير موضعها كما يحدث بالنسبة لآيات عديدة تصف مشاهد من يوم القيامة وأن يربط ما بين الجملة، ومن قالها فالتوجيه الإلهي شيء وما يورده القرآن علي لسان بعض الشخصيات التي تحدث عنها شيء آخر، فجملة "إن كيدهن عظيم" التي يستشهد بها البعض بصدد كيد النساء جاءت في القرآن على لسان شخصية فرعونية وليست على لسان نبي كريم.. أو حكم يصدره القرآن نفسه. وكذلك قول أم مريم "وليس الذكر كالأنثى" فلا يمكن الاحتجاج بها على أفضلية الذكر كحكم قرآني لأنه ليس إلا قول سيدة يهودية وكان اليهود يفضلون الذكر على الأنثى بصورة كبيرة. وكذلك لا يجوز الاستشهاد بالآية «قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا» {٢١ الكهف}.. في جواز بناء القبور واتخاذها مساجد، لأن هذا الرأي إنما أورده القرآن على لسان فريق من الناس دون أن يقرن ذلك بإقرار أو موافقة، أي أن على الذي يريد تفسيراً للقرآن أن يخوض

(٥١) كتاب قصة التفسير للشيخ أحمد الشرباصي من ص ١٥٩ إلى ص ١٦٤.

معركته بين دفتى المصحف نفسه وبين سطره وآياته دون أن يخرج عنها أو يستعين بغيرها اللهم إلا إذا كان من نوع "المعجم المفهرس" لألفاظ القرآن الكريم الذى وضعه الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، فخدم القرآن خدمة المسلم الغيور، ومكن من الإفادة منه أضعاف ما يمكن أن يفيدته أى تفسير آخر. رحمه الله رحمة واسعة.

والحق أن أى تخصيص للقرآن - سواء كان بطريق أسباب النزول أو لتعريف ما أبهمه القرآن ولم يحدده - بأخبار آحاد (كما هو الحال بالفعل) غير جائز، كما ذهب إلى ذلك داود الظاهري والخوارج لما ذكروه من أسباب منها :

١. أن خبر الواحد ظنى الدلالة. والقرآن قطعى الدلالة ولا يجوز ترجيح الظنى على القطعى واتباع الظن مذموم فى القرآن .

٢. لو كان القرآن يحتاج لخبر من أخبار الآحاد لتخصيص عمومه لوجب أن يتواتر ذلك الخبر حتى لا يفوت أحداً من المسلمين العمل به، ولا يكون العامل به عاملاً بالظن. وهو الأمر المذموم فى القرآن الكريم كما تقدم، وحيث أنه لم يتواتر دل ذلك على أن الله لا يريد اتباعه ولا يوجب العمل بمقتضاه على المسلمين .

٣. تحريم ما دل القرآن على حله مخالفه للقرآن الشريف. فيجب رد الحديث، كما يشهد به كل ذى عقل صحيح .

**نقول إن هذا هو أقوى ما ينسف تفسير المفسرين القدامى وما أبدعوه من فنون افتاتوا بها على القرآن ومن أبرزها تخصيص العموم والنسخ أو أسباب النزول وهى تكاد أن تكون لحمة التفسير وسداه ...**

\* \* \*

**على أن هذا ليس معناه أن تمتنع الكتابة عن القرآن. فهيهات. فالقرآن هو البحر الذى يحوى أسرار الإسلام وشريعته، ولانيتها الثمينة. ولكن أن تكون الكتابة إلهاماً منه وتأثراً به فالكتاب هنا يكتب عما فهمه وتأثر به ولكنه لا يقول هذا تفسير القرآن كأنه صاحبه، والله تعالى هو صاحب القرآن. فمن هذا الناحية فإن البحر لا يرفض صيد صائد، ولا يضمن على أحد.. ولا يحول دون النظر إليه والتأمل فيه وملاحظة رياحه، وأمواجه، وامتداده الجميل الرهيب ...**

## الباب الثاني تفسير القرآن لدى المحدثين

### الفصل الثالث بعض المفسرين المحدثين

اتسع الوقت طوال الألف سنة التي أعقبت الهجرة وشاهدت ازدهار وتدهور الفكر الإسلامي أمام أئمة التفسير ليؤلفوا مجلداتهم الضخمة. ورغم ضالة المادة وصعوبة العدة، فقد وجدوا في الإسرائيليات وفي الأحاديث المنحولة وفي الشعر العربي ما مكنهم من تسويد عشرات الألوف من الصفحات. كما يجب أن نعلم أن المكتبة الإسلامية كانت زاخرة بآلاف الكتب والمراجع عند تدمير بغداد على يد التتار وعند سيطرة الأسبان على الأندلس. ولعلمهم استفادوا منها قبل أن تغرق في نهر دجلة أو تحرق في أسواق الأندلس. وكان هؤلاء الأئمة رغم كل الصعوبات التي جابهوها ورغم أن عصرهم كان عصراً مغلقاً، يندفعون بقوة الإبداع والإنشاء ونشوة المعرفة والإيمان وأنهم يضعون فنوناً جديدة أمام الناس ويتقربون بها إلى الله. لهذا استطاعوا أن ينجزوا أعمالهم التي مهما كانت تحفظاتنا عليها فلا ينفى هذا أنها تمثل جهداً نبيلاً متصلاً ..

اختلف الأمر بالنسبة للمفسرين المحدثين لفترة الحداثة، إذا اعتبرنا أن بدايتها كانت دخول نابليون القاهرة في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، لم تتسع إلا لقرابة قرنين، ومع أن ظهور المطبعة يسر التأليف إلا أن كلال الهمم وتخاذل العزائم وهيمنة العقلية النقلية والقداسة التي اكتسبتها التفاسير القديمة والفكرة عن أنها مما لا تكاد تدرك فضلاً عن عدد آخر من العوامل قد لا يتسع المجال لشرحها. المهم أنهم لم يحققوا مثل الإنجازات القديمة .

ولكن لما كان تفسير القرآن هو أعظم ما يطمح إليه كاتب إسلامي لأنه يضمن لأسمه الخلود الذي يقتزن بالقرآن. فقد ظهر عدد من التفاسير الكاملة أشرنا إلى إحداها وهو روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع والمثنى عند حديثنا عن المذهبيين من المفسرين - ومنهم الصوفية .

وسنشير الآن إلى أبرز التفاسير الأخرى في نبذه قد تطول أو تقصر بقدر ما رأينا أن المجال يسمح به، بينما ستخصص فقرات كل واحدة في بضع صفحات لثلاث من التفسيرات رأينا أنها تستحق أهمية خاصة ..

فمن التفاسير التي رزقت شهرة خاصة "في ظلال القرآن" للكاتب الشهيد سيد قطب وقد بدأه في الخمسينات من القرن العشرين ونشر بعضه في مجلة "المسلمون" التي كان يصدرها الدكتور سعيد رمضان من القاهرة ثم دمشق، وأخيراً جنيف ولعل أولى طبعاته هي التي طبعتها مطبعة الباب الحلبى في ثلاثين جزءاً صغيراً حسب أجزاء القرآن الكريم ثم تتابعت طبعاته لما أحاط بقضية الشهيد سيد قطب من شهرة كللت بتاج الشهادة .

ويغلب الأسلوب الأدبي المميز للشهيد سيد قطب، وهو بالطبع بعيد عن الإسرائيليات والمؤتفكات ولكن يسرى فيه من أوله إلى آخره "عرق" مذهبى هو "الحاكمية الإلهية" التي آمن بها ودافع عنها وضحى

بحياته في سبيلها. ومن المؤسف أن صيحة الحاكمية الإلهية كانت شئوما عندما ارتفعت على أفواه الخوارج أول مرة في عهد الإمام علي بن أبي طالب. وكانت شئوما عندما بعثها قلم سيد قطب في العصر الحديث وإيداننا بتحول سيئ في الدعوة الإسلامية .

تفسير الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي حفظ للجزائر عروبته وإسلامها بفضل القرآن الذي عكف على تفسيره قرابة ٢٥ عاماً. وتفسير الشيخ محمد حسين فضل الله الزعيم الشيعي اللبناني الذي عرف بدرجة كبيرة من الاستقلالية والإبداع .

ومن المؤسف أن السياسة التي وضعها الاستعمار في عزل البلاد الإسلاميين بعضها والحيلولة دون تواصلها وبوجه خاص في المجال الثقافي لا تزال متبعة بعد أن رحل المستعمر وترك لنا عصاته المسحورة التي تلمس أثرها في كل مجال. فلم تقم النظم التي ادعت الاستقلال بدعم الأواصر مع بعضها بعضاً. ونتيجة لعدم التواصل فإن هذه الكتب القيمة لم تعرف بشكل واسع في مصر. ولا يتيسر الحصول عليها بسهولة .

ووضع العلماء المصريون عديداً من التفاسير من أبرزهم الشيخ محمود شلتوت والشيخ مصطفى المراغي والشيخ محمد أبو زهرة والأستاذ عبد الكريم الخطيب "تفسير القرآن بالقرآن" كما أن الكاتب الموسوعي القديم الأستاذ محمد فريد وجدي وضع تعليقات موجزة على كل سورة من سور القرآن .

وعنى الشيخ محمد الغزالي السقاء، وهو من الكتاب الأزهريين النابغين الذين التحقوا بدعوة الإخوان المسلمين من سنواتها الأولى فاستفاد منها وكتب في صفحاتها الأولى ثم أفادها بعد ذلك .

وعنى الشيخ محمد الغزالي بالقرآن الكريم وأصدر في ذلك عدداً من الكتب منها: "نظرات في القرآن" (١٩٦١) في ٨٠ صفحة من القطع الكبير. و"المحاور الخمسة" للقرآن الكريم في ٢٤٦ صفحة من القطع الكبير وهو أشبه شيء بتفسير موضوعي لموضوعات خمس ارتأى أنها محاور القرآن: المحور الأول الله تعالى - المحور الثاني الكون الدال على خالقة المحور الثالث القصص القرآني المحور الرابع البعث والجزاء المحور الخامس التربية والتشريع، وأخيراً أصدر "تحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم والموضوعية فيه ليست لموضوعات القرآن ولكن في سور القرآن سورة سورة .

ويمكن القول أنه ما من عالم إسلامي نابه إلا وحاول أن يصل أسبابه بالقرآن الكريم ليحظى ببركته وينتابه حظ من شهرته.. وقد نشرنا في موضوع سابق من هذا الكتاب بعض ما جاء في كتاب "النبأ العظيم" للشيخ محمد عبد الله دراز تفسير سورة أو سور أو جزء أو أجزاء .

ويستحق التنويه بشكل خاص تفسير سورة الكهف في ثلاث مقالات كتبها السيد أبو الحسن الندوي في ثلاثة أعداد من مجلة "المسلمون في سنتها السادسة" وهذه كان يصدرها الدكتور سعيد رمضان من جنيف وأراد بها السير على غرار مجلة الشهاب التي أصدرها الإمام الشهيد حسن البنا وكان سعيد رمضان هو سكرتير تحريرها .

ونحن نعتذر لأننا لا نستطيع أن ننقصي كل ما كتب عن القرآن. فضلاً عن أن هذا يضيق به المجال، ولكننا سنفصل القول شيئاً ما عن تفسير الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا (تفسير المنار) وتفسير التحرير والتوير للعلامة تونسي الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، وأخيراً طريقة التفسير التي انتهجها الشيخ محمد متولى الشعراوي في العقود الأخيرة من القرن. واكتسبت شعبيته وشهرة مدوية ..

(١)

## تفسير المنار

### (الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا)

كان الشيخ محمد عبده هو رائد النهضة في مجال الفكر الإسلامي قدر ما كان الأفغانى هو الرائد فى مجال اليقظة السياسية .

وكان من توفيق الله أن قيض للشيخ محمد عبده وهو فى قمة النضج مريداً مخلصاً نابغاً هو السيد محمد رشيد رضا الذى هاجر من لبنان إلى القاهرة وأملاً فى أن يصدر صحيفة إسلامية حرة "هى المنار" وقد تحقق هذا بفضل توجيه ودعم الشيخ. ثم نشأت فى ذهن السيد رشيد رضا فكرة كتابة تفسير الشيخ الذى كان يلقبه ونشره فى المنار، وكان الشيخ محمد عبده زاهداً أول الأمر فى ذلك ولكنه رضخ لإلحاح مريده الأثير. وبدأ الشيخ رشيد رضا ينقل ما يقوله الشيخ إما بعبارة الشيخ نفسه، أو بما يقرب منها من وضع السيد رشيد رضا، وكان يطلعه أولاً بأول، وكان يتقبله ولم يغير إلا كلمات معدودة.. وظل الشيخ يفسر والسيد رشيد رضا ينقل وينشر حتى توفى الشيخ إلى رحمة الله عام ١٩٠٥ .

وبدأ الشيخ محمد عبده تفسيره فى غرة المحرم ١٣١٧ وانتهى منه فى منتصف المحرم سنة ١٣٢٣ عند تفسير قوله تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾. من الآية ١٢٦ من سورة النساء. أى زهاء خمسة أجزاء فى ست سنين إذ توفى لثمان خلون من جمادى الأولى منها (١٣٢٣) .

وبدأ نشر التفسير فى المنار فى أول المحرم سنة ١٣١٨ من المجلد الثالث من المنار بعد وفاة الشيخ محمد عبده استقل السيد رشيد رضا بالعمل واشترك مع الشيخ فى الابتعاد عن الخرافات والإسرائيليات، ولكنه لم يذهب إلى المدى العقلانى والتحررى للشيخ، وكان كلما يتعمق فى البحث ويعود إلى مراجعة كلما أوغل فى بحار السلفية وأجوائها وأخذته إليها.. على أنه أبرز بجلاء عدداً من القضايا الهامة التى عنى بها القرآن كيسر الإسلام ومرونة أحكامه وتكيفه مع الأوضاع والتطورات، كما ابرز الأصول الاجتماعية التى تحكم المجتمعات وعنى بوجه خاص بمقاومة الاستبداد وإبراز الشورى ..

### وعلى هذا فإن الحكم على تفسير المنار يجب أن ينقسم إلى قسمين

الأول ما ينطبق على تفسير الشيخ محمد عبده، وتتركز أهمية هذا القسم فى أمور منها: أنه وإن سار على طريقة المفسرين فى تفسيرهم القرآن سورة سورة فإن طريقة تفسيره اختلفت اختلافاً كبيراً. فاستبعدت كل الإسرائيليات ولم يعد التركيز على "المأثور" و"المنقول" ولكن المعاني وما تدل عليه الكلمات والسياق. مع الإفادة فى ذلك بثقافة العصر الحديث التى ألم بها الشيخ فتفسير محمد عبده كان الخطوة الأولى على طريق المحدثين وربما كانت أفضلها فى تفسير القرآن .

ومنها أنه بحكم ثقافته وروح العصر رفض التسليم بكثير من الثوابت فى التفسير كرفض المعجزة فى تصوير "الطير الأبايل وحجارة من سجيل" مع أن هذا لم يكن لضيره كمفكر عقلانى مسلم لأن من المسلم به أن وقوع المعجزات لا يخل بالنواميس المقررة، لأن المعجزات ليست إلا استثناء وكان لابد منها فى ظروفها ووقوعها لا يخل بالأسس لأن الاستثناء لا حكم له ولا يخل بعقلانية مفكر مسلم التسليم بالمعجزات كمعجزات



وطوارئ، وقد يكون هناك ما جعل الشيخ يأخذ هذا المسلك الذي انتقده طه حسين نفسه<sup>(٥٢)</sup>. وقد انكر الشيخ ما حفلت به التفاسير عن سحر يهودى للرسول وقد كان فى هذا أدنى إلى الصواب من معارضيه (وقد كان منهم الشيخ رشيد رضا نفسه) .

إن هذا الاتجاه الذى أقدم عليه الشيخ غير هياب ولا وجل هو ما يستحق التقدير وبصرف النظر عن مدى الصواب والخطأ فيه، ولو فاتته الصواب فلن يخطئه أجر الاجتهاد ويكفيه فخراً أنه أزال تلك الأحجار والعوائق التى كانت تسد طريق الفكر الجديد .

وأخيراً فإن أثر الشيخ وتفسيره عم العالم الإسلامى بفضل زيارته للشمال الأفريقي والدول الأوربية فضلاً عن مصر ولبنان. وبفضل انتشار المنار فى العالم الإسلامى وقد اعتبر كتاب "الإمام محمد عبده ومنهجه فى التفسير" أن مدرسة الشيخ محمد عبده فى التفسير ضمت الشيخ عبد القادر المغربي والشيخ محمد مصطفى المراغى والشيخ جمال الدين القاسمى (صاحب محاسن التأويل) والشيخ عبد الحميد بن باريس علامة الجزائر ومؤسس جمعية العلماء والذى ظل ٢٥ عاماً يلقي دروسه عن التفسير والشيخ الطاهر بن عاشور علامة تونس وصاحب (التحوير والتوير) فى ١٢ مجلد. والشيخ محمود شلتوت وبقيّة التابعين كالشيخ المدني والشيخ محمد عبد الله دراز وغيرهم<sup>(53)</sup>. ويمكن أن يضاف إلى هؤلاء جيل، بل أجيال جاءت بعده .

أما القسم الثانى من التفسير وهو الذى تولاه السيد رشيد رضا فقد أشرنا إليه فى النبذة السابقة وقد أنسا الله تعالى له فى العمر حتى أمضى أكثر من ثلاثين عاماً فى تفسيره .

وقد قلنا فى إحدى المناسبات أن تفسير المنار قدم للإمام الشهيد حسن البنا قاعدة للفكر الإسلامى تبرأ من لوثات عصور الانحلال ويمكن أن تكون نقطة بداية له يستطيع أن يسير بها إلى ما يشاء من التقدم، ولولا تفسيره - وما قدمه المنار من مراجع - لكان على الإمام الشهيد أن يقوم بذلك بنفسه وليضحى بثلاثين عاماً.. فى حين أن الله تعالى قدر له أن يستشهد فى أربعينات العمر، بعد أن شيد هذا الصرح الممرد "الإخوان المسلمين" ونحن فى هذه الحالة نرى ميزة التراكم المعرفى وأن يبدأ الخلف حيث انتهى السلف

من هنا لا يجوز لنا أن نبخس تفسير المنار حقه.. خاصة وأنه لم يصدر ما يماثله، ومن حق الإمام محمد عبده أن تقول إنه أكبر أزهرى عقلاى - ولم يبلغ عقلايته أحد آخر لأنه أقامها وأصلها على أسس من القرآن ..

وعندما توفى السيد رشيد رضا وتوقف المنار - صدوراً وتفسيراً - أراد الإمام الشهيد حسن البنا أن يصل ما انقطع فأصدر ستة أو سبعة أعداد من المنار. قبل أن تنتبه الجهات المختصة إلى عدم قانونية ذلك لأن امتياز المجلة هو باسم الشيخ رشيد رضا، فقد مات الشيخ ومات معه امتياز المنار .

وحاول الإمام الشهيد محاولة أخرى عندما اصدر مجلة الشهاب، متأسيماً باسم المجلة التى أصدرها ابن باديس فى الجزائر وكانت هى التى تشع العربية والإسلام فى ظلمات الاستعمار الفرنسى. وبدأ المجلة بتفسير القرآن. فكتب مقدمة ضافية ثم بدأ فى تفسير الفاتحة حتى أتمها، وأخذ فى تفسير آيات من سورة البقرة عندما وافاه المصير المحتوم. وقد قمنا بجمع هذا التفسير فى كتاب مستقل ..

(٥٢) لعل هذا الاتفعال كان رداً على تفسير يقول أن كل حجارة من حجارات السجيل كانت تحمل اسم من نفع عليه بالذات ونهلكه .

(٥٣) الإمام محمد عبده ومنهجه فى التفسير للدكتور عبد الغفار عبد الرحيم دار - القاهرة من ص ٣١٩-٤٠٩ .

وكان يمكن لهذا التفسير لو استمر أن يقدم إضافة مميزة في هذا المجال لما عرف به الإمام الشهيد من ذكائه ولماحية واستيعاب، وإطلاع مما كان يجعل تفسيره نسقاً وجده ..

(١)

## تفسير الشيخ الطاهر بن عاشور

يتميز هذا التفسير بمقدمات عشر قدم بها مؤلفة تفسيره حتى يكون لدى قارئه فكرة عامة عن أساسيات التفسير، وكيف يتعامل مع ألفاظه ومعانيه وصباغته ونظمه. وقد كتب هذه المقدمات بلغة سهلة، سائغة، رغم أنه في بعض الحالات يؤثر أساليب البلاغة القديمة، كما أنه سلك منهجاً وسطاً واعتقد أن هذه المقدمات هي خير ما يقدم ليس بين يدى التفسير - بل بديلاً عن التفسير. وأنها في التفسير كمقدمة ابن خلدون في التاريخ .

المقدمة الأولى عن "التفسير والتأويل وكون التفسير علماً - مع بعض التسامح - كما قال. وإنما عده المتقدمون علماً لوجوه ستة أشار إليها بما لا يتسع له المجال، وأبرز أن التفسير هو أول العلوم الإسلامية، وتحدث عن أول من صنف فيه وهو عبد الملك بن جريج (ولد سنة ٨٠ وتوفي سنة ١٤٩) وأشار إلى أن أكثر رواياته عن ابن عباس ولم يفته رغم توثيق بعضها أن يقول والحاصل أن الرواية عن ابن عباس قد اتخذها الوضاعون والمدلسون ملجأً لتصحيح ما يروونه كدأب الناس في نسبة كل أمر مجهول من الأخبار والنوادر لأشهر الناس في ذلك المقصد كما عالج الفرق بين التفسير والتأويل .

وتعنى المقدمة الثانية "باستمداد علم التفسير" وهو يعنى باستمداد العلم توفقه على معلومات سابق وجودها على ذلك العلم، فتكون عوناً لهم على إتقان تدوين ذلك العلم وسمى ذلك في الاصطلاح بالاستمداد تشبهاً بطلب المدد. وأهم مادة في هذا العربية متن اللغة والتصريف والنحو والمعاني والبدع الخ... وأبرز الدور الكبير للمجاز، ولكنه اتبع سنة المتقدمين في العودة إلى أشعار العرب للتعرف على بعض ألفاظ القرآن وهو أمر يحتمل الجدل، كما أنه أخذ بما ذهب إليه السلف من اعتبار "الأثار" واستبعد أن يكون الفقه وأصوله مما يلزم للمفسر، لأن علم الفقه فرع من التفسير ومتوقف عليه. واستمداد التفسير من هذه العلوم لا ينفى أنه رأس العلوم الإسلامية .

وعالجت المقدمة الثالثة صحة التفسير بغير المأثور ومعنى التفسير بالرأى ونحوه: فاستبعد من التفسير بالرأى الذى نهى عنه الحديث وتعود منه أبو بكر استلهام المعانى القرآنية - وأورد قول الغزالي والقرطبي "لا يصح أن يكون كل ما قاله الصحابة في التفسير مسموعاً من النبي عليه الصلاة والسلام. وهو يقول أن استنباط الأحكام الشرعية من القرآن خلال القرون الثلاثة الأولى من قرون الإسلام لم يكن إلا من قبيل التفسير لآيات القرآن بما لم يسبق تفسيرها واستشهد بما قاله شرف الدين الطيبي في شرح الكشاف في سورة الشعراء "شرط التفسير الصحيح أن يكون مطابقاً للفظ من حيث الاستعمال سليماً من التكلف!! وما جاء على خلاف ذلك فهو "بدع التفاسير"

وفى رأى الطيبي بن عاشور أن الرأى المذموم هو أن يكون مجرد خاطر دون استناد إلى أدلة العربية أو يكون ميلاً أو نزعة مذهبية .

وفى الوقت نفسه فإنه انتقد الذين يقولون إن تفسير القرآن يجب أن لا يعدو ما هو مآثور فتساءل مآثور عن من إذا كان من الرسول قال ذلك سيضيق من سعة معانى القرآن وينابيعه وحتى لو كان المآثور عن الصحابة فإنه لن يعنى إلا قليلاً لأن أكثر الصحابة لا يؤثر عنهم فى التفسير إلا شىء قليل ..

وأشار إلى أن فريقاً من غلاة الشيعة من الإسماعيلية أولوا الآيات بما يخرج عن معناها كما انتقد ما يتكلم به أهل الإشارات الصوفية وقال أنهم لا يعنون بذلك تفسير القرآن ولكنهم يستدلون بها فى الغرض المتكلم فيه .

والمقدمة الرابعة فيما يحق أن يكون غرض المفسر وهو يوضح فيه - بعد ما قال رأيه فى التفسير بالرأى والمآثور الخ... فيما يحق للمفسر أن يتطرق إليه فوضح أن الله أنزل القرآن لصالح أمر الناس كافة، سواء فى ذلك الفرد أو الجماعة ومن هنا فيجب على المفسر أن يلم بالعناصر المكونة لهذا الإصلاح وأولها إصلاح الاعتقاد وثانيها تهذيب الأخلاق وثالثها التشريع أى الأحكام والرابع سياسة الأمة الخ ...

وانتقل إلى وصف طرق المفسرين ما بين الاقتصار على الظاهر واستنباط معان وراء الظاهر وهى الطريقة التى مكنت الأوائل من تفصيل الأحكام، كما حدد علاقة القرآن الكريم بالعلوم .

وخصص المصنف المقدمة الخامسة لأسباب النزول فانتقد ولع بعض المفسرين بأسباب النزول وأوضح أن إرسال حبله على غاربه خطر جسيم وأورد خمسة وجوه لأسباب النزول منها ما تثيره الآية نفسها مثل ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا. الخ...﴾.

والثانى حوادث نسبت إليها تشريعات، وكذلك حوادث تكثر أمثالها تختص بشخص منهم والرابع هو حوادث حدثت وفى القرآن آيات تناسب معانيها سابقة أو لاحقة فيقع فى بعض عبارات السلف ما أن تلك الحوادث هى المقصودة والقسم الخامس يبين مجملات ويدفع متشابهات. وختم الفقرة بأن القرآن كتاب هداية، والهداية هى المطلوب دون غيرها ..

وكانت "القراءات" هى موضوع المقدمة السادسة: وقد رأى أن للقراءات حالتين إحداها لا تتعلق بالتفسير والثانية لها تعلق من جهات فالحالة الأولى هى ما يتعلق باختلاف القراءات فى وجوه النطق بالحروف والحركات كمقادير المد والإمالة والتخفيف والجهر والهمس الخ... وهذا لا يؤثر على التفسير لأنه لا يمس المعانى، وهذا هو ما ذهب إليه الأوائل ومنهم أبو على الفارسى صاحب كتاب الحجة للقراءات .

وأما الحالة الثانية فهى اختلاف القراءات فى حروف الكلمات مثل مالك يوم الدين. وملك يوم الدين. وننشرها وننشرها الخ... ولم ير المؤلف حلاً لما تثيره من اختلاف فى المعانى إلا أراد الله تعالى تكثير هذه المعانى وهذا نظير التضمين فى علم المعانى وهو من زيادة ملاءمة بلاغة القرآن. واستشهد بالحديث المعروف عن عمر بن الخطاب الذى سمع هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان بحروف غير التى كان يقرأ بها عمر بن الخطاب فأخذه بعد الصلاة إلى الرسول فقال الرسول اقرأ يا هشام فقرأ كما قرأ أول مرة فقال الرسول كذلك أنزلت ثم قال لعمر اقرأ يا عمر فقرأها فقال الرسول كذلك أنزلت ثم قال أن هذا القرآن قد انزل على سبعة أحرف فأقرءوا ما تيسر منه. وقال أن فى الحديث أشكال يرجع إلى اعتبارين أحدهما باعتباره منسوخاً والآخر باعتباره محكماً. وبالاختبار الأول مثل أن هذا كان رخصة أيام الرسول ثم نسخ بعد ذلك نحمل الناس على لغة قريش لأن بها نزل القرآن أما من ذهبوا إلى أن الحديث محكم فأفضل

الأقوال أن المراد من الأحرف لهجات العرب في كيفية النطق كالفتح والإطالة الخ... مع المحافظة على كلمات القرآن ..

وهذه المقدمة من أفضل المعالجات لموضوع القراءات ولكن لا يتسع المجال للأسف لمزيد من التفصيل فيها .

وتحدثت المقدمة السابقة عن "قصص القرآن" ورأت أن القرآن لا يذكر القصص لمعرفة المعلومة ولكنه يأخذ من كل قصة أشرف مواضيعها ويعرض عما عداه لأن غرضه ليس التفكه لا المسامرة، ولكن التعليم والهداية، ولهذا ابتعدت عن السرد والتفصيل وركزت على المغزى والدرس والعظة والاعتبار. ومن الواضح أن هذا عندما يساق في مضمون قصصى يكون أكثر تأثيراً على أن المقدمة استطرقت إلى ما تتوصل إليه القصة من إفادة ومن أطرف ما يسوقه أن ذلك ينشئ في المسلمين همة السعى إلى سيادة العالم وأن يكونوا سادته وهم في خمول وفرقة، وكذلك معرفة أن قوة الله فوق كل قوة الخ ...

والمقدمة الثامنة في اسم القرآن، وآياته وسورة وترتيبها وأسمائها، فتحدثت عن "القرآن" و"الفرقان" و"الكتاب" و"الذكر" و"الوحي". كما تحدثت عن الآيات والفواصل ما بينها التي تؤذن كل فاصلة بنهاية الآية وإن حدث خلاف ذلك في بعض الحالات .

وذهبت المقدمة إلى أن أطول الآيات قوله تعالى ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْ لَا رَجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِّبِكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةً بغيرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ {٢٥ الفتح}.. وقوله ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ.﴾ إلى قوله لو كانوا يعلمون.. {١٠٢ سورة البقرة}.. وهذا غريب لأن المعروف أن أطول آية في القرآن هي آية الدين في سورة البقرة ٢٨١ أما مجموع آيات القرآن فقد قال أبو عمرو الداني في كتاب العدد أن عدد آيات القرآن يبلغ ستة آلاف آية واختلفوا. فمنهم من لم يزد ومنهم من قال ومائتين وأربع وقيل مائتين وأربع عشرة وقيل تسع عشر وقيل خمسة وعشرين وقيل ستة وثلاثين وقيل ستمائة وستة عشرة ويعود جزء من الخلاف إلى عد، أو عدم عد البسمة آية في السور .

ولعل أهم نقطة في هذه المقدمة هي ترتيب الآيات وقال المؤلف إنها بتوقيف من الرسول حسب نزول الوحي ومن المعلوم أن القرآن نزل منجماً آيات وربما نزلت عدة آيات متتابعة أو سورة كاملة، وذلك الترتيب مما يدخل في وجوه إعجازه من بداعة أسلوبه كما سيأتى في المقدمة العاشرة، فلذلك كان ترتيب آيات السورة الواحدة على ما بلغتنا عليه متعينا بحيث لو غير عنه إلى ترتيب آخر لنزل على حد الإعجاز الذي امتاز به، فلم تختلف قراءة الرسول في ترتيب آي السور على نحو ما هو في المصحف الذي بأيدي المسلمين اليوم، وهو ما استقرت عليه رواية الحفاظ من الصحابة عن العرصات الأخيرة التي كان يقرأ بها الرسول في أواخر سنى حياته الشريفة، وحسبك أن زيد بن ثابت حين كتب المصحف لأبي بكر لم يخالف في ترتيب آي القرآن. وعلى ترتيب قراءة الرسول في الصلوات الجهرية وفي عديد المناسبات حفظ القرآن كل من حفظه كلا أو بعضا، وليس لهم معتمد في ذلك إلا ما عرفوا به من قوة الحواظ، ولم يكونوا يعتمدون على الكتابة، وإنما كان كتاب الوحي يكتبون ما أنزل من القرآن بأمر النبي، وذلك بتوقيت إلهي. ولعل حكمة الأمر بالكتابة أن يرجع إليها المسلمون عندما يحدث لهم شك أو نسيان ولكن ذلك لم يقع .

ولما جُمع القرآن في عهد أبي بكر لم يؤثر عنهم أنهم ترددوا في ترتيب آيات من إحدى السور ولا أثر عنهم إنكار أو اختلاف فيما جُمع من القرآن فكان موافقا لما حفظته حواظهم، قال ابن وهب: سمعت

مالكا يقول إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعون من رسول الله. وقال ابن الأنباري كانت الآية تنزل جواباً لمستخبر يسأل ويوقف جبريل رسول الله على موضوع الآية .

واتساق الحروف واتساق الآيات واتساق السور كله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعنيت المقدمة التاسعة بالمعاني التي تتحملها جمل القرآن وتعتبر مرادة كـ بعض قضايا العلاقة ما بين الأسلوب والمعنى وبعض القضايا اللغوية كـسريان "المشترك" الخ ...

وتختتم المقدمات بالمقدمة العاشرة عن إعجاز القرآن وقد أراد أن يعطى القارئ الإمامه ليست كـخطرة طيف ولا هي كـإقامة منتج حتى يظله الصيف وإنما هي لمحة ترى فيها كيف كان القرآن معجزاً .

ومثل هذه اللمحة تقتضى فى تركيزها من العناء ما يهون أمامه الإسهاب. وهذا الإعجاز منبثق من أصل أعم هو أن القرآن هو معجزة الإسلام التي تحدى بها معارضيها، وهذه لمحة فاتت كثيراً من المفسرين الذين شغلتهم تفاصيل الإعجاز عن أصله وجذره كما أنه أيضاً من أسباب اختلافاتهم العديدة فى وجوه الإعجاز وقد استدل - فيما استدل به - على بقاء الآيات التي قيل إن حكمها قد نسخ ولكنها ظلت بما فيها من إعجاز فأرجعها إلى ثلاث جهات الجهة الأولى: بلوغه الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربى البليغ والجهة الثانية ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف فى نظم الكلام والجهة الثالثة ما أودع فيه من المعانى الحكمية والإشارات إلى الحقائق الفعلية مما لم تبلغه عقول البشر .

ومما أضافه إلى ما ذكره الذين كتبوا عن الإعجاز نبذة عن مبتكرات القرآن التي تميز بها نظمه ومنها أنه لم يلتزم أسلوباً واحداً واختلقت سورة حتى يكاد تكون لكل سورة لهجة خاصة، فإن بعضها بنى على تواصل وبعضها ليس كذلك، وكذلك فواتحها ..

وتوقف عند الإعجاز، وهو غاية ما يتبارى فيه الفصحاء فجاء القرآن فيه بطرق مبتكرة، وكذلك الأمر فى الحذف مما جعل صاحب الكشاف يقول "الحذف والاختصار هما نهج التنزيل" والحذف والإيجاز هي مما يؤكدان المعنى بالاستغناء عن كل فضول. كما تكلم عن "عادات القرآن" مثل ثنائياته مثل الصلاة والزكاة والخشوع والخوف والرغبة والرغبة الخ... وأسلوب الحوار وتشبيهاته الرائعة كتشبيه العلم بالنور الخ...

مما لفت انتباهنا أنه لم يخصص إحدى مقدماته للنسخ أو حتى يتحدث عنه بالإطالة المعهودة المفسرين الذين كانوا يرمون من جهله. "هلكت وأهلكت" وأن لم يكن - فيما يبدو - ينكره تماماً .

وفى نظرنا أن هذه المقدمة للتعريف بالقرآن هي كمقدمة ابن خلدون للتعريف بالتاريخ. تكاد تغنى عنه وتقدم الصورة المنشودة للذين يريدون جوهر الموضوع وكنياته وليس تفاصيله وتفريعاته .

(٣)

### تفسير الشيخ محمد متولى الشعراوى

ليس الشيخ الشعراوى من فرسان التأليف والكتابة ولكنه من فرسان الكلمة "والحكى"، ولم يعرف عنه تأليف وما فى أيدي الناس من ذلك سواء كان تفسيراً أو فتاوى الخ... هو مما نقله أتباعه ومريده وما أكثرهم ..

بدأت شهرة الشيخ مع برنامج نور على نور وأحس مقدمه الأستاذ أحمد فراج أنه وقع على نجم فأفسح له المجال.. وفهم الشيخ من جانبه أنه وقع على كنز فاهتبل الفرصة وتدقق "واختلب القول إختلاباً"<sup>(٥٤)</sup> وزادت شهرته شيئاً فشيئاً حتى أصبح "إمام الدعوة" وشيخ المفسرين وأصبح معجوبه بالملايين لا فى مصر وحدها بل فى كل الدول الإسلامية، وأصبحت اذاعته فى رمضان قبيل الغروب تنسى الناس الجوع والعطش.

ولا جدال أن هذه الشهرة لا يمكن أن تأتى من فراغ أو تقوم على باطل. فالشيخ لا ينقصه الذكاء. وقد أوى معرفة دقيقة بنفسية الجماهير وهو يقدم دروسه القرآنية باللغة العامية رغم معرفته الدقيقة باللغة العربية وأسرارها ولا يكتفى بالحديث بل أن كل جسمه يتحدث مزارعه ورأسه وجسمه يميل بحيث تسهم هذه الحركات والسكنات فى التأثير على سامعية، كما يؤثر الممثل على متفرجيه. وقد أصدر أحد من الشانئين له كتيباً باسم "الشيخ الشعراوى وعدوية" نسب فيه نجاح مقولاته بنسبة ٩٠% إلى التمثيل فى الشرح والأداء، وأنه لو كف عن ذلك كما يفعل كل الوعاظ لما واطب أحد على سماعه وقد يكون فى هذا شىء من التجنى، كما قد يكون فيه الشىء الكثير من الحقيقة<sup>(٥٥)</sup>.

إن إلقاء الشيخ الشعراوى أحاديثه باللهجة العالية أمر له دلالتة. ذلك لأنه كان ضليعاً فى العربية بوجه خاص. وقد تعرف على الإمام الشهيد حسن البنا أول العهد بالإخوان عندما كان البنا يعلم الشباب كيف يرتجلون الخطاب دون على أو جعفر أو لحن أو قصور، وكان يمكن للشيخ الشعراوى لو بقى بالإخوان أن يصبح كالشيخ محمد الغزالي أو الشيخ يوسف القرضاوى، وربما فاقهما. ولكنه انفصل عن الإخوان والوفد. إذ كانت حاسته الوفدية أقوى من حاسته الإخوانية. وهذه أيضاً لها دلالتها خاصة عندما تأتى من أزهرى، فيفضل الحزب العلمانى على الدعوة الإسلامية. وكان لا بد أن يسير إلى قدوة وعندما أتيت له الجماهير العريضة التى تمثل الشعب المصرى بما فيه من أميين وأنصاف متعلمين وغيرهم. فإنه لجأ إلى العامية حتى لا يكون بينه وبينهم حائل "الفصحى" وليمكن أن "يختلب القول إختلاباً" ولإيجاد المشاركة الوجدانية بينه وبينهم، وبصفة عامة فإن هذا لا يعاب على المتحدث وأن كان ينم عن رغبة فى استكثار الاتباع واكتساب إعجابهم أو انبهارهم بما يروج من تعبيرات دارجة على حساب اللغة الفصيحة، وكذلك على حساب المستوى الفكرى الذى تعجز العامية عن تصويره فإذا أضفنا إلى العامية الحركات والسكنات والإشارات ودرجات الصوت، فإنها فى النهاية تثمر "الديماجوجية" أى كسب الجماهير العريضة بالدق على الأوتار الحساسة وليس بمخاطبة العقل أو هداية النفس.

(٥٤) هذا التعبير من قصيدة شوقى إلى العمال فى ثلاثينات القرن الماضى وجاءت خلال توجيههم أن لا يخدعوا عند اختيار المرشحين لمجلس النواب بالخطباء فقال:

ليس بالأمر جديراً      كل من ألقى خطاباً  
أو رأى أمية      فاختلب القول إختلاباً

(٥٥) أظهرت البحوث والدراسات حول تأثير الكلمة المنطوقة أن قيمة الدلالة أو المعنى، لا تمثل إلا ٧% (فى بعض التقديرات) وأن البقية العظمى من التأثير تعود إلى الصوت والحركات والسكنات. وأن من الممكن أن يتعاظم الأثر نتيجة لارتفاع أثر أو الدعم بحركات مؤيدة. والعكس بالعكس وقد لاحظنا أنفسنا فى الستينات عندما كانوا يقدمون إلينا كمحاضرين "المعينات السمعية والبصرية" والوسائل العديدة لها، أن نبرة الصدق فى صوت المحاضر هى أعظم ما يؤثر فى السامعين، إن الصوت يرتبط بالقلب كما يرتبط باللسان. وعندما يصدر من القلب فإنه يصل للقلب وفى حالة الشيخ الشعراوى فلا جدال فى أنه يؤمن بصدق ما يقوله، وهذا هو سر قوته، بالإضافة إلى فطنته الفطرية "واندماجه" وأنه يشرك الجمهور معه لا على سبيل الامتحان، ولكن لاكتساب الاهتمام.

وكان من المحتمل أن لا ننكر على الشيخ طريقته التي يكسب بها الجمهور لولا أن الشيخ يأخذ مستمعيه إلى متاهات من التخريجات اللغوية لا تمثل فائدة حتى لو صحت. وهناك طرائف ونوادير تستهوى الجماهير وهي تنال إعجابهم ولكنها تنتهي إلى نتائج تخالف فيما نرى روح الإسلام ويقدم توجيهات لا تقدم ولكنها تؤخر منها مثلاً ما قاله إن على كل واحد ممن سمع إقامة الصلاة أن يدع كل شيء في يده ولو كان طبيباً يجرى عملية جراحية، ويبادر فوراً إلى الصلاة وأثار هذا القول أحد الأطباء هو الدكتور محمد فياض فكتب تعليفاً في بريد الأهرام يوم ٢٨/٤/٩٤ - ١٨ رمضان ١٤١٤ ص ٩ تحت عنوان "استفت قلبك" وفي كتابنا "توفقه جديد" (الجزء الأول ص ٦٧) رأينا في هذا دعوة إلى "توثيق الصلاة" ومن الفتاوى التي خالف فيها الشيخ روح الإسلام ومقاصده فتواه بعدم إباحة التوصية بأعضاء من جسم الإنسان بعد وفاته - أو خلال حياته - ليفيد بها آخرين كنقل كلية إلى مريض مصاب بفشل كلوي أو بالتبرع بالعينين بعد الموت الخ... وبنى الشيخ فتواه تلك على أساس أن جسم الإنسان ليس ملكه، وبالتالي ليس من حقه التصرف فيه.. فهل فاتته أن الله تعالى هو خالق كل شيء ومالك كل شيء، ولكن هذا لا يعنى عدم التصرف فيما خلق الله لأنه من خلق الله. وأين هذا من أبي بكر الذي أوصى بأن يكفن في البالي من الثوب لأن الحى أحق بالجديد.. وللشيخ كذلك فتاوى مذهلة كأن الأرض لا تدور على "عهده" ما نشرته الأخبار يوم ١٤/٣/١٩٩٧ وهذا قول يماثل قوله إنه لم يقرأ كتاباً طوال أربعين عاماً إلا القرآن<sup>(٥٦)</sup>.

وجاء في كلام للشيخ عن أن حواء خلقت من أب فقط دون أم، خلقت من أحد أضلاع آدم، وهي قصة توراتية ودست في الأحاديث والمرويات .

ووقف الشيخ في قضية "تعليل الأحكام" موقفاً سلفياً متشدداً فهو يقول "الحكمة في كل أمر تكليفي لمن آمن به علته الأمر فالمسلم يفعل كذا لأن الله تعالى قال له "أفعل كذا، ولا يفعل كذا لأن الله قال "لا تفعل" وهل حكمة الأمر عند المأمور به أم عند الأمر؟ هل يعلم الطفل الحكمة في جرعة الدواء المرة حين تشفيه من مرضه. إنما الطبيب الذى وصفها له هو الذى يعلم الحكمة فيها ومنها .

والمسلم يصوم لأن الله تعالى قال له "صم" وحذار من تعليق الحكم على علته والذى يصوم لأن صومه يشفيه من علته نقول له صومك ليس عباده، وليس ناشئاً عن إيمان إنما ذلك صوم بعلة الصوم وليس بالصوم نفسه أذن فالأصل فى المؤمن أن يقبل الأمر من الله دون علة الأمر ولا يعلق عمله على هذه العلة حتى تكون عبادته خالصة وصومه خالصاً لوجه الله تعالى" .

وهناك فتوى للشيخ انتهى إليها بعد أن كد الذهن وقدح زناد الفكر هي أن أعمال المسلمين ستعرض على الرسول ليشفع للمسلمين .

وجاء ذلك فى تفسيره الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾. {٦٤ النساء} ..

وإليك نص ما قاله الشيخ بلغته كما هي مسجلة.. [إذن وجدان الله تواباً رحيماً مشروط بكم حاجة؟ المسألة الأولوية أنتم عرضتم عن الرسول تروحووا له... تستغفروا الله لأن ما أرسل الله رسولاً إلا ليطاع بإذن الله.. يبقى لما تقعد تختلف وياه منقلش إنى اختلفت مع الرسول... لا... أنت اختلفت مع الله، تقوم تستغفر مين؟.. الله.. لكنك لو استغفرت الله، ولم يقبل منك الرسول ذلك ولم يستغفر لك يبقى لا مجيبك ولا

(٥٦) وأنظر أيضاً ما جاء فى هامش ص من هذا الكتاب.

استغفارك الله نافع... مفيش حد أبدا حيصطلىح على ربنا من ورا محمد عليه الصلاة والسلام.. أبدا... مش ممكن حد كده يعمل باب صلح كده ويروح يصطلىح مع ربنا من ورا محمد.. بيبقى ثلاث أشياء: وجدان الله توابا، ووجدان الله رحيمًا مشروط بثلاث حاجات: ١. يجيئونك. ٢. يستغفرون الله. ٣. ويستغفر لهم الرسول حينئذ يجدون الله توابًا رحيمًا" .

ثم قال فضيلته :

"لا أبالغ إذا قلت إنها، يقصد الآية المشار إليها سابقًا، شغلتنى أكثر من عشر سنين نعم، هذه الوقفة حول قول الله: "ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابًا رحيمًا". ذلك يا ربى تمحيص من عاصر رسولك فما بال الذين لم يعاصروه؟ أين المحمص الذى يقابل هذا لمن لم يعاصر حضرة النبى.. والرسول إنما جاء للناس جميعًا يوجد محمص لقوم عاصروا رسول الله ثم يحرم من جاءوا بعد رسول الله من التمحيص؟ هذه مسألة ظلت فى ذهنى ولم أجد لها جوابًا إلا أنى قلت: لقد ثبت عندى وعند بعض أهل العلم أن رسول الله قال: حياتى خير لكم ومماتى خير لكم.. شوف التطمين.. تعرض على أعمالكم فإن رأيت خيرا حمدت الله وإن رأيت غير ذلك عملت إيه؟ استغفرت لكم. أه كان حته استغفار الرسول دى بيستغفرها، بيبقى ما بقى منها إلا أن نستغفر الله... وما بقى منها إلا جاءوك... طيب يجيئون لسننك يجيئون لما تركت... إذا كان هو قال: تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى، فكما أن الأحياء يجيئوننا نحن نجى إلى حكمه نجى على سنته، نجى إلى تشريعه... وهو يستغفر جاهز... بيستغفر لنا كلنا... بيبقى دى حته وانتهت، بيبقى بقى نعمل إيه، نستغفر الله] انتهى<sup>(٥٧)</sup> .

ولا جدال فى أن الشيخ قد شط بعيداً وخالف أصول الإسلام التى تجعل العمل هو ميرر الحساب والعقاب، والتى تجعل التوبة والحسنات تجب الأثم والسيئات والتى لا تعلق ذلك فى العديد من الآيات على شفاعة الرسول

ولما كان للشيخ نفوذ على الجماهير (نسبه أحد الكتب إلى أن الأمية هى ما بين ٦٠ و ٧٠ وأن المتعلمين أنفسهم ليس لديهم سوى ثقافة سطحية) فإن من شأن هذه الفتاوى أن تحول دون تقدم المجتمع، ودون استخدام العقول، فكأنه يوحى الناس السير عميانًا، لأن العقل هو النور الذى يهدى السبيل .

وقد أدى نفوذه الشعبى بكوكبه من ألمع بطلات التمثيل والغناء ومختلف الفنون، بأن يعتزلن وأن ينزوين فى بيوتهن أو يجتمعن للصلاة فى المساجد وإلقاء الدروس أو الاستماع إليها. ولو رزق الشيخ سعة الأفق وصحة النظر لوجههم لخدمة المجتمع وللإفادة من حب الجمهور لهن وإعجابه بهم فى تقبل ما يقمن به من خدمة وإصلاح ولأصبحن خير سفيرات للإصلاح والخدمة الاجتماعية والتوعية والرعاية ..

وقد كان رأينا أن لكل واحد طريقته التى هو ميسر لها. ومن حقه أن يتبعها. وأن الجمهور لدينا كبير ولكل ساقطة لاقطة أو كما يقال "كل فوله ولها كيال" وأن الحكم فى النهاية لا يعود إلى الشخص ولا إلى الطريقة، ولكن إلى المقولة التى ينطق بها ويدعو إليها فإذا كانت سليمة فإنه يقدم إضافة والمجال يتسع لكل إضافة ويحتاج لكل إضافة، ولكن إذا كانت المقولة خاطئة، مضللة، فهنا يحق لنا أن ننقده على أساس موضوعى نزيه يعالج الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان ..

(٥٧) من كتاب "إشكاليات الخطاب الدينى - الأستاذ محمد السعيد ص ١٠٩، ١١٠ .



## تفاسير تطويع الآيات لتحقيق الغايات

لئن كان الشيخ شعراوى قد أوتى براعة كبرى فى تطويع الآيات لما ينتهى إليه اجتهاده للتقرب إلى الله.. فقد ظهر قبله، وبعده.. كتاب يفسرون القرآن تبعا لفكرة معينة سبقت إلى أذهانهم وسيطرت عليهم وجعلتهم يرون أن القضية الحقيقية هى تطويع الآيات بحيث تحقق لهم فكرتهم ...

وقد لا يعرف هذا الجيل أن أحد الشيوخ أصدر من ثلثي قرن تفسيرا يمكن أن يعد الأول والأخير من نوعه فى هذا العصر لأنه ذهب فيه إلى أبعد ما يتصور فى التأويل الذى يقسر أو يخالف ظاهر النص. الأمر الذى أثار ثائرة المجتمع ودفع السلطات لمصادرة الكتاب، كما رفعت دعوى على الرجل أمام إحدى المحاكم فحكمت ابتدائيا بكفره وارتداده، وإن تغير الحكم النهائى بعد ذلك عندما أعلن توبته وإنابته. ذلكم هو الشيخ محمد أبو زيد الذى التحق مدة بالأزهر، ومدة أخرى بدار الدعوة والإرشاد التى كان قد أسسها بالقاهرة الشيخ رشيد رضا وأصدر عددا من الأبحاث اتسمت بالجرأة سواء كانت هذه الجرأة طلبا للشهرة أو انعكاسا لفكره واجتهاده. فأصدر كتيبيا باسم "الزواج المدنى" أنكر فيه التسرى وملك اليمين وأخيرا وفى الفترة ما بين ١٣٤٧ و١٣٤٩ أصدر كتابه "الهداية والعرفان فى تفسير القرآن بالقرآن" والكتاب ليس لدينا لأنه صودر وأعدم فى حينه ولكن لدينا كتابا أصدرته جمعية حياة الإسلام بدمنهور فى شهر ذى الحجة سنة ١٣٤٩ بعنوان "تنوير الأذهان وتبصرة أهل الإيمان فى الرد على كتاب أبى زيد المسمى الهداية والعرفان فى تفسير القرآن بالقرآن" ومن هذا الرد يمكن أخذ فكرة عن تأويلات الكاتب .

فهو يؤول قوله تعالى فى سورة الأعراف ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ. وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ﴾. بأنه "مثال من قوة حجته وظهور برهانه". وعن الآيات الخاصة بضرب البحر بعصاه يقول "أضرب بمعنى أطرق. والبحر الماء الكثير فانفلق بيان لكون المياه مناطق بينها طرق ناشفة يابسة والقصد أن الله هدى موسى إلى الطريق اليابس بين البحار" .

وقال فى قوله تعالى ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾. أن المهدي هو دور التمهيدي للحياة، علامة على الجرأة وقوة الاستعداد للآزمين لشأن الرسالة ثم قال ويصح أن يكون المعنى يكلم الناس الصغير منهم الكبير علامة على تواضعه ومباشرة دعوته بنفسه .

أما معجزات عيسى فقد فسر الآية ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. "يفيدك التمثيل لإخراج الناس من ثقل الجهل وظلماته إلى خفة العلم ونوره" وعن قوله تعالى ﴿وَأَبْرَأُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ﴾. الأكمه من ليس عنده بصر.. والأبرص المتلون بما يشوه الفطرة.. وعن "وأحيى الموتى" معناه مشترك بين موتى الأجساد وموتى القلوب والنفوس وموتى الجهل والاستعباد وموتى الاتهام والحكم بالإعدام .

وهو ينكر معجزة الإسراء، ويرى أن المقصود بالآية ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾. "أنه الهجرة من مكة إلى المدينة وأن المسجد الأقصى هو مسجد المدينة" ..

أما عن الملائكة فهم عنده "رسل النظام وعالم السنن" فإذا جوبه بالنص ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾. أو ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾. فإنه يقول عن الأولى "وسجودهم للإنسان معناه أن الكون مسخر له" وعن الثانى "يمثل لك السرعة فى إجراء سننه فى الكون وتنفيذ أوامره فى العالم" .

وفى تفسير قوله تعالى ﴿فَسَجِدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾. إبليس اسم لى مستكبر على الحق ويتبعه لفظ الشيطان والجان وهو النوع المستعصى على الإنسان تسخيريه وفى تفسير قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾. "الإنسان النوع الهادئ صاحب الطبع الطينى الذى تشكله كما تريد. والجان النوع المتشرد صاحب الطبع النارى الذى إذا قاربته يؤذيك ويغويك ولا تستطيع أن تمسكه وتعده والنوعان موجدان فى كل أمة" وقال فى تفسير قوله ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنَّ﴾. يفهمك أن هؤلاء نفر من زعماء بنى إسرائيل. وعن تفسير قوله تعالى ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنَّ فَرَاذُوهُمْ رَهَقًا﴾. يحيل على كثير من سور القرآن ثم يقول: "من هذا نفهم أنه يطلق الجن والجنة على الزعماء والمتكبرين من السادة المتبوعين، ويعبر عن الإنس بسائر الناس المقلدين والتابعين المستضعفين".

ولما كان الشيخ ينكر الرق، فقد أول كل الآيات التى تضمنت إشارة إليه فى تفسير قوله تعالى ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحِ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾. يقول: "فيه عناية بالخدمات وتسهيل لمن يريدون الزواج ولا يستطيعون النفقات على ذوات البيوتات وفى هذه الآية رد على الذين يتخذون ملك اليمين من الخدمات والوصيفات للتمتع بهن كالزوجات بحجة أنهن مشتريات بالمال أو أسيرات بالحرب، فليس فى الإسلام عرض امرأة يستباح بغير الزواج مملوكة كانت أو مالكة" وفى قوله تعالى ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾. "خادميكم وخادماكم".

ويفسر الربا فى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ بأنه "الربا الفاحش وبمعنى آخر الربح الزائد على حده فى رأس المال وتقدره كل أمه بعرفها".

وقد أول آيتى عقوبة السرقة والزنا تأويلاً خاصاً فعن الآية ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. "المتعود أى أن السرقة صفة من صفاتهم الملازمة لهم، ويظهر لك من هذا المعنى أن من يسرق مرة أو مرتين ولا يستمر فى السرقة ولم يتعود للصوصية لا يعاقب بقطع يده، لأن قطعها فيه تعجيز له، ولا يكون ذلك إلا عند اليأس من علاجه" وعن الآية ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾. يقول: "يطلق هذا الوصف على المرأة والرجل إذا كانا معروفين بالزنا، وكان من عادتتهما وخلقهما، فهما بذلك يستحقان الجلد" (٥٨).

وأورد الشيخ رأيه فى السنة فى مقدمه كتابه فتحت عنوان "السنة" قال: (والسنة هى الطريقة العملية فى تطبيق الكتابات، فوظيفة الرسول تبليغ الكتاب وهداية الناس بالعمل به).

\* \* \*

وأسوأ مما ذهب إليه الشيخ أبو زيد، وأكثر إغراقاً فى الانحراف ما فسر به منتبئ السودان محمود محمد طه آيات القرآن الكريم فى تضاعيف كتاباته مما قد لا يتسع له المجال، ولكن يكفى فحسب أن نورد

(٥٨) بالإضافة إلى ما ذكرناه من رجوعنا إلى كتاب تنوير الأذهان وتبصره أهل الإيمان فى الرد على كتاب أبى زيد المسمى الهداية والفرقان فى تفسير القرآن بالقرآن، والذى أشرنا إليه فى مستهل الفقرة، فإننا عدنا أيضاً إلى تقرير اللجنة الأزهرية التى تكونت للنظر فى هذا الكتاب وضمت الشيخ عبد الهادى الفرغانى والشيخ محمد العنانى، والشيخ محمد عبد اللطيف السبكي والشيخ محمد عبد السلام والشيخ محمد محيى الدين. وقد رفعت اللجنة تقريرها إلى الشيخ محمد الأحمدي الظواهرى شيخ الأزهر ونشرت مجلة نور الإسلام هذا التقرير فى عددين من أعدادها أولهما الصادر فى صفر ١٣٥٠ - ١٩٣١ من ص ١٦٢ إلى ص ٢٠٥ والثانى الصادر فى ربيع الثانى من ص ٢٤٩ إلى ص ٢٨١.

هذا التفسير لسورة الزيتون، كما أثبتته الدكتور المكاشفي في كتابه عن ردة محمود محمد طه قوله تعالى: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ (١) وَطُورِ سَيْنِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾. {٥ التين} ..

التين والزيتون والبلد الأمين يعنى العقل والجسد والقلب أى توحيد العقل والجسد والقلب يكون الإنسان فى أحسن تقويم (وهى مرتبة الذات الإلهية) أما أسفل سافلين فهى ذرة غاز الأيدروجين، وهى بداية سلم الترقى يقول "وفى أسفل سافلين كان آدم فى أدنى درجات التجسيد - ذرة غاز الأيدروجين ثم أنه استأنف سيره فى طريق الرجعى إلى موطنه القديم أو المصب القديم - الذات الإلهية - وهى منزلة أحسن تقويم" .

"والمعنى البعيد لهذه الآية، وهو معنى بعيد حقاً - فكان فى إحدى كفتى الميزان "الله" الحقيقة وفى الأخرى "الإله" وفكرة الإله تبدأ من الباطل وتدخل مداخل الحق. وإنما يطلب الحق الحقيقة، يطلب الحق أن ينطبق على الحقيقة تمام الانطباق، فالإله بمعنى آخر هو ما تصورنا "الله" وهو تصور مهما بلغ من الكمال قاصر قصوراً مزريراً، وبإيجاز من الناحية العلمية والتطبيقية، فإن إله كل إنسان نفسه" (٥٩) .

وهناك اختلاف بين ما ذهب إليه الشيخ محمد أبو زيد، وما ذهب إليه المهندس محمود محمد طه. فالشيخ أبو زيد كان يجتهد دفاعاً عن الإسلام. ومحاولة منه لإثبات اتفاهه مع المبادئ والأصول الحديثة فى فترة انحسار الفكر الإسلامى ما بين العشرينات والأربعينات وهيمنة المد الاستعمارى والفكر الأوروبى. وقد يشفع له، على انحرافه حسن النية، أما محمود محمد طه فقد قام بدعوته بعد نهضة الفكر الإسلامى ليقيم رؤية للإسلام من عندياته وقذف بنفسه فى اللجج والمتاهات ما بين فرويد ودارون وماركس من ناحية، والحوليين من المتصوفة والفلاسفة فضل، ودعا لنفسه. وقد أوتى لحنا وجدلاً وذكاءً، ولكنه أخلد إلى الأرض، وهو يظن أنه ارتفع إلى السماء .

(٥٩) كان الدكتور المكاشفي هو قاضى المحكمة التى حكمت بردة محمود طه وبإعدامه. وعندما ثارت ضجة بعد تجميد قوانين الشريعة - أصدر كتابه هذا عن المحاكمة وأثبتت بالدليل القاطع أنه مرتد، كما عرض - بإفاضة - وجهة النظر التقليدية التى يأخذ بها الجمهور عن الاستتابة فالقتل. كما أورد فتاوى هيئات مصرية وسعودية بردته وقد لفتت دعوة محمود محمد طه نظراً عندما كنا نزرور السودان فى السبعينات، وحاصرنا مريداته من النساء بالمطبوعات التى ينشرها، وكن يعرضها للبيع بكل حماسة وإلحاح. وأشرنا فى كتابنا "الدعوات الإسلامية المعاصرة" الذى صدر سنة ١٩٧٨ إلى دعوة "الإخوان الجمهوريين" وزعيمهم محمود محمد طه. وقلنا دعوه ما دام يقول "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وكنا نظن أنه مجتهد أخطأه التوفيق ولكن قراءتنا لبقية كتبه لم تدع شكاً فى أنه فرغ "لا إله إلا الله" من مضمونها لأنه ذهب مذهب الحلول وصرح أكثر من مرة بالإنسان الإله، وأن لكل شخص شريعته الخاصة ويأخذ من الله مباشرة أو "كفاحاً" على حد تعبير وأن مرحلة الإنسان الكامل "تجعل هذا الإنسان" يحيا حياة الله عالماً علم الله مريداً إرادة الله قادراً قدرة الله ويكون الله.. كما أنه فرغ الشطر الثانى من الشهادة "محمد رسول الله" لادعائه أنه رسول "الرسالة الثانية" وهذه الأقوال وأمثاله تخالف العقيدة وتنحرف بها، على أننا لو فرضنا أن هذا التجاوز وصل إلى حد الردة فنحن لا نرى قتل المرتد، بعد استتابته، فالأحكام التى توردها كتب الفقه تجافى الآيات العديدة فى القرآن الكريم عن يرتد، وتناقض روح الإسلام وجوهره. والأحاديث التى يعتمدون عليها لا تحقق ما يريدون، وقتال أبى بكر للمرتدين" شىء آخر تماماً، فقد كان فيهم من يؤمنون بالإسلام، ويرددون الشهادتين ويقومون الصلاة - لكن دون الزكاة أو الاعتراف بالخلافة فهم فى حقيقة الحال خوارج، يتعين على الدولة قتالهم على هذا الأساس. وقد أصدرنا كتاباً خاصاً بوجهة نظرنا هو "حرية الاعتقاد فى الإسلام"، وهو. يقرر حرية الاعتقاد إيماناً وكفراً فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. دون أى عقوبة أو ضغط ولكن الرد عليه بالحجة والبرهان بالبرهان .

## الفصل الرابع مجالات جديدة للتفسير

### (١) التفسير العصري للقرآن

بقدر ما أدى انحسار الفكر الإسلامى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر إلى محاولات التطويع التى أشرنا إلى بعضها، بقدر ما ازدهر الفكر الإسلامى بفضل نجاح الإخوان فى تقديم الإسلام كمنهج حياة. وما تلا ذلك من أحداث مثل حرب أكتوبر التى شنت تحت لواء "الله أكبر" ومثل المرحلة النفطية فى السعودية ومثل الثورة الإيرانية الإسلامية الخ...

ولا ريب أن هذا الاتجاه له حسناته ومآخذه، وهو بعد لا يعد بدعا لأن من الممكن أن يدخل فى أحد مذهبى التفسير القديمين، مذهب النقل ومذهب الرأي، ويمكن للضوابط القديمة أن تضبط هذا الاتجاه الجديد حتى وأن كان يمثل نزعة جديدة مما سمح بظهور مجالات جديدة للتفسير أبرزها التفسير العصري للقرآن والإعجاز العلمى للقرآن .

وأبرز المعاصرين من دعاة التفسير العصري هو الدكتور مصطفى محمود الذى بدأ حياته بالشك والإلحاد وقطع مسيرة طويلة حتى بلغ شاطئ الإسلام والإيمان، ومكنته ثقافته وصلاته الوثيقة بالصحافة ووسائل الإعلام الأخرى أن يكتسب شهرة كبيرة، وأن يعرض أفكاره عن هذا الموضوع فى برنامج التليفزيونى العلم والإيمان وأن يسجلها فى عدد من الكتب لاقت رواجاً كبيراً، فضلاً عن كتاباته العديدة وإذاعاته الكثيرة .

ولكن الدكتورة عائشة عبد الرحمن أو "بنت الشاطئ" كما توقع كتاباتها كان لها رأى آخر، وما أن شرع الدكتور مصطفى محمود فى نشر مقالاته عن التفسير العصري حتى تصدت بسلسلة من المقالات وصفته "بالأفيون العصري" نشرتها فى الأهرام جاء فيها :

"عبثاً حاول الغزو الإلحادى أن يفض المسلمين عن دينهم القيم بالمقولة الرائجة المشهورة: الدين أفيون الشعوب .

وأخشى ما أخشاه هو أن الصياغة المبتدعة لفهم القرآن الكريم وتأويله بغير علم أن تتول بال جماهير، مع إيمان تعاطيها، إلى أن يكون الدين، فى صياغته المحدثه، هو الأفيون المخدر لوعيتها، من حيث لا تدرى ..

لقد دخلت هذه البضاعة سوق الكتاب والكلمة، بضجيج إعلامي صاخب، فزاحمت فيها مخدرات الجنس والجريمة، التى تعزف عنها الجماهير المتدينة لظاهر جرأتها على الدين وخروجها على التقاليد والأعراف

لكن المتدينين لا يجدون أى حرج على الإطلاق من تعاطي ما يقدم إليهم باسم الدين والعلم، بتمويه خبيث ماكر، يفوت على غير الراسخين فى العلم .

وما أيسر رواج هذا المخدر العصري .  
إن مورديه ليسوا كتجار الحشيش والأفيون، يطاردهم رجال المخابرات بجهاز مكافحة المخدرات،  
ويتعقبون حركاتهم وإشارتهم .

ثم إن المجتمع يغض عادة، ممن يدمنون على تعاطي الحشيش والأفيون، ولا يرى فيمن يتعاطى  
الأفيون العصري، إلا سمات الصلاح والتقوى .

فباسم الدين والعلم. راحت مخدرات الصياغة الجديدة لفهم الإسلام وتأويل كتابه، في السنوات التي  
أعقبت كارثة الساعات الخمس من شهر يونيو المشؤوم سنة ١٩٦٧ وتعاطاها المسلمون- الشباب منهم  
بخاصة- فما زالت عليهم وهم في خشية دوار الصدمة، بجاذبية الاستهواء وخلافة العرض ومكر الاستدراج،  
حتى أدمنوها .

وبلغت بهم فتنة الاستهواء، أن جازت عليهم في غفلة من الوعي دعوى "أمير الجماعة التي سترث  
الأرض ومن عليها" .

كما جازت عليهم، وعلي ملايين مثلهم، في غفلة من الوعي، دعوى كاتب صحافي، إن:  
"جبريل يمكن أن ينزل إلي الأرض في أية صورة، ويحمل الوحي إلي أي نبي في أي عصر وبأي  
لغة" .

وألقي الناس سمعهم وهو يقول :  
"إذا توكلنا علي الله فلن نخاف الحرب ولا القنبلة ولا المرض ،فإننا أدركنا وحدة الفاعل، وإنه لا  
فاعل في الحقيقة إلا الله.." .

أفق إلي نفسك فأنت غير موجود، أنت ظل شانك شان الظل موجود علي الأرض مادامت الشمس في  
كبد السماء، فإذا غربت لم يعد لك وجود" .

"في أية: "وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون" من القوانين الإلية التي  
نعرف الآن الكثير منها: قانون الضغط الأزموزي، قانون التوتر السطحي، وتماسك العمود المائي، والتوازن  
الكهربائي والأيوني في المحاليل وقانون التفاضل الكيميائي، وقانون رفض الفراغ، وقانون رد الفعل" .

وفي ثنايا هذه الألفاظ الرنانة الخلافة، تعاطي الناس مخدرات سامة من مدموس الإسرائيليات وبدع  
التأويل رجما بالغيب وزور الفتاوي :

"كان عقاب آدم علي خطيئته هو الطرد والإحباط من الجنة إلي الأرض والنزول إلي أسفل سافلين  
وهي هاوية التيه المادي إلي طين المستنقعات إلي مجرد جرثومة في طين الأرض: وكان علي آدم أن يخرج  
من هذا التيه المادي في انبثاق متدرج عبر خمسة آلاف مليون سنة كما تقول لنا علوم البيولوجيا، عبر  
مراحل وأطوار بدأت: بالخلية الأولى والأميبيا، صعدا إلي: الأسفنج والرخويات والقشريات" .

"فرض الحجاب علي النساء. إرهاف لغريزة الرجل الجنسية" كما تعلم الكاتب من رحلته إلي قبائل  
العرابة في أعماق أفريقية .

"لو أخذنا آية الأمر بغض البصر، بظاهر حروفها.. فسوف نجد إن الحياة الطبيعية في زماننا، زمن  
المينى جيب والديكولنتيه والجابونيز والصدر العريان والشعر المرسل والباروكات الذهب، أمر صعب والسير

في شارع عماد الدين أو فؤاد أو سليمان باشا "كذا" سيرا مطابقا لحروف الآية، هو الأمر العسير. ونحن قد نرى وجهها فهنتف بالقلب إعجابا: الله: ونقصد الخالق الذي صور، وليس المخلوق فلا تكون هذه النظرة حلالا فقط وإنما تكتب لنا حسنة".

مع قوله باحتمال أن تنتهي الحياة علي الأرض بحرب ذرية من الصين، فيكون قيام الساعة بعد نحو ثلاثين سنة، كتأويل رؤيا يوحنا اللاهوتي

وتقريره إبطال الجزاء في الآخرة بنص قوله :

"إن كل ما جاء عن الجنة والجحيم- في القرآن- ما هو إلا ألوان من ضرب المثال وألوان من الرمز. والذير للضالين بعذاب جهنم "مثل تخويفك لابنك حينما تحذره من إهمال نظافة أسنانه وتقول له: إذا لم تنظف أسنانك بالفرشاة فان الفئران سوف تأكل أسنانك وبالطبع لن تأكل الفئران أسنانك".

"حتى الحساب هنا، يبدو أنه حساب النفس للنفس، تعالي ذو الجلال أن يحاسب أمثالنا وأن يعذب أمثالنا: ولكن هذه المعاني تضيع في النظرة المتعجلة والقراءة السطحية والوقوف عند الحروف وعند جلجلة الألفاظ: أكاد أجزم بأن ألفاظ القرآن بما فيها من جلجلة وصلصلة حينما تصف الجحيم، إنما هي نذير حقيقي لأنفسنا عدلا وصدقا.. وأكاد أضع يدي علي الحقيقة لا ريب فيها".

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ . صدق الله العظيم<sup>(60)</sup>

وبعد ثلاث سنوات تقريبا عاودت الدكتورة بنت الشاطي هجوما المعهود. فنشرت في جريدة الأهرام كلمة تحت عنوان «ذلك مبلغهم من العلم جاء فيها»<sup>(61)</sup>.

"لطف الله بأممتنا، ما إن يهل الشهر المعظم<sup>(62)</sup> حتى تفرز لنا أجهزة الإذاعة والنشر صنفين من العلمانيين :

الصنف الأول: وحديث اليوم عنه، مذيعون وصحفيون، يخوضون فيما لا علم لهم به من القرآن الكريم والحديث الشريف وعلوم العصر ومجهول الغيب، في وجبات يومية علي موائد الصحف، ومسلسلات رمضان مذاكرة علي أوسع نطاق، تلح علي الناس بذرائع تشويه عقلي وديني فادح بما تبث فيهم من بدع تأويل للقرآن الكريم.

في مقال علماني مثلا، يلتقط أحدهم حديثا رواه الترمذي كذا في الحشرات تسمعنا ولا نسمعها - وقد يكون الترمذي ضعف الحديث بعله من علل الإسناد أو المتن ويهيم بنا المقال العلماني في صحراء كاليفورنيا ليفرجنا على صندوق العجب من تجارب مسبيرو<sup>(63)</sup> ففي مسلسل "الإعجاز العلمي للقرآن الكريم" تقدم بدع من التأويلات العلمانية، في كل حلقة ثلاث آيات، أو كلمات منها مبتورة من سياقها تؤول بأخر ما وصل إليه العلم الحديث عند علماء مسبيرو، منها مثلا: تأويل قوله تعالي: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾. { ١١ الصافات}.. بما اكتشف العلم الحديث من عناصر تكوين التربة المماثلة تماما لتكوين الجسم البشري: النتروجين والهيدروجين والأكسجين والصوديوم والبوتاسيوم والمغنسيوم والأزوت والحديد والهرمون

(٦٠) جريدة الأهرام ١٩٧٧/٩/٨.

(٦١) الأهرام ١٩٨٠/٩/٨ ص ١٣.

(٦٢) أي شهر رمضان.

(٦٣) تشير الكاتبة إلى التلفزيون المصري.

والبروتين والسيروتونين.. إلى نحو عشرين عنصراً رددتها الفرقة الإذاعية العلمانية، في سرد ابله، وقوله تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ {٢٥ الحديد}.. إعجازه العلمي أن العلم الحديث اكتشف أن عناصر الحديد تنزل من السماء. بقوانين الهيدروليكا والديناميكا "والبوليتيكا" وما لا أدري مما أخره "يكا".

ولقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾. {١٢ الطارق} ..

بترت الآيات من سياقها مع الآيات قبلها وبعدها في رجع الإنسان ليوم البعث والحساب، لنسمع من إعجازها العلمي ما تقوله الجيولوجيا والانثروبولوجيا (والمنولوجيا) من إرجاع السماء ما تمتصه من بخار مياه المحيطات والبحار، ومقداره كذا من ألوف الأطنان في الساعة إلى شقوق الأرض بمقتضى قوانين البخر والتكثيف والامتصاص والجاذبية والرجع والصدع ..

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ {٣ الانفطار}.. ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ {٦ التكوير}.. بترت الآيتان من سياقها في أحداث يوم القيامة حيث تنفض السنن الكونية فتنشر النجوم وتبعثر، وترج الأرض وتزلزل وتذك الجبال وتتساقط ما اكتشفه العلمانيون من إعجازها العلمي آخر ما وصل إليه العلم الحديث من تقجير الذرة في البحار وما يحدث من عمليات كهربية ومفاعلات" انتهى .

\* \* \*

ونعتقد أن من حق الكاتب الذى وجهت إليه الدكتورة بنت الشاطىء هذا الهجوم العنيف أن يدافع عن نفسه وأن يدلى بوجهة نظره وهذا ما أتاحت له الهلال عندما أجرت له فى عددها الخاص عن القرآن الذى أصدرته فى ديسمبر ١٩٧٠ لقاء صدرته بالكلمة الآتية :

كانت المحاولة التى قتم بها مصطفى محمود لتفسير القرآن من المحاولات المتميزة فى التفكير الدينى الإسلامى المعاصر، وقد أحدثت هذه المحاولة ردود فعل واسعة فى أوساط رجال الدين، فكان هناك عدد كبير منهم يعارض هذه المحاولة ويرى أن مصطفى محمود ليس مؤهلاً لتقديم تفسير للقرآن حيث أن هذا التفسير يحتاج إلى ثقافة دينية واسعة لم تتوفر لمصطفى محمود، ووافق قليلون من رجال الدين على محاولة مصطفى محمود، وحثهم فى ذلك أن باب الاجتهاد مفتوح أمام كل المسلمين. ولكن المهم فى هذه المحاولة أنها أخرجت القضايا الدينية من حدود التخصص إلى ميدان رحب من المناقشات العامة، فقد كان قراء الصحف من المواطنين العاديين يقرؤون ما يكتبه مصطفى محمود ويناقشونه ويتفقون معه أو يختلفون.. وهذا فى حد ذاته يعتبر نتيجة طيبة بالنسبة للقضايا الدينية نفسها فقد تحولت من خلال تفسير مصطفى محمود للقرآن إلى قضايا عصرية يناقشها الناس ويتحدثون فيها وذلك ولا شك أفضل بالنسبة لهذه القضايا من أن تعيش محبوسة فى المتخصصين من رجال الدين وحدهم. وفى هذا اللقاء مع مصطفى محمود يجيب صاحب "التفسير العصرى" على عدد من الأسئلة التى تحدد موقفه وتوضح آراءه المختلفة :

فى هذا اللقاء أجاب الدكتور مصطفى محمود عن تفسيره لما فى الجنة من أنهار من العسل واللبن ومختلف الطيبات بأنها مجرد رموز فقال :

. أنا لم أنكر اللذة الحسية فى الآخرة، وإنما قلت بأن هذه اللذة الحسية لا أحد يعرفها تفصيلاً. فليس العسل المحكى عنه فى القرآن هو العسل الذى نعرفه، ولا اللبن، ولا النساء هن النساء، وإنما هى درجات من اللذة هى بالنسبة إلينا غيب كأن يقول فنان مثلاً :

## كانت امرأة جميلة كالضياء .

إن الفنان هنا، يورى حلمه ومثله الأعلى، وبالمثل يمكن أن تكون الجنة ولذتها هي من نوع هذه المراتب العليا التي لا نعرف لها مثيلاً على الأرض. وأذكر أيضاً أنني قلت إن نعيم الروح درجات يبدأ من المتع الحسية ويرتفع حتى يصل إلى مقام الأنبياء الذين ينعمون بالله ذاته وبجمال وجهه وبحضرتة الجلالية وفي ذلك يقول القرآن عن الرجل التقى إنه :

﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ {٥٥ القمر} ..

فهنا نجد أن الجنة هي الجوار المطلق للحضرة الإلهية وهو أقصى ما يمكن أن يتصوره الإنسان من سعادة ولا يجب أن نفهم من القرآن أن آياته نزلت لإشباع أحلام الفقراء وإنما القرآن يقدم لنا منتهى العلم .

## ومرة أخرى سأله المحرر .

. لقد أثرت قضية هامة هي قضية الدين والعلم. فهناك اتجاه يحاول باستمرار أن يربط بين أي كشف علمي جديد وبين نصوص قرآنية مختلفة، علي أساس أن العلم لم يأت بجديد بدليل وجود إشارات إلي العلوم الحديثة في القرآن، وأعتقد أنك لجأت إلي ذلك.. فمثلاً تدلل علي كروية الأرض في القرآن مستشهداً بما جاء في ﴿يَكْوَرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكْوَرُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ﴾. {٥ الزمر}.. وشرحت ذلك بقولك "وهي آية لا يمكن تفسيرها إلا أن نتصور أن الأرض كروية" وتستشهد بقول الله تعالى "ثم إن علينا بيانه" وتقول شارحاً "أي أنه سوف يشرحه ويبينه في مستقبل الأعصر" .. وغير ذلك من الاستشهادات العلمية الكثيرة وهذا الكلام يطرح عدة تساؤلات مثلاً.. ألا يعني ذلك أن الذين نزل عليهم القرآن وآمنوا به منذ حوالي ١٤٠٠ عام مضت لم يفهموا عدداً من آياته لأن الوسائل العلمية لم تكن متاحة لهم مثلما هي متاحة لنا الآن؟ .

. ما الحكمة في أن ينزل الله آيات علي قوم لن يفهموها وإنما سيفهمها من سيأتون بعد ١٤٠٠ سنة؟ .

. هل علي العلماء أن يبدعوا بدراسة القرآن أولاً قبل أن يدرسوا المؤلفات العلمية وقبل أن يتوجهوا للمعامل مادام في القرآن كل شيء، عن العلم؟ .

. العلم له مجاله. وأنا لم أقصد الحجر علي العلماء باسم القرآن وإنما كل ما قصدته أنه لا يوجد تناقض بين القرآن وبين الحقائق العلمية الثابتة ولا يعني هذا أن نكف عن البحث العلمي لمجرد أننا نملك "القرآن". هذا فهم خاطئ لكلامي.. وأنا أقول إن القرآن لم يفضي إلينا بكل أسرارهِ إلي الآن .

وحكمة الله واضحة في أنه لم ينزل كتابه علي الناس ليفهم كله وينتهي من أمره في أول جيل. وإنما أنزله للعالمين وليكون سرا ييسط سلطانه علي كل الدهور ويتحدى جميع العقول وبالنسبة للنقطة الثالثة. فأنا لم أقل هذا الكلام فالعلم له مجاله والقرآن له مجاله. والعلم له أدواته والدين له وسائله. ولا يصادر أحدهما علم الآخر ولا يحتكر أحدهما علم الآخر". (64)

\* \* \*

والذي لا ريب فيه أن التعسف في تأويل القرآن أو المضي به شططا وتطويعه ليتفق مع مبدأ علمي ينم عن عدم فهم لجوهر القرآن ورسالته ويصبح تهاافتا لا يكسب القرآن شيئاً، فالقرآن قد كان، وسيظل دائماً



أعظم وأبقى من كل هذه المكتشفات والمخترعات والنظريات ولن يكون إلا محاولة جديدة فاشلة كمحاولات عديدة قديمة اعتبرت شاذة، ونبذت. وفي الوقت نفسه فإن تجاهل اتفاق آيات قرآنية بحكم صريح ألفاظها مع النواميس الكونية يعد وصولاً من النقيض إلى النقيض ومخالفة لنهج القرآن الذي جاء مصداقاً وشارحاً للسنن الإلهية في الكون ومستدلاً بها على حكمة الله ..

وقد تجدر الإشارة إلى أن بعض التأويلات التي تضمنتها التفسيرات العصرية ليست جديدة تماماً. وقد تحدث ابن تيمية في رسالته "الإكليل في المتشابه والتأويل" عما في الجنة من أنهار من لبن وخمر وهل هي حقيقة يجرى فيها لبن وخمر كما يعرفها الناس أو أنها رموز لتفهم "النعيم الروحاني" ورأى أنها من المتشابه، لأن الله تعالى يقول ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ {١٧ السجدة}.. ويقول "أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر". وقد قال ابن عباس "ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء فإن الله قد أخبر أن في الجنة خمرًا ولبنًا وماء وحريراً وذهباً وفضة وغير ذلك ونحن نعلم قطعاً أن تلك الحقيقة ليست مماثلة لهذه، بل بينهما تباين عظيم مع التشابه كما في قوله ﴿وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ {٢٥ البقرة}.. على أحد القولين أن يشبه ما في الدنيا وليس مثله، فأشبه اسم تلك الحقائق أسماء هذه الحقائق من بعض الوجوه. فنحن نعلمها إذا خوطبنا بتلك الأسماء من جهة القدر المشترك بينهما، ولكن لتلك الحقائق خاصية لا ندركها في الدنيا ولا سبيل إلى إدراكها لها لعدم إدراك عينها أو نظيرها من كل وجه. وتلك الحقائق على ما هي عليه تأويل ما أخبر الله به. وهذا فيه رد على اليهود والنصارى الصائين من المتفلسفة وغيرهم فإنهم ينكرون أن يكون في الجنة أكل وشرب ولباس ونكاح ويمنعون وجود ما أخبر به القرآن. ومن دخل في الإسلام وناقى المؤمنين تأول ذلك على أن هذه أمثال مضرورية لتفهم النعيم الروحاني إن كان من المتفلسفة الصائبة المنكرة لحشر الأجساد وإن كان من منافقة الملتنين المقرين بحشر الأجساد تأول ذلك على تفهم النعيم الذي في الجنة من الروحاني والسماع الطيب والروائح المعطرة. كل ضال يحرف الكلم عن موضعه إلى ما اعتقد ثبوته ، وكان في هذا أيضاً متبعاً للمتشابه إذ الأسماء تشبه الأسماء والمسميات تشبه المسميات ولكن تخالفها أكثر مما تشابهها فهؤلاء يتبعون هذا المتشابه ابتغاء الفتنة بما يوردونه من الشبهات على امتناع أن يكون في الجنة هذه الحقائق وابتغاء تأويله ليردوه إلى المعهود الذي يعلمونه في الدنيا قال الله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ {٧ آل عمران}.. فإن تلك الحقائق قال الله فيها ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾. {١٧ السجدة}.. لا ملك مقرب ولا نبي مرسل<sup>(65)</sup>.

بل أن ما أورده الدكتور مصطفى محمود عن الحسنه التي تكتب لمن يرى امرأة جميلة فيهتف "الله" باعتبار ذلك إعجاب بقدرة الله جاء بنصه تقريباً في تفسير سورة النور لابن تيمية "وإذا قال أحد أنا ما انظر إلى المليح الأمرد لأجل شئ ولكن إذا رأيته قلت سبحان الله تبارك الله أحسن الخالقين"<sup>(66)</sup>.

وبالنسبة لعلوم الفلك والطبيعة واستلهاهم تفسيرها من القرآن نجد هذا النص "روى البيهقي أن بعض

(٦٥) الإكليل في المتشابه والتأويل تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية نشر مكتبة أنصار السنة المحمدية (١٣٦٦-١٩٤٧) ص ١٢-١٣.

(٦٦) وقد رفض ابن تيمية هذه الدعوى ورأى أن جعل هذا النظر المحرم عبادة بمثابة جعل الفواحش عبادة وأن تخصيص عبادة التسبيح عند رؤية المرأة الجميلة إنما يعود إلى أن الجمال يغير قلبه وعقله وقد يذهله لما حصل في نفسه من الهوى.

(تفسير سورة النور لابن تيمية مققه وشرح أحاديثه محمود إبراهيم زايد ودكتور عبد المعطى قلجى - دار الوعى - حلب ١٩٧٧ ص ١٣٨).

الفقهاء قال يوماً لأبى الحسن الأنبارى الحكيم المهندس الذى كان يقرر كتاب المجسطى لعمر الخيام ما تدرس فقال أفسر آية من كتاب الله فقال له الفقيه وما تلك الآية قال الأنبارى قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ {٦ ق}.. فأنا أفسر كيفية بنائها<sup>(67)</sup>.

ولكن للقضية جانباً آخر لا يدور حول الموضوع ومدى صحة وسلامة المبدأ أو خطأ وصواب المنهج، أو توفيق هذا الكاتب أو عدم توفيقه، ولكنه يدور حول الذين يكون لهم الحق فى تفسير القرآن وأن هذا الحق يجب أن يقصر على المتخصصين وقد شرحت هذه الفكرة الدكتوراة بنت الشاطىء أكثر من مرة كان آخرها كلمتها فى جريدة الأهرام تحت عنوان "هذا بلاغ للناس" جاء فيها :

"حديث اليوم عن صنف آخر من موردى بضاعة العلمانية، أطباء وزراعيون وعلماء فى القانون والفلك والطبيعات يتصدون لتأويل القرآن بعلوم العصر وليسوا من أهل العلم بالقرآن ولا فكرة لديهم عن علومه التى جاوزت ثمانين علماً ..

البلاء بهم أفدح والفتنة بهم أشد .

العوام يتلقون بضاعتهم العلمانية مأخوذين بألقابهم العلمية ذات القيمة والاعتبار مبهورين بما يخرجون من جرابهم العلمانى من عجائب ما اكتشفوه فى القرآن الكريم من نظريات ومعادلات وقوانين علمية موضحة برسوم بيانية لمسار الأفلاك وطبقات الجو وجيولوجيا القمر وقوائم إحصائية لمقاييس الأبعاد وأوزان العناصر وذبذبات الأذن وطاقة تفجير الذرة وأعمار العصور الجيولوجية وحركة الأجرام السماوية .

والمختصون فى هذه العلوم يزدرون تزييف العلمانية العصرية لمصقات قرآنية على علوم الطبيعات والرياضيات. مقابلة على ما يفنون أعمارهم فى دراسة قانون أو نظرية منها على علماء الاختصاص فيها، ويعجبون لمقتطفات من كلمات قرآنية مبتورة من سياقها تؤول بعلوم لم تقف عند المعروف منها اليوم، بل تظل أبداً تتلقى جديداً فيها من جهود الأجيال المتعاقبة من العلماء والمكتشفين .

مقال فى الجاذبية وقوانينها يلصق عليه بعض الآية :

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾. {٢ الرعد} ..

وبحوث فى علم الأجنة منقولة من عشرات المراجع الأمريكية تقدم فى تفسير قوله تعالى ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾. {٢ العلق}.. ومقال فى سفن الفضاء تلتصق عليه آية مبتورة من سياقها فى الوعيد: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾. {١٩ الانشقاق} ..

ويقال: يجتهدون ولهم أجرٌ إذا أخطأوا وأجران إن أصابوا .

الاجتهاد مباح لأهله محظور على غيرهم. يجتهد الطبيب والمحامى ويخطئان فلا يجرمان الأجر ويضاعف الأجر إذا نجحت العملية أو كسبت القضية .

ويعاقب من يمارس الطب أو المحاماة بغير مؤهل وأن أصابا فى اجتهادهما فنجحت العملية وكسبت القضية .

(٦٧) تاريخ حكماء الإسلام - ظهير الدين البيهقى تحقيق الأستاذ كرد على ص ١٠٤ (استشهد بها فى بحث جهود العرب فى الفلك للأستاذ حسن ملا عثمان - حلب سوريا فى أبحاث المؤتمر العلمى العربى الأول الإسكندرية سبتمبر ١٩٥٢ نشر الجامعة العربية ص ١٩٥).

ولم نسمع بطبيب رمد يجتهد فى طب القلب أو المسالك البولية فضلاً عن أن يجتهد فى الطب البيطرى أو اللوغاريمات. ولا عهد لنا بأستاذ فى القانون الدستورى يحاضر فى القانون الجنائى فضلاً عن أن يجتهد فى الديناميكا أو الهيدروليكا أو الاستاتيكا، ولا بعالم نبات يؤلف فى علم الحيوان فضلاً عن أن يجتهد فى الفلك والرياضيات ..

كتاب الإسلام وحده هو المستباح وكأن ليس له علماء ذوو دراية واختصاص. وفى الدولة مناصب كبرى لمشيخة الأزهر والفتوى والإقراء. وأساتذة الاختصاص من كليات أصول الدين والشريعة والحديث واللغة العربية. لا يحاضر أستاذ التاريخ الإسلامى فى الفقه والأحكام أو التفسير وعلوم القرآن أو الحديث وعلومه، فضلاً عن أن يجتهد أحد هؤلاء، ولو كان شيخ الإسلام، فى الطب أو الصيدلة .

ويقال: هل يتجمد فهمنا للقرآن عند فهم النبى الأسمى فى عصر بدائى لم يسمح بالتكنولوجيا والديناميكا والانثروبولوجيا.. وبيئة يدوية تركيب الناقة وتستقى من العيون والآبار وتستضىء بالزيت والحطب ..

القرآن كتاب عقيدة وشريعة ومنهاج. أى تفسير له محكوم بنصه الثابت وبيان مبلغه عليه الصلاة والسلام، فأى إسلام هذا الذى يراد لأمة فيه أن تأخذه من العلمانيين لا من علم نبى الإسلام؟ .

ليست علوم القرآن العقيدة والشريعة كسبية يستحدث فيها العصر جديداً ينسخ القرآن وعلم النبوة .

وكل علم كسبى يظل أبداً عرضه للإضافة والتغيير والتبديل والنسخ وقد وضع القرآن لأتمته منهج كسب العلم والمبادئ والغايات ولم يقيدتها بحد تتجمد عنده بل ترك الطريق مفتوحاً لجديد العلم.

وقال عليه الصلاة والسلام: "ما كان من دنياكم فالإيكم، وما كان من دينكم فالى..".

وردة عقلية ودينية أن يؤخذ أى علم من غير أهله وأن يرسخ العلمانيون فى أذهان الناس. أن لديهم من علم القرآن والدين ما لم يعلمه نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام .

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. {٢٨ فاطر} (68).

\* \* \*

ونحن نؤمن إيماناً تاماً أن هذه النقلة من الموضوع إلى الذات، ومن المبادئ إلى الأشخاص نقلة خطيرة وسيئة، وأن القياس الذى أوردته الدكتوراة - فى بلاغة يحسدها عليها أبلغ المحامين - قياس فاسد لا يستقيم، فضلاً عن أنه هو نفسه لا يتمشى مع ما أرادته، وما قصدت إليه ..

فبادئ ذى بدء، ومن ناحية المبدأ نقول إن الذى يهم دائماً هو الموضوع ويجب أن نطلب الحكمة بصرف النظر عن المكان الذى توجد فيه، والشخص الذى ينطق بها والشكل الذى تتلبس به ويجب أن نصدر أحكاماً عن هذا وحده ونعرف الرجال بالحق فإذا انعكست الآية فاشترطنا الشروط فى المكان الذى تطلب منه الحكمة والأفراد الذين تتلبس به، فأنا نحجر على الحقيقة ونصدر عن الهوى ونشرك بالحقيقة الموضوعية المجردة هوى النفوس.. وأغراض الأفراد والفئات ونعرف الحق بالرجال ...

هذا مبدأ قديم عرفه اليونان عندما لم يسمح فلأستفهم العظام للعلاقات الخاصة سواء كانت تلمذة أو صداقة بأن تؤثر على مناهجهم وما تنتهى إليه هذه المناهج.. وعرفه العرب عندما ترجموا عن اليونان

فتخيروا، ولم يمنعهم إعجابهم بالمعلم الأول أن يختلفوا معه أو ينتهوا إلى غير ما انتهى، وعرفها الإسلام ودعا إليها أحر دعوة عندما قرن ما بين الوثنية والأشخاص، وربط بين الديانة والحقيقة الموضوعية، وجعل من الأنبياء - وهم أعلى نماذج البشرية، نقلة للرسالة وحذرهم من أن يحدوا قيد أنملة عما أوحى إليهم واستبعد منهم كل المعاني الذاتية من نسب أو جاه أو ثروة وندد بمن شاء أن ينزل القرآن على رجل من القرينين عظيم .

وعرفته العصور الحديثة، وكان في أصل مبدء عظيم أشاعته أكثر من غيرها، ويعد أكبر حسنات الحضارة الأوربية هو الحرية، وبالذات حرية الفكر وهي ما يتفق مع موضوعية المعرفة ولأنها السبيل إلى الحكمة المجردة والمطلقة وإلى التحرر من المصالح والأهواء وإرادات الأفراد والفئات والحكام والملوك وسدنة المعرفة وحجابها، سواء كانوا كهنة كنيسة أو أساتذة جامعة، وما يتلبس بالمعرفة من مكاسب ومزايا يحرص عليها ويستأثر بها بعض الأفراد .

بل أكثر من هذا إن حرية البحث حتى عندما يستغلها مستغل أو يركبها انتهازي أو يتعسفها متعسف بحيث تنتهي إلى أخطاء أو مغالطات فإن الأمر لا يخلو من فائدة لقضية الحقيقة، لأنه يبين ركاكة الانحراف وسوء الاستغلال ومغبة التعسف ويعطى الفرصة لإظهار الحقيقة وتفنيد الشبهات التي قد تراود النفوس دون أن تظهر على السطوح..وكلام الدكتور بنت الشاطي عن الأشخاص الذين يحق لهم التفسير حبر على الحرية، وسبق إلى الحكم قبل تبين الوقائع وهو مرفوض من ناحية المبدأ لأن المفروض أن نركز أحكامنا على ما يقال، وليس على من يقول، فنحن لسنا من رجال تحقيق الشخصية أو الضبطية. ونحن نفتح باب النقد والمحاورة على مصراعيه للقضايا التي تثار.. دون الأشخاص لأنهم هم خارج موضوع القضية صدد البحث.

وقد توضع تلك الدعوى في قالب موضوعي يبدو بريئاً ومنطقياً ولكنه ينتهي إلى العواقب الخطيرة نفسها فالأستاذ الشيخ محمد الغزالي يقول (لم يزعم أحد أن تفسير القرآن الكريم حكر على عصر من العصور ولا وقف على طائفة من الناس ولكن الذي قيل إن الإحصائيين في شأن ما هم الذين يسألون عنه ويتحدثون فيه .

والأمر هنا لا يتطلب أكثر من الأهلية العلمية والإحاطة الواعية .

ولما كان القرآن الكريم كتاباً عربياً على درجة مرموقة من البلاغة فإن العوام لا يسوغ أن يتعرضوا لشرحه .

ولما كان قد استغرق في تكامله بضعا وعشرين سنة فإن تكوين حكم منه في إحدى القضايا المهمة لا يجوز لمن يجهل تواريخ نزول الآيات والسور .

ولما كان صاحب الرسالة وعليه نزل القرآن قد بين الغوامض وفصل المجمل وهو أحق الناس بتفسير ما نزل عليه فإنه لا يليق بمن يجهل حديث الرسول أن يتصدر لتفسير كتابه .

وعند تمام المسوغات العلمية للتفسير يبقى أمر آخر نذكره دون غضاضة وهو أن الذكاء النظري المجرد لا يرفع صاحبه إلى مستوى التفسير فقد يكون المرء من الناحية العلمية متفوقاً ولكنه من الناحية الخلقية مريب تستولى على ضميره الشهوات ويصرفه عن تقدير الحق هوى عاجل فكيف يؤتمن على كتاب الله .

فإذا احتاط العلماء لمكانة الوحي وجلال القرآن ورأوا ألا يتعرض للتفسير إلا رجل يجمع إلى الفقه العالى تدبناً رفيعاً وتقوى عالية وعبادة خاشعة فهم لم يذهبوا بعيداً ولم يطلبوا شططاً .  
والحق أن التفسير لا يطاق من جاهل بالدين واللغة .

ولا يطاق كذلك من شخص آثم يرتكب الموبقات أو لئىن الذمة يبيع دينه بعرض من الدنيا<sup>(69)</sup>.

فهذا الكلام الذى يبدو بريئاً ومنطقياً يثير قضايا لا تظهر خلال السطور ولكنها تبرز عند التطبيق وتؤدى إلى الحكر والتحكم فمن ذا يحكم فى توفر هذه "الأهلية" ؟ لعل أسهل الطرق للتوصل إلى ذلك هو الحصول على إجازة دراسية وهذا حكم على التفسير بأن يسير تبعاً لمنهج دراسية تتحكم فيها الدولة وتؤثر عليها المصالح وينتهى بالعقم وأى معيار آخر يتطلب نوعاً من "تحقيق الشخصية" ويفسح المجال لتدخل العوامل الذاتية ولا يمكن مطلقاً التوصل إلى الضابط فى مثل هذه الموضوعات وتطلبها هو كتطلب المشركين ﴿لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ { ٣١ الزخرف}.. والوضع الصحيح للقضية هو التركيز على "المقولة" وليس على "القاتل" ورب مهندس أو ميكانيكى أو فلاح يصل بنور القريحة أو هدى البصيرة أو بدراسته الذاتية والخاصة إلى ما لا يدركه الشيخ المعمم من برنامج تلقاه فى الأزهر، وما تعيننا "صفات" وهوية الكاتبين فنحن لسنا من رجال الضبطية وإنما ننشد الحقيقة والحكمة أنى كانت ومن أى شخص جاءت.

وقياس العلوم الإسلامية على الطب والهندسة الخ... الذى أوردته الدكتورة بنت الشاطى وغيرها فاسد لأن هذه مهن وصناعات وفى أصل اختكارها حق ممارسة المهنة كما يعرف ذلك كل من تقصى تاريخ ظهور النقابات المهنية وهى تستهدف الهدف المادى وكفالة المورد ومنع المنافسة وهى تتطرق من هذا إلى بقية المسارب والمنزقات الذاتية كأن يكون أبناء الطبيب أطباء، وأن يمنح أبناء المدرسين امتيازات فى دخول المدارس الخ... فهذه القيود والاشتراطات ليست لحساب المهنة، ولكن لحساب المهنيين، وبقدر ما كان بعضها مفيداً تطبيقاً لمبدأ التخصص، بقدر ما حافت على الحرية والمرونة، وبقدر ما أغلقت من أبواب التجديد والابتكار ونعوذ بالله أن نجعل من القرآن والحديث حائوتاً يتعيش منه البعض ثم لا يكتفون بذلك، بل يحجرون على غيرهم أن يخدموا القرآن والحديث إيماناً واحتساباً .

ونعمة الإخلاص والغيرة والحرص على الحقيقة فى كلام الدكتورة تختلط بشىء من الأكاديمية والأرستقراطية والمشىخية تبعد عن روح الإسلام وجوهره وتواضعه بقدر ما تقرب من الكهنوت والسدانة والاستعلاء والاستنثار. وما أشبه الدكتورة والشيخ الذين يضيقون بهذا النشاء الجديد من "الهواة" و "العلمانيين" الذين يكتبون بطريقة جديدة بالأرستقراطيات التى حدثنا عنها القرآن وكانت تضيق بمن يتبع الأنبياء من الفقراء والمستضعفين والشباب ويطالبون الأنبياء بطردهم. وهذا كله بعيد عن مذهب الإسلام وخلق العلماء وهو وأد لملاكات يمكن أن تتفتح ولمحاولات يمكن أن تتجح. ولقد قال العرب عن أكثر من شاعر "ما زال هذا الغلام يهذى حتى قال الشعر..". فما ضر الدكتورة وأمثالها.. لو تركوهم إن حسابهم إلا على الله..، وهذا أضعف الإيمان، ولو أحسنوا لشجعوهم بالكلمة الطيبة حيناً، والتوجيه السليم حيناً آخر ولشكروا لهم هذا الاتجاه الإسلامى فى وقت أخذت فيه الدنيا زينتها وتبرجت وشاعت فيها الشهوات وتفحشت وقد يكون منهم بعد من يدافع عن الإسلام فى مجالات لا يستطيع غيرهم الدفاع عنه فيها، ومن يغنى غناء لا يقوم به غيره .

(٦٩) الهلال عدد خاص عن القرآن (ديسمبر ١٩٧٠) ((هل يتناقض القرآن والعلم)) للشيخ محمد الغزالى ص ٤٢-٤٣ .

وفضلاً عن هذا، فليس من الصحيح دائماً أن المتخصصين هم أفضل من يعرض موضوعات تخصصهم أو يلم بأطرافها، ذلك لأنهم رغم إحصائياتهم للتفاصيل وتعمقهم في الجزئيات والفروع يتسمون عادة بضيق الأفق والجمود ويفقدون الأصالة والابتكار والسعة والمرونة ومن الصلة الوثيقة بأعضاء الجسم بعضها ببعض وجوانب المجتمع بعضها ببعض مما يحتمل أن يؤدي تخصصهم إلى المساس بجوانب لا تخطر لهم على بال، وهذا أمر ملحوظ فيما يصدر عن الشيوخ المتخصصين ولولا تيار الآراء المبدعة التي تسمح بها منافذ الحرية وتصدر عن مؤمنين بحكم قلوبهم وضمانهم ومثالياتهم، وليس بحكم الوظيفة، ومتقنين حبا في الحقيقة وشغفاً بالمعرفة، وليس طمعاً في الشهادات أو نيل المناصب لحجر الشيوخ على دين الله وتحكموا فيه بما يضيق سعته، ويعسر يسره. وها هو ذا الأزهر، وهو قمة التخصص الإسلامي وقلعته. كم من أساتذته وشيوخه دعا إلى الله إيماناً واحتساباً، وكم منهم نبه في الكتابة أو نبغ في الفكر أو برز في الدفاع عن الإسلام أو أصدر ما يكون إضافة حقيقية إلى الفكر الإسلامي.. إن العدد ضئيل إلى درجة تبعث على الأسى، لا يمثل إلا الندرة من بين عشرات الألوف الذين تخرجهم كليات الأزهر وليس لهم هم إلا الاطمئنان على وظائفهم ودرجاتهم الخ... إن الأغلبية العظمى من الكتابات الإسلامية المبدعة هي بأقلام كتاب لم يتعلموا في الأزهر، بما في ذلك الدكتورة بنت الشاطي نفسها. ولقد تتبعنا ما تخرجه المطابع بأقلام هؤلاء المتخصصين، وما تنتشره لهم الصحف. وما يقضون به من "فتاوى" فلم نجد عمقاً أو إبداعاً أو أصالة لو حتى أسلوباً وإنما وجدنا السطحية في التفكير والركاكة في التعبير. والاعتماد على النقول واستبعاد أي تقدير للعالم الذي يعيش فيه، والكثير منها يثير التقزز حقاً. فإذا ارتفع أحدهم عن هذا المستوى تعرضوا له بالنقد والتجريح .

وهناك جانب آخر هام لا أدرى كيف غفل عنه الذين يريدون أن يحصروا التفسير أو الفقه في المتخصصين هو أنه سيؤدي إلى إيجاد «كنيسة» إسلامية وإكليروس إسلامي وقس يكون لهم وحدهم حق الحديث والبحث والنشر ويمكنهم أن يصدروا أحكام الحرمان على غيرهم وبذلك يهدمون أحد مفاخر الإسلام وأسرار حيويته .

وأخيراً فلو افترضنا مع الدكتورة بنت الشاطي ضرورة اشتراط التخصص، فإن هذا نفسه يرد عليها، لأن في القرآن من الآيات التي تتحدث عن الشمس والقمر الليل والنهار.. الأرض والسماء أضعاف ما فيه من آيات الأحكام، ولا يمكن المرور على هذه الآيات دون أي تعليق، ولا بد لأي تعليق من المعرفة العلمية بهذه الموضوعات، وفيه من سنن الاجتماع وقواعد العمران ما لا يمكن تفسيره إلا للذين يحكمون علم الاجتماع ومن الجمع ما بين العلم والفن.. الأدب والفلسفة ما لا يمكن أن يتقهما إلا العقول الذكية المثقفة ثقافة خصبه متعددة المجالات والنفوس السمة الرضية الرحبة التي تنتسج لها وتستوعبها ..

وليست ابنه الشاطي هي الأولى التي رفعت هذه الصيحة "المشيخة" ولا هي الأخيرة فكل يوم يكتب أحد الشيوخ بلا حياء ولا خجل عن الكلاء المباح!! أي الدين وأن من الضروري إحاطته بالأسيجة كما يفعل أصحاب الأملاك، كأن الدين أصبح "دكانا" أو استرزاقا لا تجوز المنافسة فيه إلا لأبناء المهنة وأكد فضيلة شيخ الأزهر تعليقا في أهرام يوم ٢٧/١/٨٩ على رأى نشره أحد الكتاب .

"وفضلاً عن هذا فإن الشرع الحنيف قد وكل أمر النظر في الأحكام لطائفة من الأمة فقهاء في دين الله. يقول سبحانه وتعالى: ﴿لَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾. فالتمييز بين الصواب وغير الصواب من القول في أمور الدين بوجه عام، إنما هو لهذه الطائفة لا للمجتمع بمعنى الرأى العام - كإنسان في أي تخصص علمي له أبعاده ومقوماته العلمية وله

خصائصه ذلك أن الأمر في التشريع الإسلامي والاستنباط من نصوصه له ضوابطه التي يجب الالتزام بها والتي لا يتسع المقام حتى لإجمالها". أن إصرارهم على توفر هذه الاشتراطات المزعومة قبل النظر في أى مقولة هو مصادرة للمطلوب. وتعليق المضمون على الشكل، وما ينسأه هؤلاء، أو يتناسوه، هو أن من أول الضوابط التي أشار إليها فضيلة الشيخ هو حرية النقاش وعدم احتكاره، حتى لا تتحكم فيه الأغراض والأهواء والضغط والسياسات الخ ...

وما مثل هؤلاء الشيوخ الذين يشترطون مقدماً ضمانات بالمشاركين الذين طلبوا من الرسول طرد المستضعفين والإذلاء من صحبته ووجهه الله تعالى لعدم طردهم.. ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. فمتى يتخلص هؤلاء الشيوخ من هذا الداء العضال: داء الذاتية القميئة البعيدة عن روح العلم والاحتكار الذى يرفض حتى من التجار ومتى يعلمون أن الله تعالى لم يخصهم بعلمه دون سائر العالمين، وأن رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره. وأنه ما من عالم إلا وهناك من هو أعلم منه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه. شفاهم الله ...

(٢)

## العجاز العلمى للقرآن

فى مجال الإعجاز العلمى للقرآن الكرىم ت تضم الصفحات المنسبة أسماء علمىن سبقا فى الحدىث عن جوانب من الإعجاز العقلى للقرآن لا يكاد الجىل الجدىد أن يعرفهما هما الشىخ طنطاوى جوهرى والدكتور محمد توفىق صدقى ١٨٨١ - ١٩٦٠ .

أول هذىن عالم جلىل عرف بروحه المتفتحة التى دعتة فى الثلاثىينات إلى تأىىد دعوة الإخوان المسلمىن الناشئة وقبل أن يؤضع اسمه كرئىس تحرىر لبعض صحفها. وكان من ثمرات هذا الانفتاح تفسىره "الجواهر" الذى تحدث فىه عن عجائب مخلوقات الله فى حىاة أقل الكائنات شأنأ - الحشرات. كالنمل والنحل والعنكبوت الخ... وقد قال عن نفسه أنه "خلق مغرماً بالعجائب الكونىة معجباً بالبداىع الطبىعىة مشوقاً إلى ما فى السماء من جمال وما فى الأرض من بهاء وكمال" وىستطرد الشىخ متحسراً "أن أكثر العقلاء وبعض أجلة العلماء عن تلك المعانى معرضىن" .. وتبلغ حسرته أوجها فى قوله "أن عدد الآىات الكونىة الصرىحة ىزىد على سبعمائة وخمسىن آىة فى حىن لا تزىد آىات علم الفقه عن مائة وخمسىن.. وقد أشبعها الفقهاء بحثاً وتمحىصاً مخلفىن وراءهم آلاف المجلدات.. وىمضى متسائلاً "لماذا لا نعمل العقل فى الآىات الكونىة" وىمضى مطالباً بارتقاء نظام التعلىم الإسلامى "فعلوم البلاغة لىست نهایة علوم القرآن بل هى علوم لفظه فقط".

وأما الثانى فهو الدكتور محمد توفىق صدقى الذى كان طبىباً فى سجن طرة، وابتداء من سنة ١٩٠٥ أخذ ىنشر فى مجلة "المنار" التى كان ىصدرها السىد رشىد رضا والتى تعد سلفية إلى حد كبرى سلسلة من المقالات عن الفلك والقرآن دلل فىها على أن تعالىم القرآن تتفق مع ما وصل إلىه العلم الحدىث فقد ورد فى القرآن أن هناك مجموعات من الكواكب تربط بىنها قوة الجاذبىة وهذه حقىة ىدعى الأوربىون أنهم مكتشفوها مع أن القرآن قد سبقهم إليها وتلك معجرة من معجزات القرآن الظاهرة .

وىقول الدكتور صدقى انه عند نهایة العالم ستترأخى قوة الجاذبىة التى تربط الأفلاك معا وستتأثر النجوم كما ورد فى القرآن فى سورتى الانفطار والانشقاق .

ويذهب الدكتور صدقي إلى أن السموات السبع التي يكثر ورودها في القرآن هي الأفلاك السبعة لأن السماء في اللغة هي كل ما يعلو الإنسان أو يرتفع عن رأسه وقيل في السماوات أنها طبقات فوق بعض ذلك لأن مدار كل واحدة منها فوق مدار الأخرى .

ولما كان نظامنا الشمسي يدور حول فلك معين لا نعرف كنهه على وجه التدقيق فمن الواضح أن الأفلاك الأخرى تدور حول كوكب ثابت وليس بعيداً أن تكون كل هذه الأفلاك التي تدور حول مركز واحد مشترك بالنسبة للجميع يجذب الكل ويديره ويضبط نظامه ذلك المركز هو العرش أو كرسي السماوات والأرض .

يروى الدكتور صدقي أن هذا المركز هو على الراجح الذي وصفه القرآن بأنه عرش الله ويثبتته في مكانه قوى خاصة جعلها الله فيه ولسنا نعرف طبيعتها ولكن القرآن يقول ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةً﴾ {الحاقة}..(70).

وقدم الأستاذ محمد أحمد الغمراوي وهو أحد الشخصيات البارزة في جمعية الشبان المسلمين وأحد محرري مجلتها. وهو عالم الكيمياء الحيوية تفسيراً لبعض الآيات القرآنية في كتابه "الإسلام في عصر العلم منتقداً على قصر فهم الآيات الكونية على ما فهمه العرب القدامى، مشيراً إلى أن القرآن ليس للعرب وحدهم بل للإنسانية كلها، يفهم من آياته أهل كل عصر بقدر ما ثبت لديهم من العلم، فتتجدد بذلك حجة الله على الناس بتجدد إعجاز القرآن العلى من غير تكلف أو تعسف". نعم أن المتعرض لتفسير شيء من الكتاب العزيز عرضه للخطأ وعليه وحده تقع تبعة خطأه وليس على الكتاب، وإلا لوجب أن يكون المفسر معصوماً عن الخطأ.. وذلك شرط لا يتحقق إلا في نبي .

### اعتراضات وتحفظات.. ضوابط الكتابة عن الإعجاز العلمي في القرآن :

قد حدد كاتب إسلامي في مقال نشرته إحدى المجلات تحت عنوان "ماذا التعسف الباطل في تفسير القرآن بجر العلم إليه أو حجبه عنه" فقال إنها دلالة اللغة، وقواعد التفسير وعدم معارضة التفسير مع أى آية أخرى أو حديث ثابت. فإذا انطبقت هذه الضوابط على التفسير العلمي فيمكن الأخذ به لأن المسلك الأمثل هو عدم التعسف في محاولة جر العلم إلى القرآن أو حجبه عنه وطبق هذه الضوابط على بعض الآيات التي تناولها التفسير العلمي مثل الآية "يا معشر الجن والإنس، إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فأنفذوا، لا تنفذوا إلا بسلطان" فقد قيل إن هذه الآية تدل على إمكان التخلص من الجاذبية الأرضية والوصول إلى القمر وغيره من الأجرام السماوية ولكن الكاتب يلحظ أن الآية تقول ﴿إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ﴾ {الرحمن}.. ولم نقل "إلى أقطار السموات" وفرق كبير في الدلالة اللغوية بين التعبيرين. إن «من» لا تصلح في هذا المقام إلا لمعنى واحد هو التجاوز فالمعنى إذن إن استطعتم أن تتجاوزوا أقطار السموات والأرض وتخرجوا عن دائرة الكونيات .

وفي رأى الكاتب أن الآية هي للتعجيز وأن المعنى المراد الذي تكنى عنه الآية هو "أن الإنسان لن ينجو من قبضة الله تعالى وما قد ينتظره يوم القيامة من حساب وجزاء مهما حاول ومهما أوتى من قوة إلا

(٧٠) نشرت مقالات الدكتور صدقي أولاً في المنار ج ٨ سنة ١٩٠٥ ثم طبعت أول مرة قبيل وفاته (١٩٢٠) وأعيد طبعها بعد ذلك سنة ١٩٢٧ وقد اعتمدنا في هذه الفقرة على كتاب ((الإسلام والتجديد في مصر)) تأليف الدكتور تشارلز ادامس - ترجمة عباس محمود ص ٢٣٣-٢٣٤.



بسلطان من الإرادة الإلهية يتعلق بنجاته" .

ويستطرد نعم لو جاء التعبير "إلى" بدلا من "من" لكان التفسير الشائع مقبولا .

**ويستطرد :**

وكذلك فإن الآية "مالكم لا ترجون الله وقارا وقد خلقكم أطوارا" لا تدل على مبدأ التطور ولا تعد سبقا لما جاء به لامارك وداروين لأن صرف كلمة أطوارا إلى هذه المعاني يتناقض مع آيات صريحة أخرى مثل ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ {٤ التين}.. وإن كلمة أطوارا تفسرها آية أخرى هي ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾. {٦ الزمر}.. وفي مقابل هذا فإن الكاتب يرى أن الآية ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ (٢٥) أحياء وأمواتا {٢٦ المرسلات}.. تتم عن الجاذبية الأرضية لأن كفاتا هي الجذب والضم - كذلك لاحظ أن القرآن يصف الشمس بأنها سراج مضيء وإذا تحدث عن القمر وصفه بأنه منير. وأن هذا لغويا يجعل القمر جرمًا بارداً لا حرارة فيه يكتسب نوره من جرم آخر، بعكس الشمس. ويرى أن الآية ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ {٢٢ الحجر}.. بأنها تعبير عن الحقيقة العلمية الخاصة بتلقيح الرياح السحاب بالشحنات الكهربائية الأمر الذي يؤدي إلى سقوط الأمطار، وأنا لا نستطيع أن نفر بهذه الآية من هذه الحقيقة العلمية<sup>(٧١)</sup>.

وتعرض لهذا الموضوع الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافي في كتابه "الحرية في الإسلام" إذ خصص فصلاً موجزاً عن "تعسف بعض الكتاب في تفسير آيات القرآن وفق النظريات العلمية الحديثة وانحرافهم في هذا عن مدلول اللغة وأغراض الكتاب الكريم" أشار فيه إلى "الجنائية الكبرى التي جناها بعض من أقحموا أنفسهم في الدراسات الإسلامية إذ يحاولون أن يفسروا بعض آيات القرآن تفسيراً يجعلها منظوية على النظريات العلمية الحديثة، ويسئون بذلك بأبلغ إساءة من حيث لا يعلمون إلى الإسلام والقرآن من عدة وجوه .

١. فهم أولاً يتعسفون كل التعسف في تفسير آيات الكتاب الكريم، وتحميلها مالا تحتل من المعاني وما لم يفهمه العرب منها، ولا يمكن أن يفهمه منها ملم باللغة العربية وأساليبها في البيان، حتى يتاح لهم أن يقرروا أن القرآن قد سبق البحوث الحديثة فيما قالت به من نظريات وما اكتشفت من قوانين، أو قد تنبئ بما عسى أن ينتهي إليه من نتائج. والأمثلة على ذلك تجل عن الحصر فيما يخرجها هؤلاء من كتب وما ينشرونه من مقالات .

فمن ذلك مثلاً ما يقوله أحدهم في فصل عقده في كتابه عن وحدة الخلق إذ يفسر قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ {١٨٩ لأعراف}.. بأن النفس البروتون وأن زوجها هو الإلكترون، وهما العنصران اللذان تتألف منهما الذرة. وفي ذلك يقول، بعد كلام كثير عن الجسيمات التي تتألف منها الذرة: "هذه الحقيقة العلمية التي يتبنيها بها العصر الحديث قد جاء بها القرآن الكريم منذ ألف وأربعمائة سنة في صراحة ووضوح، إذ تقرر الآية ١٨٩ من سورة الأعراف أن كل ما خلق الله إنما من نفس واحدة وجعل منها زوجها أليست هذه هي البروتونات والإلكترونات.. الكهارب الواحدة موجبة وسالبة، أي النفس الواحدة .. الزوجية الجنس بين موجب وسالب "ومن الغريب أنه كان يكفي هذا الكاتب لاتقاء تخبطه هذا وتعسفه في تفسير الآية الكريمة أن يقرأها كاملة ويتأمل معناها إذ تقول: هو الذي خلقكم من

(٧١) انظر المقال المشار إليه بقلم الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في مجلة العربي العدد ٢٤٦ جمادى الثانية ١٣٩٩ - مايو ١٩٧٩ ص ٥٥ - ٥٩.

نفس واحدة، وجعل منها زوجها ليسكن إليها، فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به، فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين" .

ومن ذلك أيضاً ما يقوله المؤلف نفسه في فصل عقده عن الأقمار الصناعية إذ يفسر قوله تعالى ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ {٨٢ النمل}.. فيزعم أن الآية تشير إلى الأقمار الصناعية وسفن الفضاء وما تحمله من دواب. وفي ذلك يقول: "أطلقت روسيا أجهزة علمية سميت بالأقمار الصناعية تدور حول الأرض، واتبعتها أجهزة أخرى تحمل نوعاً من الكائنات الحية لتدريس تأثير الانطلاق والارتفاع والاشعاع والضوء والجاذبية.. وهذه الأقمار التي خرجت من الأرض في الوقت الذي انتشر فيه الإلحاد لتتحدث عما في الكون الغامض وتزيح بعضاً من هذا الغموض، ألا يمكن أن تكون هذه هي الدابة التي تنبأ بها القرآن الكريم في سورة النحل (صوابه في سورة النمل) في الآية ٨٢ التي تقول ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (النمل:٨٢) فلعله يزعم أن الكلبة "لايكا" التي وضعها الروس في أول تجربة لسفن الفضاء قبل أن يضعوا فيها أناسي من البشر قد تكلمت بلغة الكلاب في أثناء دورانها حول الأرض فنعت على الآدميين عدم إيمانهم بآيات الله. ومن ذلك أيضاً ما يقوله المؤلف نفسه في فصل عقده عن الغطاء الأحيوي "إذ يفسر هذا الغطاء في قوله تعالى : ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾ {٥ الأعلى}.. بأن المقصود منه الفحم الحجري. وفي ذلك يقول: لبثت هذه الكتل الضخمة من الأشجار والنباتات مطمورة في باطن الأرض سنين عديدة حتى أكتشفها الإنسان واستعملها وقوداً سماه فحمًا أليس ذلك ما يقول به القرآن إذ أن الله هو الذي أخرج المرعى ثم جعله غطاءً أحيويًا فبحسب ما يراه هذا الكاتب يكون الله تعالى قد من على الناس في القرن السابع الميلادي بتطور جيولوجي لم يكونوا قد عرفوه بعد ولا يستطيعون فهمه من عبارة الآية .

ومن ذلك ما يقوله المؤلف نفسه في فصل عقده عن انشقاق القمر، إذ يفسر قوله تعالى ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ {١ القمر}.. فيقول: "إن القمر يقترب من الأرض، وهذا الاقتراب وإن كان يسير حثيثاً (يريد أن يقول بطيئاً فجاء بكلمة تفيد ضد المعنى الذي يريده) إلا أنه بتوالي العصور سيجعل القمر يقترب من منطقة تفوق الجاذبية فيها تلك التي تجعله على بعده من الأرض الذي يحفظه.. وأن أول علامة على دخول منطقة الخطر هو حدوث زلازل مدمرة في القمر حتى يصل الحال إلى زلزلة عنيفة دائمة تسبب انشقاظه وإذا انشق وتهاوى مكوناً طبقات حول الأرض كما في زحل أفلا يؤثر ذلك في جاذبية الكواكب وأجرام أخرى تمسكها جاذبية القمر نفسه؟.. فهلا يكون ذلك دليلاً على قيام الساعة؟..

وهذا قليل من كثير مما حواه هذا الكتاب العجيب وما تحويه كتب على شاكلته. وانظر إلى أي مدى يصل التعسف بهؤلاء في تفسير آيات الذكر الحكيم، وتحميلها مالا تحتل، وفي التلاعب بكلام الله واتخاذ هزوا .

٢. ولا يقتصر الأمر على تعسف هؤلاء في تفسير آيات الذكر الحكيم وتحميلها من المعاني مالا تحتل، بل أنهم بمسلكهم هذا يعرضون كلام الله للكذب والتكذيب تعالت كلمات الله عن ذلك علواً كبيراً، وذلك أن كثيراً من النظريات العلمية ليست ثابتة، ولم تقل الكلمة النهائية فيما تعالجه من ظواهر. وقد تظهر كشوف أخرى تبين عن خطئها أو عن نقصها. فإذا فسر كتاب الله على وجه يتفق مع نظريات حاضره، ثم ظهر عدم صحتها فيما بعد فإن هذا يدعو إلى تكذيب كتاب الله، أو على الأقل زعزعة ثقة الناس بحقائقه .

٣. وهم بذلك أيضاً يسمون الإسلام بوصمة هو منها براء، إذ يحاولون بذلك أن يظهرُوا القرآن كتاباً يقرر النظريات العلمية على أنها عقائد دينية نزل بها الوحي الأمين من قبل الله تعالى. وهذا مخالف لاتجاه الإسلام وروحه، ولما يحث عليه القرآن من التأمل في ظواهر الكون واستنباط قوانينها العامة، ولما يقرره من مبادئ سامية تتعلق بحرية التفكير والتعبير<sup>(٧٢)</sup>.

\* \* \*

وكان مما شوه هذا الاتجاه ما يتسرع به بعض الكتاب من إبداء آراء لا تثبت للنقد أو هي واضحة البطلان كالذى قاله أحد الاتجاه مما أشرنا إليه فيما سبق وقد ظهر أن لافتة الإعجاز العلمى للقرآن يمكن أن تضم تحتها صنوفاً فكتب أحد الأطباء فى تفسير قوله تعالى ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ (الممتحنة: من الآية ٤) إن ذلك يعود إلى أنه أول من أختتن وقارن عالم طبيعة معاصر ما بين الطواف حول الكعبة ودورة النجوم فى مساراتها .

وقال الشيخ محمد الغزالي أنه قرأ كتاباً يثبت صاحبه أن الأرض ثابتة، وأن الشمس هى التى تدور حولها بأربعين آية من آيات القرآن، وذكر الدكتور مصطفى محمود فى حديثه العلم والإيمان التى أذاعها تليفزيون القاهرة يوم ٨٧/١/٢٠ أن الشجرة المباركة هى شجرة المجال المغنطيسى .

كما يمكن أن يكون فى تركيز الحديث على الإعجاز العلمى للقرآن والتباهى بذلك - ما تنبه إليه كاتب إسلامى تعبیر عن العجز فى التعامل مع الحاضر، أو الهروب من مسؤوليات ومتطلبات الواقع، بمختلف ضغوطه وتعميداته. فالدعوة إلى الله وحث الناس على تمثيل قيم الإسلام فى زماننا معترك صعب ومقام ضنك، وتحد لا يقدر عليه إلا أولو العزم من الرجال. فضلاً عن أنه عمل طويل الأجل وباهظ الثمن. وعندما ينوء البعض بذلك الحمل، ويضيعون بأعبائه وتبعاته، فإن المخرج الوحيد والحل السعيد هو فى مثل هذه الأنشطة، التى تظل رافعة راية الإسلام، لا تبارحها، لكنها تصب فى مسارات هامشية، لا تغير من الواقع شيئاً ولا تصطدم به. بل لا تغضب أحداً حسوداً أو عزولاً. لكنها قد تحدث قدراً معقولاً - ومطلوباً من الجلبة والرنين .

هو إذا عمل للإسلام ولا عمل. وضجيج بلا طحن، وقول بلا مسئولية، أو عتب.. وفى ذلك تكمن جاذبيته وخطره! .

ولاحظ الكاتب أن مثل هذا المعنى كان مائلاً فى ذهن الجنرال ضياء الحق الذى قال فى افتتاح المؤتمر الأول الدولى للإعجاز العلمى فى القرآن والسنة عام ١٩٨٧ إننا لسنا بحاجة لأن نثبت أن القرآن تضمن قوى من الإعجاز العلمى، لأن بقاءه على الحال التى نزل بها منذ ١٤ قرناً هو بحد ذاته معجزة ودعا علماء المسلمين إلى الانشغال بالقضية الأهم، وهى البحث فى أسباب تفوق المسلمين العلمى فى عصورهم الزاهرة وكيفية استعادة هذه الأسباب فى واقعا المعاصر لصناعة الحاضر ومستقبل أفضل<sup>(73)</sup>.

ولعل الإمام الشهيد حسن البنا قد وضع الأمر فى نصابه عندما عالج هذه القضية فى المقدمة التى وضعها للتفسير وكتبها فى العدد الأول من مجلة الشهاب (المحرم ١٣٦٧ - نوفمبر ١٩٤٧) عندما قال "من المقرر أن القرآن لم ينزل ليكون كتاب هيئة أو طب أو فلك أو زراعة أو صناعة، ولكنه كتاب هداية وإرشاد،

(٧٢) كتاب الحرية فى الإسلام للدكتور على عبد الواحد وفى الصفحات من ٨٣ إلى ٨٨ دار المعارف - سلسلة اقرأ.

(٧٣) الإعجاز القرآنى: الصالح والفاقد للأستاذ فهمى هويدى - جريدة الأهرام ص ٧ العدد الصادر فى ١٩٨٧/١١/٣.

وتوجيه اجتماعى إلى أمهات المناهج الاجتماعية التى إذا سلكها الناس سعدوا فى دنياهم وفازوا فى آخرتهم، وهو إنما أشار للعلوم الكونية، ولمظاهر الوجود المادية الطبيعية بالقدر الذى يعين على الإيمان بعظمة الخالق جل وعلا، ويكشف عن بديع صنعه، و عما أودع فى هذا الكون من المنافع والفوائد لبنى الإنسان، حتى يبسر لهم بذلك طرائق الاهتداء إلى الاستفادة عن هذه الخيرات فى الأرض وفى السماء وفيما بين ذلك، ثم بعد ذلك للعقل الإنسانى أن يجاهد ويكافح فى سبيل الكشف عن مساتير هذا الوجود والاستفادة مما فيه من قوى ومنافع وحثه على ذلك وجعل هذا من أفضل العبادة وأعلى أنواع ذكر الله ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (يونس: من الآية ١٠١) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١ آل عمران﴾ ..

ولقد ذهب كثير من المؤلفين والمفسرين فى القديم والحديث إلى أن القرآن الكريم قد تضمن كل أصول العلوم الكونية، وحاولوا أن يصلوا إلى ذلك بتطبيق آيات الخلق والتكوين وما إليها على ما عرف الناس من هذه العلوم، ومن هؤلاء الإمام الغزالي قديماً فى جواهر القرآن، والشيخ طنطاوى جوهرى حديثاً فى تفسيره الجواهر، والدكتور عبد العزيز إسماعيل فى كتابه عن القرآن والطب، وأمثالهم. وهو جهد مشكور ولا شك، ولكنه تكليف بما لم يكلفنا الله به قد يصل فى كثير من الأحيان إلى التكلف، وخروج بالقرآن عما نزل له من الهداية والإصلاح الاجتماعى وتقرير قواعدهما فى النفوس والمجمعات، وتعريض لمعانى كتاب الله تبارك وتعالى لاختلاف الآراء، وتضارب المقررات العلمية، واختلاف أقوال العلماء؛ ولهذا كره بعض السلف هذا المعنى وأشار إليه، كما فعل ذلك الشاطبى فى الجزء الثانى من الموافقات وناقشه مناقشة دقيقة خلص منها إلى ((أن القرآن لم يقصد فيه تقرير لشيء من هذه العلوم وإن كان قد تضمن علوماً هى من جنس علوم العرب أو ما ينبى على معهودها مما يتعجب منه أولو الألباب ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة دون الاهتداء بأعلامه، والاستتارة بنوره، أما أن فيه ما ليس من ذلك فلا .

ومن المقرر كذلك أن القرآن قد تعرض لكثير من مظاهر هذا الوجود الكونية، فتناول خلق الإنسان، وتكوين الأرض والسماء، وجريان الشمس والقمر، وتسخير الكواكب والنجوم والأفلاك، وتراكم السحاب ونزول المطر، وظاهرة الرعد والبرق، ونمو النبات وتنوع أصنافه، وعجائب البحار، وأعلام الطريق والجبال الرواسى على هذه الأرض، وأطوار الأجنة فى بطون أمهاتها - إلى غير ذلك مما يتناوله علماء الكون بالتحصيل والبيان وما هو موضوع بحوثهم ومحل عنايتهم وتجاربهم .

وكثيراً ما تختم هذه الآيات بالحث على التعقل والتفكر والنظر والتدبر، إشارة إلى أن القرآن الكريم لم يقصد بهذا التعرض تقرير أصول هذه العلوم، أو تناول فروعها، ولكنه إنما قصد إلى الهداية، وتوجيه الأنظار والنفوس إلى ما تدل عليه من عظمة الخالق وفائدة المخلوق

ولكن الذى لا يمكن أن يكون محل نزاع هو أن القرآن حين أشار إلى هذه النواميس الكونية، والمظاهر الوجودية المادية، كان من دقة التعبير وصدق التصوير بحيث لا يمكن أبداً أن يصطدم بما يكشف العقل الإنسانى عنه فى أطواره المختلفة من حقائق هذه العلوم ومقرراتها، وخصوصاً إذا لحظنا أن هذه المقررات العلمية تنقسم إلى قسمين: قسم تظاهرت عليه الأدلة وتوافرت الحجج حتى كاد يلحق بالبداهات، وقسم لازال فى طور البحث العلمى. وكل الذى بين يدى العلماء الكونيين منه فروض تؤيدها بعض القرائن التى لم ترق إلى مرتبة الأدلة القاطعة أو الحجج المقنعة. فما كان من القسم الأول فلا شك أن ما أشار إليه

القرآن الكريم منه يوافق كل الموافقة ويطابق كل المطابقة، ما عرف العلماء الكونيون، حتى إنه من الحق أن يقال إن ذلك من إعجاز هذا الكتاب الذي جاء به أمى لم يتعلم فى مدرسة، ولم يلتحق بجامعة من الجامعات! ومن أمثلة ذلك إشارته إلى أطوار الجنين، وتلقيح الرياح، وتكون السحاب وصلته بالرياح الخ... - وما كان من القسم الثانى فمن التجنى وظلم الحقيقة أن يوازن بينه وبين ما جاء فى القرآن الكريم، فلننتظر حتى يطمئن العلم الكونى إلى ما بين يديه، ويؤمن العقل الإنسانى بما وصل إليه، ثم ننظر على ضوء هذا الإيمان إلى النص القرآنى ولن نجدهما إلا متعاونين على تثبيت دعائم الحقيقة ﴿سُنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعِنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ {٥٣ فصلت}.. ومن هذا القبيل ما يتصل بنشأة الإنسان وحقيقة الحياة وبدأ التكوين، وصلة الأرض بالسماء - على أنه من عجيب أمر هذا القرآن أنه حتى فى مثل هذه المواطن يسوق التعبير سوقاً عجيباً معجزاً فى مرونة عبارته ودقة إشارته، حتى إنه ليساير بحق تطور العقل الإنسانى فى كل زمان ومكان. وتأمل تصويره لنهاية العالم المادى ووصفه للقيامة وأثارها فيه تر أنه أتى فى ذلك بالعجب العاجب! .

\* \* \*

### مؤيدات ومؤكادات :

رغم كل التحفظات التى أبدأها علماء إجلاء على هذا الاتجاه وما يتضمنه من مخاطر تطويع الفهم القرآنى ليتطابق مع نظريات علمية إذا بدت صحيحة اليوم فقد يكشف المستقبل عن عوار فيها أو نقص، فيسرى ذلك أيضاً على الآيات التى فسروها ..

نقول رغم ذلك فإن اتجاه الإعجاز العلمى للقرآن لم يتوقف أبداً. بل لقد زاد وحالياً تنتشر فى الأهرام يوم الاثنين من كل أسبوع صفحة كاملة للدكتور زغلول النجار الذى برز فى هذا المجال.. مما ينم عن وجود أصل جعل هؤلاء العلماء يواصلون كتاباتهم، وجمهور يتطلب هذا النوع من الكتابات، خاصة عندما تصدر عن علماء ثقافت فى علم الطبيعة مثل الدكتور جمال الفندى الذى يعد من أقدم من كتب عن هذا الموضوع ونشر فى الأهرام يوم ٧٦/٩/٨ مقالاً تحت عنوان "من أعماق الإعجاز العلمى فى القرآن" جاء فيه .

"المعروف أننى من المنادين بضرورة إظهار جوانب (الإعجاز العلمى فى القرآن) فى ضوء الآفاق الواسعة التى فتحها عصر العلم، وعدم تجميد معانيه عند حد ما قاله الأولون، بشرط أن يتم كل ذلك داخل إطار الثابت من حقائق العلم .

والمعروف أن ما تم من تفسيرات علمية داخل هذا الإطار جاء كله صحيحاً ورائعاً وغير متضارب منذ نزل القرآن وبدأ ركب العلم، ذلك لأن حقائق العلم لا تتغير وإنما تتكامل. والأمثلة على ذلك كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾. {٢٢ الحجر}.. ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾. {٤٧ الذريات} ﴿وَالسَّقْفَ الْمَرْفُوعَ﴾. {٥ الطور}.. فقد فسر الأقدمون كلمة لواقح فى الآية الأولى بأنها إشارة إلى تلقيح الرياح للنباتات، وتلك حقيقة علمية قائمة إلا أننا فسرناها فى هذا العصر بأنها إشارة إلى تلقيح الرياح للسحاب الذى تثيره لكى يوجد بالمطر، بمعنى إمداده ببخار الماء وبنوى التكاثر اللازمين للأمطار. وعلى هذا النحو تثير هذه الآية وحدها ثلاث قضايا علمية هامة هى:

▪ أن لفظ (لواقح) لا يقتصر على تلقيح الرياح للسحاب ببخار الماء ولكن أيضاً بجسيمات متميعة تتم عليها عمليات التكاثر ونمو نقط الماء أى الإخصاب .

▪ أنه ينجم عن ذلك التلقيح نمو مكونات السحب ومن ثم نزول المطر، وبذلك تكون الفاء في قوله (فأنزلنا) هي فاء السببية .

▪ أن هذا الماء العذب ليس مخزوناً في مكان معين ولكنه دورة بين السماء والأرض كما هو ثابت ومعروف الآن .

ولسنا بصدد شرح باقى الآيات لضيق المقام، إلا أن مسابقة ركب العلم للقرآن أو هضم القرآن لمفاهيمنا العلمية السليمة منذ نزل في حد ذاته عمق أعماق الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم .

وتتعدد تلك الأعماق بشكل أحاذ، حتى أن الآيات المتعلقة بظاهرة بالذات إنما تتكامل ولا تتكرر معانيها كما يظن البعض خطأ. ولو أننا جمعنا مثلاً الآيات المتعلقة بالجبال لحصلنا على معانٍ علمية مختلفة ومتراصة في نفس الوقت .

ومن بين الأعماق الأخاذة عمق يتصل بمجرد التعبير أو اختيار اللفظ الواحد الذى يحتاج إلى شرح علمى مطول، انظر مثلاً إلى كلمة "نسلخ" فى قوله تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلَمُونَ﴾. {٣٧ يس} ..

أن المقطوع به علمياً الآن أن (الفضاء الكونى) الذى تسبح فيه الأرض والمجموعة الشمسية مظلم بطبيعته وحالك الإظلام، وأن ضوء النهار طارئ عبر قشرة رقيقة من غلاف الأرض الجوى لا يتعدى سمكها ٢٠٠ كيلو متر فقط، وعلّة ذلك أن تلك القشرة التى تعلو سطح الأرض مباشرة إنما تعمل على تشتت الضوء أو تناثره فى كل اتجاه عندما تواجه الشمس وعلى هذا النحو يقبل ضوء النهار من كل الاتجاهات، وهذه من نعم الله علينا، إذ لا يلزم أن تواجه النافذة الشمس مباشرة لكى تضئ الحجرة عندما تفتحها يمكن أن يدخل منها ضوء النهار حتى ولو كانت بعيدة كل البعد عن الشمس .

وعندما يرتفع رجال الفضاء وسط النهار فوق تلك القشرة تظلم الدنيا من جديد وتظهر النجوم جنباً إلى جنب مع الشمس إلا أن أعدادها تتزايد مما يرهب الرواد ويخيفهم، حتى أن منهم من يصاب بالانهيار العصبى ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾. {١٥ الحجر} ..

وتظل قشرة النهار الرقيقة تواجه الشمس بدوران الأرض حول محورها بحيث تنسلخ من جسم الظلام المعتم تماماً كما ينسلخ جلد البعير من جسده. وهكذا نرى أن اختيار كلمة (نسلخ) إعجاز ما بعده إعجاز!! .

وفى اختيار لفظ (يعرجون) فى الآية السابقة إعجاز من عمق مماثل، ذلك أن الفضاء الكونى لا يعرف الخط المستقيم كما نألفه نحن على الأرض، وأن جميع أسفار الفضاء إنما تتم فى خطوط متعرجة أو منحنية.

وأعجب العجب أن يطلق القرآن الكريم لفظ (عروج) أو (معراج) على (السبح فى الفضاء الكونى) أو (الصعود قدماً فى السماء). وجميع أجرام السماء هكذا تسبح فى أفلاكها المنحنية مهما اختلفت درجات ذلك الانحناء وتباينت أنواعه على النحو المعروف فى هندسة الفراغ مثلاً.

ومن عمق التعبيرات القرآنية قوله تعالى :

﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾. {٢٤ يونس} .. فكلمة (أو) هنا بمعنى (و) ذلك لأن الأرض عندما يكون

نصفها نهاراً يكون النصف الآخر ليلاً، بحيث تقوم القيامة نهاراً بالنسبة لقوم وليلاً بالنسبة لقوم آخرين، وقد يكون أيضاً للتعمية وعدم تحديد الزمن كما قال الأولون والله أعلم". انتهى ..

ففى هذه الكلمة نرى أمانة وأستاذية الكاتب فى معالجة الكلمات، وكيف أنه استطاع بحسه المرفه مع تمكنه العلمى والفنى أن يستكشف مكن الإعجاز العلمى فى الآيات التى عالجها. بدون أى افتيات على المعنى أو اللفظ القرآنى أو التعسف فى التأويل .

بعد كتابه هذه الكلمة بعشر سنين عقد فى القاهرة فى مستهل العلم الهجرى المحرم ١٤٠٦ (سبتمبر ١٩٨٥) مؤتمر لدراسة "الإعجاز الطبى فى القرآن" أسهم فيه شيخ الجامع الأزهر وفضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ورئيس جامعة الأزهر وعمداء كلياته وعدد آخر من أساتذة الدراسات الإسلامية. ومن جانب الأطباء إبراهيم بدران، وممدوح جبر، ومحمد عبد المنعم أبو الفضل وزهيرة عابدين وأحمد الملط وحسن عبد العال ومحمد الظواهرى وغيرهم من أساتذة وعمداء كليات الطب كما استجاب دعوة الهيئة الداعية مندوبون من رابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة ومنظمة العلوم الإسلامية بالكويت ومندوبون من هيئات طبية بالعالم الإسلامى ومن الأجانب - على سبيل المثال لا الحصر - البروفيسور كيث مور وهو من أشهر أطباء العالم فى علم الأجنة وصاحب الدراسات الرائدة التى تنشر فى المجلات والمراجع الطبية وتثبت مطابقة علم الأجنة لما جاءه فى القرآن الكريم، والبروفيسور موريس بوكاى الجراح الفرنسى صاحب الدراسات المقارنة عن القرآن والتوراة والإنجيل وأثبت سبق العلمى للقرآن .

ويقول الدكتور محمد حسن الحفناوى الأستاذ بطب عين شمس وأحد المسئولين عن هذا المؤتمر فى مقال نشر فى الأهرام القاهرية يوم ١٩٨٥/٩/٩ "أن أكبر مراجع العالم فى علم الأجنة والذى يقوده مجلس أعلى مكون من ٢٣ من علماء العالم قد أصدر طبعته الأخيرة مسترشدين بما جاء فى القرآن الكريم ومدى قدرته فى التعبير المعجز عن مراحل الأجنة، وطالبت لجنتهم العلمية بدراسة عميقة للمفاهيم القرآنية. ويستطرد الدكتور محمد حسن الحفناوى فيقول فى كلمته بجريدة الأهرام "أليس من العجيب أن نجد من غير العرب من يهتم بإبراز الحقائق العلمية فى القرآن الكريم ويتحمس لها؟ بينما يتفوق الباحثون المسلمون! ثم أنترك لهم وحدهم باب الاجتهاد، بدون إرشاد إسلامى واع ومتفهم فى دراساتهم التى تنشر فى العالم؟ أليس هذا الوجود المشترك من العلماء الدوليين المتفتحين للعلم الحقيقى والباحثين عن الحقيقة المجردة كسباً لأرضية إسلامية جديدة إنه من الواجب وقبل أن يتصدى البعض ويعارض ويهاجم، بالاشعور أو بالاشعور ألم يكن من الأمانة، ومن التعقل أن يحضر هذا البعض جلسات المؤتمر، ليستمع ويناقش ويشارك، ثم يعارض، ويقرع الحجة بالحجة .

أليس من المحتمل أن يجد هذا البعض من كنوز الإشارات العلمية الهادية بالقرآن الكريم، والتى سيبحثها المؤتمر ما قد يكون فيه هداية للفكر والعقل ومراجعة الرأى.. وليتأكد هذا البعض فى كتاب الله العزيز، ما يغنى الدارسين المخلصين، عن تحميل معانية مالا يحتج ولا يحتمل .

إن الاحتجاج بأن هذا الأسلوب العلمى فى التفسير لبعض الآيات تحت بصر أولى التمييز، والدارسين لكتاب الله العزيز يتعارض مع طبيعة القرآن الكريم وأهدافه، باعتباره كتاب هداية وتربية مردود على أصحابه من زاوية مؤكدة وهى أن هذا الأسلوب فى حد ذاته، من أعظم أسباب الهداية والتربية .

وكثيراً ما سمعنا من قصص المهنددين إلى الإسلام حديثاً أنهم قد جذبهم النص القرآنى بأغواره العلمية العميقة، فكانت استجابتهم له استجابة فورية ومذهلة ولنقرأ أو نفهم وليتدارك هذا البعض معنى قوله تعالى:

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ {٩٣ النمل} .. "صدق الله العظيم" .

وكان المؤتمر ناجحاً رائعاً، وكشف عن جانب من جوانب الإعجاز القرآني الذي شهد به ودلل عليه أطباء من كندا وبريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا، كما أعلن إسلامه أحد كبار هؤلاء الأطباء ..

ويمكن القول إنه كان دليلاً على سلامة الاتجاه والمنهج وأنه في الحقيقة تطبيق للتقرير القرآني ﴿سُنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ {٥٣ فصلت} ..

وفي ١١/٥/٩٥ نشر الدكتور حسب النبي أستاذ الفيزياء بجامعة عين شمس ورئيس الجمعية المصرية للإعجاز العلمي للقرآن في جريدة الأهرام مقالاً تحت عنوان :

### الإعجاز العلمي والحقائق المثبتة علماً ..

"نشر الأهرام للدكتور على خليل يعترض فيه على ربط سرعة الضوء في الفراغ وقدرها ٢٩٩٧٩٢,٥ كم/ث بالقرآن الكريم، بدعوى أن مبدأ النسبية لأينشتين (الذي اعتبر هذه السرعة ثابتاً كونياً مطلقاً وحداً أقصى) قد يتغير مستقبلاً في نظرية الأوتار الفائقة، ويتساءل ماذا يكون موقف الإعجاز العلمي للقرآن لو ثبت أن هذه السرعة ليست العظمى بعكس مبدأ أينشتين أو نتائج حساباتي التي أعطت قيمة مساوية لسرعة الضوء تماماً من نصوص قرآنية في بحثي المشترك مع هيئة الإعجاز بمكة والنشور في الأزهر ومؤتمر مكة والقاهرة وموسكو (منذ عامين) .

ونظراً لأن سيادته قد تجاوز سرعة الضوء خيالاً وأصول الحوار العلمي عمداً واصفاً هذه المعجزة "بادعاء المعرفة وحصاد التفاهات" بينما الموضوع أمر إلهي كوني قرآني أوضحه فيما يلي :

أولاً: لا خوف على القرآن فقد تعهد الله بحفظه (الحجر:٩) وبإظهار إعجازه العلمي بمرور الزمن (فصلت:٥٣)، (الأنعام:٦٧)، (ص:٨٨) وبأن آياته مفصلة على علم {٥٢ الأعراف} .. {٤٩ العنكبوت} .. {٧ آل عمران} .

اتفاق نص قرآني مع نظرية علمية يؤكدها ويجعلها حقيقة يقينية وليست ظنية، وكفى بالله شهيداً، ولا داعي للتشكيك طالما اتفق العلم مع القرآن لأنهما لن يتعارضا إلا إذا ضل طريقه أو أخطأ المفسرون في فهم الآية القرآنية .

ثانياً: مبدأ النسبية الخاصة الذي أعلنه أينشتين (١٩٠٥) والذي يقضى بأن الكون المشاهد رباعي الأبعاد وأن سرعة الضوء في الفراغ هي الثابت المطلق والحد الأقصى للسرعة الكونية وكل المقادير الفيزيائية تنسب لهذه السرعة، حقيقة علمية وليست نظرية ظنية للأسباب التالية .

هذا المبدأ أدى إلى دمج المادة بالطاقة في أهم قانون عرفته البشرية في القرن العشرين في الفيزياء الكونية (الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء) وتم اختبار هذه المعادلة علمياً تطبيقاً تكنولوجياً في تصميم المفاعلات الذرية، وصنع القنابل الذرية، واستخدام الطاقة النووية لدفع السفن البحرية وسفن الفضاء، والعلاج والتشخيص الطبي، كما تم اختبار الثبات المطلق لسرعة الضوء في الأرض والسماء بصرف النظر عن حركة الراصد أو المصدر الضوئي واختبار وتطبيق معادلات تغير الكتلة والزمن والطول بتغير السرعة بالنسبة لسرعة الضوء (طبقاً لهذا المبدأ في النسبية) في تصنيع الميكروسكوب الإلكتروني وصمامات الرادار



وزيادة أعمال الجسيمات الذرية عند التسارع وتصنيع جميع الأسلحة النووية .

ورغم هذا يضع الدكتور على خليل الحظر على النسبية بدلاً من الحظر على انتشار الأسلحة النووية رغم أن النسبية حقيقة مؤكدة علمياً وتكنولوجياً وحاصلة على تأييد جميع علماء الفيزياء على جائزة نوبل بعد أينشتين .

ثالثاً: وصف الله مقدار الحد الأقصى لسرعة الأمور الكونية في قوله تعالى ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾. { ٥ السجدة } .

وبهذا فإن المسافة التي يقطعها (الأمر الكوني) في زمن يوم أرضي تساوى في الحد والمقدار المسافة التي يقطعها (القمر) في مداره حول الأرض في زمن ألف سنة قمرية مما تعدون أي في الكون المشاهد لكم وفي الأمور الخاضعة لقياسكم .

بحل هذه المعادلة القرآنية لنا سرعة ٢٩٩٧٩٢,٥ كم/ث مساوية تماماً لسرعة الضوء في الفراغ المعلنة دولياً، ومتفقة مع مبدأ أينشتين، علماً بأن التعبير بالفعل المضارع (يدبر، ويعرج) دليل على استمرار هذا القانون الإلهي وثبوته وأن عبارة (كان مقداره) أي كان حده لا يزيد عنه علماً بأن (كان) هنا للكينونة تفيد لغويا الأزلية والدوام بثبوت هذا الحد الأقصى لسرعة الأمر مادام الكون قائماً كما أن لفظ الأمر أتى هنا ليشمل كل الأمور الكونية التي تعرج بهذه السرعة المطلقة كالضوء المرئي وغير المرئي بأواجه المختلفة وأمواج الجاذبية وجسيمات النيوتريو المنتشرة جميعاً بين الأرض والسماء، كما أن الضوء المرئي أمر إلهي بنص قرآني { ٤٨ ، ٤٩ القمر }، وأن هذا القانون الكوني الإلهي في { ٥ السجدة } معبراً عنه أيضاً في قوله تعالى ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾. { ٤٧ الحج }.. وصدق الحق تبارك وتعالى بقوله ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾. { ٩٣ النمل } .

فهل يصح لنا كمسلمين أن نخفي هذا الإعجاز العلمي للقرآن في أهم قضايا الكون المطلقة في مبدأ النسبية وهل يجوز أن نشكك في حقيقة مثبتة علمياً وقرآنيًا تماماً كما يفعل العامة في إنكار حركة الأرض وكريتها بعد رصدها من الفضاء وذكرها في القرآن! وهل هذا العلم اليقيني إدعاءً للمعرفة كما يقول البعض؟! وهو يتبعون الظنّ وما تهوى الأنفس على اختلاف بواعثهم.. اللهم فاشهد .

رابعاً: لقد تنبأت معادلات أينشتين قبل نظرية الأوتار الفائقة باحتمال تجاوز سرعة الضوء لجسيمات افتراضية غيبية ذات كتلة نخيلية تدعى "التأكيون" تماماً كما تنبأت الأوتار بكون سداسي الأبعاد (متداخل مع كوننا الرباعي) والسرعة فيه تفوق سرعة الضوء ولكنها لا تخضع لقياسنا أي في علم الغيب وليس في عالم الشهادة بدليل حذف كلمتي «مما تعدون» في وصف الحد الأقصى للسرعة في عالم الغيب في قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ { ٤ المعارج } .

وبالمقارنة بآية { ٥ السجدة } نجد هنا والله أعلم أن سرعة الروح خمسون مرة قدر سرعة الضوء قبل أن تحددها نظرية الأوتار الفائقة التي ستبحث في أمور غيبية تدعم النسبية ولا تهدمها بل تطورها لأكون ثنائية (مرآوية ومضادة ومعكوسة الزمن) كما في قوله تعالى ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ { ٤٩ الذريات }.. بل وتضع جسراً جديداً بين العلم والقرآن وبين عالمي الشهادات والغيب في مجال موحد يدمج النسبية بالكم وقوى الطبيعة مع بعضها ويصف لنا بداية الكون في انفجار عظيم ونهايته في انسحاق عظيم كما يقول البروفسير مبيشيوكاكو أحد علماء هذه النظرية الجديدة في كتابة "ما بعد أينشتين" .

أتوقع والله أعلم أن تكشف الأوتار التي تبحث أساساً في الأمور الغيبية عن إعجاز قرآني جديد في آيات {٤ المعارج} و{٣٨-٤٠ النمل}، {١ فاطر}، {٤٩ الذاريات}، {١٠٤ الأنبياء}، وآيات أخرى في موضوع التوحيد والسموات السبع وغيرها في أوتار فائقة تعزف سيمفونية رائعة متكاملة في عالمي الغيب والشهادة تسبيحاً لخالق الكون عز وجل كما في قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾. {٤٤ الإسراء}.. انتهى.

وخلال هذه الفترة، وما أعقبها عقدت مؤتمرات للإعجاز العلمي في القرآن ضمت عديداً من أبرز علماء الفلك والرياضيات والأطباء في العالم وقد كان خلال أحدها أن أعلن واحد من أشهر أطباء علم الأجنة الأوروبيين إسلامه بعد أن ترجحت له الآيات التي تحدثت عن أطوار الجنين بمجرد أن يحدث اللقاء الجنسي. أما صفحة الإعجاز العلمي في جريدة الأهرام يوم الاثنين من كل أسبوع ويحررها الدكتور زغول النجار فإنها مستمرة من بضع سنوات وتحظى بقبول كبير .

إننا ضد كل تعسف وتطويع للآيات القرآنية لكي تحقق غرضاً معيناً. حتى لو بدا نبيلاً، ولكننا في الوقت نفسه من منطلق حرية الفكر لا نستطيع أن نحول بين كل صاحب فكرة وفكرة. حتى لو كان خاطئاً، فما بالك وهو مجتهد حسن الطرية يحاول أن يكشف عن معبر جديد من أبعاد إعجاز القرآن ..

فلا يقفن أحد أمام من يدخل هذا الميدان ما دام يستخدم الحجة والبرهان.. وليستمر السجال، وللذين يعارضون أن يعارضوا حتى تظهر الحقيقة - وهي - كما يقولون - بنت البحث.. وهي ما تبقى في النهاية..

بقي أن نقول أن دعوة الإعجاز العلمي للقرآن الكريم انتعشت وتأسست لها هيئات عديدة بعضها من تكوين الدول الإسلامية، وبعضها هيئات حرة أو جامعية خاصة في مصر، والسعودية والكويت وباكستان، وتعقد هذه الهيئات مؤتمرات عديدة وآخر ما وصل إلينا كتاب عن ندوة الإعجاز العلمي للقرآن الكريم نظمتها الجمعية الخيرية الإسلامية واشترك فيها لفيث كبير من أساتذة الجامعات في فبراير سنة ٢٠٠٣ (٢٣ ذو الحجة ١٤٢٣) وصدر عنها كتاب كما قدم الدكتور محمد شوقي الفنجري منحة دراسية قيمتها عشرة آلاف جنية لنيل درجة الدكتوراة في أحد مواضيع الإعجاز العلمي للقرآن ومنحة أخرى قدرها ستة آلاف جنية لنيل درجة الماجستير .

## الفصل الخامس

### محاولات التجديد

### في تفسير القرآن الكريم

يصاب الإنسان بالخيبة عندما يراجع ما تمخض عنه أدب النهضة من معالجة قرآنية من أيام رفاة رافع الطهطاوى حتى الحقبة المعاصرة. نحن بالطبع لا نطمع، ولا نريد، مجلدات كالتى قدمها الأوائل، فإن التفاسير الحديثة التى أشرنا إليها، أعنى تفسير المنار وتفسير الطاهر بن عاشور الخ... وتفسير الشيخ شلتوت وتفسير المراغى وتفسير عبد الكريم الخطيب وتفسير بن باديس الخ... تماثل وتفضل المجلدات القديمة، ولكننا نشير إلى ملحظ التجديد والإبداع الذى قد لا نجده إشارة إليه إلا فى عقلانيات الشيخ محمد عبده وسط ركام المعلومات. وعلى كل حال فإننا سنجد محاولات اختلف حظها من التوفيق فى تحقيق ذلك .

كنا نأمل أن نرى دراسات جادة عديدة فى هذا العصر الحديث، ولكن من المؤسف أن العالم العربى والإسلامى بأسره. وقع تحت الديكتاتوريات العسكرية والمشيخيات القبلية التى تضيق بحرية البحث، ولا تريد - بوجه خاص - التحرر عما جرى عليه الأقدميون فى هذا المجال بالذات. من هنا كانت الحصيلة ضئيلة .

(١)

### محاولة الشيخ أمية الخولى

لعل أولى محاولات التجديد كانت تلك التى قام بها الشيخ أمين الخولى. وهو يجرى فى ركاب الرعيل الأول من رجال الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضى رعىل طه حسين ومنصور فهمى وأحمد أمين الخ... وقد نشأ ودخل مدرسة القضاء الشرعى وهو فى الخامسة عشر من عمره فأتى الدراسة بها بقسميها الابتدائى والعالى بتفوق. وكانت هذه المدرسة - كمدرسة دار العلوم - قلعة من قلاع العربية والإسلام وقد تولى نظارتها وألقى الدروس فيها نخبة ممتازة من خيرة المفكرين والعلماء والفقهاء المصريين .

وأتى دراسته فيها سنة ١٩٢٠ وعين مدرساً بالمدرسة نفسها فى ١٠ مايو ١٩٢٠ .

وفى ٧ نوفمبر ١٩٢٣ صدر مرسوم ملكى بتعيين أئمة للسفارات الأربع المصرية المنشأة فى لندن وباريس وواشنطن وروما، وكانت الأخيرة من نصيب أمين الخولى، فأبحر إليها من الإسكندرية فى ١٤ ديسمبر ووصل إلى برنيزى بعد ثلاثة أيام .

وبقى فى إيطاليا نحو سنتين، تعلم فيها اللغة الإيطالية حتى أجادها، وشرع يطلع على الحياة الدينية والثقافية وجهود المستشرقين فى أوروبا .

ونقل إلى مفوضية مصر فى برلين فى أول يناير ١٩٢٦ بسبب أزمة دبلوماسية أثارها تعلم اللغة الألمانية، وجعل منها ومن الإيطالية وسيلته إلى المعرفة الأجنبية .

ولما ألغيت وظيفة الإمامة من السفارات والمفوضيات المصرية فى سنة ١٩٢٧ عاد إلى مصر، واستأنف عمله الذى كان قد تركه فى مدرسة القضاء الشرعى فى ١٩/٣/١٩٢٧ وفى ١٩٢٨ أغلقت مدرسة القضاء الشرعى أبوابها، فانتقل فى ٣ نوفمبر إلى قسم اللغة العربية من كلية الآداب بالجامعة المصرية

(القاهرة الآن) مدرسا ثم أستاذا مساعدا فى ١٩٣٧/٤/٤ ثم أستاذا لكرسى الأدب العربى فى ١٩٤٣/٢/١٧ وفى ١٩٤٦/١٠/١٩ نقل إلى كرسى الأدب المصرى فى العصور الإسلامية. وآل به التدرج فى الكلية إلى أن صار رئيساً لقسم اللغة العربية، ووكيلاً للكلية فى ١٩٤٦/٥/١٣ .

وفى ١٩٥٣ احتدمت الخلافات فى الكلية فأدت إلى تشتت جماعة من هيئة التدريس. فعين أمين الخولى مستشاراً فنياً لدار الكتب فى ١٩٥٣/٦/١٢ ثم مديراً عاماً للثقافة إلى أن أتم الخدمة الحكومية فى أول مايو ١٩٥٥، فأحيل إلى التقاعد. وفى أثناء عمله بكلية الآداب انتدب للتدريس فى كلية الحقوق بالجامعة المصرية، وفى كلية أصول الدين بالأزهر، وكلية الآداب بجامعة الإسكندرية سنة إنشائها، ومعهد فن التمثيل العربى والموسيقا المسرحية، ومعهد الدراسات العليا. وعين عضواً فى مجلس كلية أصول الدين، والمجلس الأعلى لدار الكتب. وفى الساعة الثالثة بعد ظهر الأربعاء التاسع من مارس سنة ١٩٦٦، رحلت روحه عن الدنيا، وعاد جسده إلى قريته شوشاى .

إن هذا السجل قد يعيد إلى الذهن ذكرى الشيخ رفاعه رافع الطهطاوى الذى دخل باريس إماماً للبعثة، فتأثر بالحضارة العصرية وحاول إقامة جسر ما بين الإسلام، وحضارة العصر وإن لم يقدر للشيخ الخولى القيام بالأعمال التى قام بها رفاعه رافع الطهطاوى .

كان لهذه الثقافة المتنوعة، إلى جانب مواهبه الخاصة - أثرها إذ جاءت محاولاته تحمل طابعاً من الجودة والأصالة وكانت النقطة الجديدة فى معالجته للتفسير أنه دعا إلى تفسير يستشف البلاغة النفسية المؤثرة فى القرآن وانتقد الطريقة التقليدية القديمة فى التفسير، وقال "فصواب الرأى فيما يبدو أن يفسر القرآن موضوعاً موضوعاً لا أن يفسر على ترتيبه فى المصحف الكريم سوراً وقطعاً، ثم إن كانت للمفسر نظرة فى وحدة السور وتناسب آياتها واطراد سياقها فعل ذلك إنما يكون بعد التفسير المستوفى للموضوعات المختلفة" مناهج تجديد فى النحو والبلاغة والتفسير والأدب ص ٣٠٧ - القاهرة ١٩٦١ .

والحق أن الشيخ أمين الخولى أراد تحقيق أمل طموح هو تقديم منهج جديد للتفسير أطلق عليه "المنهج الأدبى للتفسير" ولعله قد ظلمه بهذه التسمية لأن المنهج كما وضع أصوله يقوم على: (١) دراسة طبيعة شبه جزيرة العرب وتاريخها ولغاتها وثقافتها قبل الإسلام. (٢) والتأريخ للقرآن ككتاب. (٣) تصنيف القرآن موضوعياً. (٤) ترتيب سور القرآن وآياته تاريخياً. (٥) دراسة الموضوع المراد تفسيره دراسة تبدأ بالمفردات وتنتهى بالمركبات مع العناية بالجانب النفسى والاجتماعى" (٧٤) .

وأهم ما يمكن أن يثمره التفسير الموضوعى هو محاولة إدراك النظرة الكلية للقرآن، أو المفهوم القرآنى أو الفكر القرآنى - أو فى كلمة - الموقف القرآنى بالنسبة إلى كل ما تناوله القرآن بحديثه. وهذا ما يصعب أو يستحيل التوصل إليه بالتفسير التقليدى - سورة.. سورة" ..

ومن الجدير بالذكر أن بعض القدماء عنى بمعالجة بعض موضوعات القرآن كالخصائص فى كتابه "أحكام القرآن" وابن القيم الجوزية فى كتابه التبيان فى أقسام القرآن" الذى درس فيه موضوعاً واحداً هو "القسم" فى القرآن. ولكن هذه المعالجات لم تكن منهجاً عاماً، وبالتالي فإننا - كما يذهب إلى ذلك الشيخ أمين الخولى، لم نحصل - على سبيل المثال - على المفهوم القرآنى الخاص المحدد لبعض العلاقات الأسرية مثل

(٧٤) أنظر بحثاً للدكتور عبد الله خورشيد بعنوان "التفسير الأكاديمى" هوامش على المنهج الأدبى للتفسير فى مجلة الثقافة العدد نوفمبر ١٩٧٥ ص ٢٠، وقد اعتمدنا عليه فيما جاء بهذه النبذة .

الأبوة، أو الأمومة. أو البنوة أو الأخوة، أو كظاهرة اجتماعية مثل الطبقة أو نقوة اقتصادية مثل العمل الخ... بل لعلنا لا ندعو الحقيقة إذا قلنا إننا لم نحدد بعد المفهوم القرآني الخاص المحدد لفكرة الألوهية نفسها، وهي الفكرة الجوهرية، لا في الإسلام وحده، ولكن في كل دين من الأديان. ولا شك أن خلو التفسير من ذلك وغيره يرجع بالدرجة الأولى إلى أنه لم يخطر له أن يتخذ الموضوع الواحد أساساً في دراسة القرآن وفهمه" انتهى .

ومن الواضح أن النهوض بهذه المهمة تتطلب أعماراً، لا عمراً واحداً تنذر لها، ولم ينذر الشيخ الخولي عمره لها. ولذلك فإنه اقتصر على معالجات لبعض الموضوعات ذات الصلة بالمعنى الأدبي أو النفسي. بينما عالج بعض تلامذته موضوعات معينة، فالدكتور محمد شكرى عياد عالج موضوع "اليوم الآخر في القرآن الكريم" كما عالج تلميذه الآخر الدكتور محمد خلف الله موضوع "الفن القصصى في القرآن الكريم" أما قرينته وخليفته الدكتورة عائشة عبد الرحمن - بنت الشاطئ "فقد نحت عند تطبيقها للمنهج نفسه تحت عنوان "التفسير البياني" منحى آخر عندما لم تلتزم موضوعاً واحداً بعينه، ولكنها اختارت بعض قصار السور المكية التي يلحظ فيها وحدة الموضوع من حيث العناية بالأصول الكبرى للدعوة الإسلامية .

ولما كانت الموضوعات الرئيسية في القرآن. كما يرى ذلك كاتب التعليق على منهج الشيخ، الذى اعتمدنا عليه في هذه الفقرة هي الإنسان والمجتمع والطبيعة وما وراء الطبيعة، فإن من الممكن إذا درس كل موضوع من هذه الموضوعات على حده، أن تقدم لنا في مجموعها "تفسيراً" للقرآن يختلف كل الاختلاف عن التفسير التقليدي .

والأصل الثانى الهام فى المنهج الذى أراده الشيخ أمين الخولى هو "الترتيب التاريخى" وهنا نصطدم بقلة المعلومات وتضارب الروايات ولكن هذا لا يمكن أن يقف أمام البحث الدؤوب، والمقارنة الدقيقة، فضلاً عن أن لدينا بالفعل ترتيباً تاريخياً للقرآن ينسب إلى على بن أبى طالب وإلى ابن عباس. وعلى كل حال فإن الترتيب التاريخى لن يقوم إلا بدور تكميلى أو إيضاحى، لأن الدراسة الموضوعية هي التى ستقدم لنا الفكر القرآنى. انتهى"

ونحن نرى أن مثل هذا المنهج مدخل جديد، وهام ولعله أقرب المسالك إلى إيضاح الفكر القرآنى، ولكن ثمة شىء يحيك فى النفس عن الطريقة التى طبق بها الشيخ وبعض تلاميذه هذا المنهج، ولمسها كاتب التعقيب والدراسة عندما جعل عنوان دراسته "التفسير الأكاديمى" وعندما استشهد - أو بمعنى أدق - اعتمد على ما قام به المستشرقون وليم موير ونولدكة فعندما نقرأ دراساتهم لا نحس بتلك العاطفة الدافئة، المتدفقة التى تتملك المسلم عند اقترابه من القرآن. وافتقاد مثل هذا الإحساس قد يفسح المجال لخروج أو انحراف أو اجتهاد خاطئ. فالقرآن كتاب مقدس هذه طبيعته، وهذه حقيقته، ولا بد أن يعالج على هذا الأساس. ولعل الاستثناء البارز من هذا هو الدكتورة عائشة عبد الرحمن التى نلمس فيها هذا النبض، أما معظم الباقيين فإنهم يعالجون القرآن معالجتهم للنصوص متأثرين فى هذا بمذاهبهم اللغوية وبجهود المستشرقين .

ومن المؤكد أن الشيخ ومؤيديه لو مضوا فى "الترتيب التاريخى" لما توصلوا إلى أفضل مما توصل إليه المستشرقون ولضلوا الطريق ما بين متاهات "علوم القرآن" وما بين شذوذ الحداثة وانحرافات فنقطة الإبداع هي محاولته التفسير "النفسى" وفكرة الدراسة الموضوعية، وبالنسبة للموضوعات التى أرتاها، فهذا كله مدخل سليم للتعرف على القرآن، وإن لم يكن جديداً تماماً وفات الجميع أن ترتيب القرآن الموجود بين أيدينا إنما يمثل الترتيب الذى قام به الرسول فى مراجعته الأخيرة، وأشرنا إلى ذلك فى حينه .

(٢)

## الدكتور محمد شحرور وكتابه "الكتاب والقآن"

أمضي د. محمد شحرور الحاصل علي درجة الدكتوراه في الهندسة من جامعة كامبردج. قرابة خمسة وعشرين عاماً في البحث والتقصي ليخرج كتابه الضخم "الكتاب والقآن: قراءة معاصرة".

إنه جهد صادق ومضن.. يحدوه الأمل في الخروج بالفكر العربي والفقهاء الإسلامي من أزمتهم الخانقة والتوصل إلي استنباط منهج مبتكر في كيفية تناول كتاب الله بالدراسة والفهم الموضوعيين ويشرع د. شحرور ومنذ الصفحات الأولى في نقاش المفاهيم المتوارثة التي ترسخت في العقل المسلم كمسلمات أخذت عن علماء السلف دون تمحيص رغم أنهم أبدوها في ضوء الأرضية المعرفية السائدة في عصرهم الأمر الذي يطبعها بطابع النسبية الزمانية والمكانية .

ينطلق الباحث من منطلق أن الكتاب الكريم وحي من الله ويبرهن علي ذلك بأنه :

"يحمل الطابع المطلق في محتواه لأن الله مطلق كامل المعرفة ولا يتصف بالنسبية .

ويحمل الطابع النسبي في الفهم الإنساني بما يتفق مع حقيقة التطور في الفكر الإنساني مما يكفل لكتاب الله استمراره كهدي للناس في كل عصر

ويحمل الطابع الخاص في الصياغة لاحتوائه المطلق الإلهي في المحتوى والنسبية الإنسانية في فهم هذا المحتوى وهي صياغة معجزة لا يستطيعها الإنسان تسمح بتعدد التأويل علي مر العصور ولهذا فالكتاب لا يعد تراثاً إنما التراث هو الفهم الإنساني النسبي له" .

واعتمد الباحث في قراءته لكتاب الله علي المنهج اللغوي لأبي علي الفارسي والمتمثل بالإمامين ابن جني وعبد القادر الجرجاني، وعلي آخر ما توصلت إليه علوم اللسانيات الحديثة من نتائج علي رأسها أن كل الألسن الإنسانية – بما فيها اللسان العربي – لا تحتوى خاصية الترادف بل إن الكلمة إما أن تهلك عبر التطور التاريخي أو تحمل معنى جديداً مع عبارة ثعلب الشهيرة "ما يظن في الدراسة اللغوية من المترادفات هو من المتباينات" ولذا أختار معجم "مقاييس اللغة" لابن فارس مرجعاً لتحديد فروق معاني الألفاظ التي اختصها بالبحث .

والباحث لا يقدم في كتابه تفسيراً للقرآن فهو يرى أن القرآن يؤول ولا يفسر حيث التأويل هو ما تنتهي إليه الآية من حقيقة أو قانون عقلي نظري، وهذا ما يسمح به النص المتشابه المعجز الذي يمكن إعجازه في ثباته مع حركة محتواه ونسبية فهمه الأمر الذي يعني أن الوحي لا يناقض العقل ولا يتناقض مع الحقائق ومن ثم يطابق المحتوى كل الأرضيات المعرفية المتطورة إلي أن تقوم الساعة. الأمر الذي يجعل إعجازه غير قاصر علي الجمال البلاغي فقط أو علي العرب فحسب .

وفي عجلة نعرض أبرز ما توقف عنده الباحث من آيات ومن ثم نتائج بحثه .

قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾. {٧ آل عمران}.. يفرق الباحث أولاً بين النبوة والرسالة فالنبوة علوم أي: مجموعة معلومات وأخبار وهي الآيات المتشابهات التي تحتوى المطلق الإلهي في المحتوى والنسبية في الفهم البشري لها والتي أطلق عليها الكتاب الكريم مصطلح القرآن والسبع المثاني. أما الرسالة فهي أحكام أي: مجموعة من التشريعات وهذه هي الآيات

المحکّمات القابلة للاجتهد حسب الظروف الاجتماعية والاقتصادية ما عدا العبادات والأخلاق والحدود وقد أعطاهما الكتاب تعريفاً خاصاً هو "أم الكتاب" وهناك آيات لا محکّمات ولا متشابهات أطلق عليها مصطلح "تفصيل الكتاب"

وطبقاً لما سبق يرى الباحث أن آية الإِراث - مثلاً - ليست من "القرآن - النبوة" ولكنها "أم الكتاب - الرسالة" بل من أهم أجزاء الرسالة وهي الحدود ولا ينفي هذا أنها من عند الله. لكن الباحث ينفي أن أم الكتاب والقرآن اسمان لمسمى واحد وللبرهنة على ذلك يورد الباحث قوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾. {١ الحجر}.. مبيناً أن القرآن إما أن يكون شيئاً آخر بحيث يكون عطفهما للتغاير، أو أن يكون جزءاً من الكتاب وعطفهما من باب عطف الخاص على العام وبينه الباحث إلى أن «كتب» تعنى جمع أشياء بعضها مع بعض لإخراج معنى مفيد أو موضوع متكامل ولذلك فمن الخطأ أن تفهم كلمة كتاب عندما ترد في المصحف أنها تعنى موضوعاً واحداً ككتاب الخلق والساعة والصلاة... بينما تعنى إذا جاءت معرفة بـ «الكتاب» مجموعة هذه المواضيع .

يرى الباحث أن البيّنة في اللسان العربي تعنى الدليل المادى القابل للإبصار والمشاهد وأنها كانت معجزة خارجة عن الرسالة عند موسى وعيسى عليهما السلام الخ... أمّا محمد صلى الله عليه وسلم فقد أعطى "آيات بينات" هي جزء من النبوة القرآن. يكون التأويل النهائى لها هو تحويلها من علم إخبارى إلى علم نظرى يدعّمه العلم الحسى الأمر الذى أغفله العلماء المتقدمون عند وضعهم قواعد التأويل .

ويتوقف الباحث عند ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ (٤) إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً. {٥ المزمّل:}.. رافضاً المعنى السائد للترتيل وهو التآلق في التلاوة ومبيناً أن الأصل اللغوى "للترتيل" هو التنسيق والتنظيم وأن القول الثقيل ليس ثقيل النطق وإنما المقصود وعورة الفهم مما يتناسب مع الترتيل الذى هو ترتيب وتنسيق الآيات الواردة فى موضوع واحد حتى يسهل فهمها .

وكمثال على إتباعه قاعدة الترتيل هذه نعرض ما توصل إليه من نتائج فى تأملاته للقصص القرآنى الذى يرى أنه يشير إلى خط تطور التاريخ الإنسانى بالمعرفة والتشريع. حيث يرى أن نوح عليه السلام هو أول بشر يتصل بالسماء وأنه وبه بدأ الإنسان الحديث حيث امتلك الإنسان لغة مجردة بأبسط صورها {١٦٣ النساء - ٦٣ الأعراف - ١٠ إبراهيم}.. وقد اقتصررت رسالته على التوحيد والاستغفار فقط وواجهه قومه بالكفر والنكران وكانت نبوته قفزة نوعية على سلم التطور من الناحية العلمية للإنسان ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. {٦٢ لأعراف}.. وشملت نبوته تعليم البشرية ركوب الماء بواسطة ربط الخشب بالآليات الطبيعية {١٣ القمر}.. ويتضح من الآيات ﴿قَالَ سَأُوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾. {٤٣ هود}.. أن المنطقة التى سكنها نوح وقومه منطقة محاطة بالجبال تعرضت لتيار مائى قوى بدا موجه كسلاسل الجبال {٤٢ هود}.. وجاءت إشارة الطوفان متمثلة بنشاط أحد البراكين الخاملة {٤٠ هود} فركب نوح ومن الفلك ثم طرح السيل جنث قوم نوح وربما فى فوهة البركان {٢٠ نوح} فقد أستعمل فى الآية فاء السبية والتعقيب بين الغرق وإدخال النار ويلاحظ الباحث أن النار ذكرت نكرة مما يعنى أنها ليست نار الآخرة .

وتضمن الوحي إلى نوح عليه السلام التبشير بالبنين والاستقرار وتذليل الأنعام ﴿وَيُمَدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾. {١٢ نوح}.. حيث يرى الباحث أن المال لا يعنى النقد وإنما هو من الفعل "مول" وتعنى أدوات الإنتاج البدائية وطبقاً للقاموس فالخروج إلى المال يعنى إلى الضياع والإبل. كما أن البنين لا تعنى الأولاد

الذکور ولكنها من الفعل "بنى" الذى يعنى الثبات والإقامة وتلك حقيقة البنيان والأبينة .

ويرى الباحث أن نبوة نوح عليه السلام تمثل تنمية المدارك العقلية للإنسان بتوجيهه للتفكير فى الكون من حوله {١٣/١٤/١٥ نوح}.. كما تمثل بداية العبادة التجريبية والاستغفار {٧/٤/٢٨ نوح}.. وبداية وترسيخ مفاهيم البعث والجزاء {١٧/١٨ نوح}.. كما تشير الآيات إلى بداية ظهور التمايز الاقتصادى والاجتماعى ووجود مبدأ الأجر والاستخدام {٧٢ يونس - ١١١/١٠٩ الشعراء - ٢٧ هود} .

ويتوقف الباحث عند قوله تعالى ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا﴾. {١٦ الإسراء}.. مبيناً أنها من القرآن النبوة وأنها تحوى قانوناً اجتماعياً، الأمر الذى يدل على احتواء "القرآن" على القوانين الموضوعية الفاعلة خارج الوعى الإنسانى حيث يرى أن المترفين هو أدق مصطلح يمكن أن ينطبق على كل طبقة بيدها مقاليد الأمور ولها من الامتياز ما لا يتوفر لبقية الناس بغض النظر عن العنوان المرفوع لهذا المجتمع حيث لا يهتم القرآن بالشعارات. والفعل أمر له خمسة أصول أحدها بمعنى الزيادة والنمو أى عندما يصبح المترفون طبقة يؤدى هذا الوضع إلى الفسوق ثم إلى دمار المجتمع .

قوله تعالى ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾. {٤ آل عمران}.. توقف الباحث أمام هذه الآية يتعجب أشد العجب كيف ظن المفسرون أن الذى بين يديه هما التوراة والإنجيل الأمر الذى يؤدى إلى قصم ظهر نبوة محمد فقد جاء الكتاب إلى محمد ناسخاً لما قبله لا مصدقاً بالمعنى المعهود ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾. {٥٠ آل عمران}.. التى تعنى أن رسالة عيسى هى رسالة موسى مع بعض التعديل. إن بين يديه تعنى الحاضر لا الماضى الذى يشير إليه ﴿مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾. {٤ آل عمران}.. والشىء الوحيد الذى كان موجوداً وقت نزول القرآن ويحتاج إلى ما يصدقه هو الرسالة "التشريعات" فالقرآن جاء مصدقاً لأم الكتاب وهى التى سمها الله "كتاب الله" .

ولضيق المجال هنا نذكر بعض المفاهيم التى توصل إليها الباحث فى عجالة شديدة .

الذكر: الصيغة القرآنية أى تحول القرآن إلى صيغة لغوية إنسانية بلسان عربى.

الفرقان: الوصايا العشر التى جاءت إلى موسى وعيسى عليهما السلام ثم إلى محمد {١٥١ - ١٥٣ الأنعام} بالإضافة إلى فرقان خاص لمن يريد زيادة فى التقوى {٦٣/٧٤ الفرقان}

كلمات الله: هى المدلولات نفسها فكلمة الشمس بالنسبة لله هى عين الشمس فكلمات الله هى عين الوجود ونواميسه. لأن الله أحادى فى الكيف الله أحد "واحد فى الكم" هو إله واحد" .

السبع المثانى: هى سبع آيات كل منها فاتحة لسورة حيث المثانى تعنى الأطراف حسب الأصول اللغوية وبعد أن يورد هذه المثانى يعلق بأنها مقاطع يتألف منها أصل الكلام الإنسانى وليس العربى فقط .

الروح: الظن السائد بأن الروح هى سر الحياة العضوية بعيد عن مفهومها فى كتاب الله ولقد أدى ذلك إلى الابتعاد عن البحث فى أصل الحياة والإنسان والأنواع ثم يستعرض آيات الوفاة والموت فلا يجد للروح ذكراً بل النفس فالنفس هى التى تحيا وتموت والله تعالى أعطانا الروح من ذاته وليس من المادة الكونية المكونة للإنسان ولذلك سمى الأحكام روحاً وجبريل روحاً لقيامه بحمل أوامر الله ونواهيه، لأنها ليست حقيقة مجسمة وإنما سلوك واع .



## الفقه والسنة :

يرى الباحث أن رسالة محمد تتألف من: الحدود - العبادات - الأخلاق - التعليمات ذات الطابع الخاص أو العام - التعليمات ذات الطابع المرحلي. ولقد توصل الباحث إلى نظرية جديدة تماماً في رؤيته لأسس التشريع الإسلامي مبنية على صفتين للدين الإسلامي وهما الاستقامة والحنيفية وقد كان إبراهيم (عليه السلام) هو أول من أدرك أن كل شيء حنيف أي متغير ما عدا الله سبحانه حيث "الحنف" تعني الميل والانحراف قليلاً. ويرى الباحث أن صلاحية الدين الإسلامي لكل زمان ومكان تكمن بهذه الحركة الجدلية بين الاستقامة والحنيفية التي تكسب التشريع تطوره الذي يناسب ما تفرزه التناقضات الداخلية للحياة الإنسانية ومن ثم فالإنسان في احتياج إلى ثوابت «الصرط المستقيم» لتشكل بدورها علاقة جدلية مع المتغيرات {٣٠ الروح} دونما انتهاك لحدود الله. وقد أعطانا الله حالات الحدود جميعاً في شكلها الأعلى والأدنى وفي حالة المستقيم. ولا يجوز تجاوز هذه الحدود ولكن يسمح بالحركة بينها وكمثال: حد السرقة قطع اليد هذا هو الحد الأعلى للعقوبة ومن ثم يمكن أن تكون العقوبة أقل من القطع وفقاً للظروف الاجتماعية .

أما عن السنة النبوية فيري د. محمد شحرور أن ما اصطلح علي تسميته بالسنة النبوية إنما هو حياة النبي كنبى وكائن إنساني عاش حياته في صميم الواقع السائد في شبه جزيرة العرب بكل ما كان يحيط بها من ظروف جغرافية وتاريخية وثقافية وسياسية وليس في عالم الوهم وأنه لم يؤثر عن الصحابة أنهم اعتبروا أحاديث النبي وحياً في وقت من الأوقات والنبي من جهته لم يجمع كلامه رغم أمره بتدوين الوحي بكل دقة. إن مقولة العلماء بأن ذلك يرجع إلي خشية النبي من اختلاف الوحي بالحديث مقولة خاطئة تناقض قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. {٩ الحجر}.. إن السبب الحقيقي هو معرفة الرسول وصحابته رضوان الله عليهم أن الحديث مرحلة تاريخية وأن ما فعله النبي في القرن السابع كان الاحتمال الأول لتفاعل الإسلام في مرحلة تاريخية معينة ولكنه ليس الاحتمال الأخير وبما أن رسالته تقوم علي خاصية الحدود فقد كان الرسول هو الوحيد الذي سمح له بالاجتهاد لكي يعلم الناس أن يجتهدوا من بعده. ذلك الدرس الذي وعاه جيداً عمر بن الخطاب ومن ثم فالسنة تمثل الجانب النسبي في الإسلام في مقابل المطلق.. الله جل جلاله ووحيه حيث أخذ الرسول المطلق - الحدود من الرسالة وحولها إلي عالم الحقيقة النسبي وهذا هو السبب المحوري في حرص النبي وصحابته علي الوحي الذي هو المطلق أما الباقي فمتروك للإنسان في سياق الزمن فلا قوالب جاهزة ولا توقيف لحركة التاريخ .

\* \* \*

ولاشك أن كتاب الدكتور شحرور يمثل محاولة توفر لها الإخلاص والعلم والدأب والرغبة العارمة في تفهم آفاق القرآن الكريم ولهذا فإنه اتسم بالأصالة وتوصل إلى ما لم يتوصل إليه غيره .

وقد طبع الكتاب طبعات متعددة وتعرض لموجة من الهجوم لم تقم على أسس علمية أو تأخذ صفة موضوعية، وجاء هذا الهجوم من معسكر فقهاء التقليد ومن معسكر أدعياء التنوير. فالفريق الأول رأى فيه خروجاً على المسلمات والفريق الثاني عز عليه أن يعترف باحث على هذه الدرجة من الذكاء والثقافة بموضوعات الألوهية وبالقرآن كوحى من الله، وهم يرون أن هذه موضوعات "قابلة للمناقشة"، ومعظمهم يميل للحنيف عليها، إن لم ينكرها ..

ومع إعجابنا الكبير بالكتاب ومؤلفه فإن هذا لا يمنع من القول بأن تمسك المؤلف بالمنهج اللغوى ودلالة الألفاظ وأصلها في قواميس اللغة، أدى به إلى بعض التفسيرات المجافية للسياق القرآنى. كما فى

تعريفه للمال والبنين وتفسيره الآيات. ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٌّ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ. نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. {٢٢٢ البقرة}.. إن كلمة "النساء" فيها جمع نساء أى المتأخر والمستجد ويصبح معنى الآيتين أن الأشياء المستجدة وهى من الأشياء المادية التى يحب الناس جمعها وكسبها قد أباح لنا الله استعمالها متى وكيف نشاء. وقد استعمل صيغة الجماعة "حرت لكم" للدلالة على الذكور والإناث معاً .

وفى تعريفه كلمة "جيوبهن" الجيب جاء من جيب وتعنى فتحة لها طبقتان لا طبقة واحدة لأن الأساس فى فعل "جيب" فعل "جوب" وتعنى فى اللسان العربى الخرق .

وبهذا نعرف أن الجيوب فى المرأة هى ما بين الثديين والإبطيين والفرج والآيتين ويجب على المرأة المؤمنة أن تغطيها وذلك هو الحد الأدنى للباس المرأة ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾. {٣١ النور}.. والخمار من "خمر" وهو الغطاء. والنبي وضع الحد الأعلى للباس المرأة بقوله "كل المرأة عورة ماعدا وجهها وكفيها" فإذا خرجت المرأة عارية فقد خرجت عن حدود الله وإذا خرجت دون أن يظهر منها شئ حتى وجهها فقد خرجت عن حدود رسول الله وربما يسأل البعض أليس الفم والأنف والعينان من الجيوب؟ نعم ولكنها جيوب ظاهرة فى الوجه ورأس الرجل والمرأة أظهر فيهما وهو هوية الإنسان .

وكذلك تفسيره ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ {٣١ النور}.. فإن الضرب هو السير، من أن ضرب فى اللسان العربى لها أصل واحد ثم يستعار ويحمل عليه وأول معنى محمول عليه هو الضرب فى الأرض بغرض العمل والتجارة والسفر كقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾. {٩٤ النساء}..

و "القلب" عند الدكتور شحرور هو المخ ولا يثنيه أن يضعه القرآن فى الصدور. أما الشهر فى سورة القدر فليس المقصود به شهر رمضان ولكنه "إشهار" القرآن .

كما أن المقصود بقوله تعالى ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ {٧٦ الواقعة}.. فهم أسرار مواقع النجوم فى الكتاب كله وهى الفواصل بين الآيات وليس مواقع النجوم فى السماء حسب المفهوم الشائع على كل حال .

**نقول: إن كلام الدكتور شحرور فى هذا كله مما لا يستقيم ..**

وقد احتفلنا بالدكتور وكتابه هذا الاحتفال لأنه يمثل المثقف المسلم والمفكر الذى يبدأ من منطلق إيمانه بالله وكتابه ورسوله ولكنه يعمل لكى يستخرج منه ما يوحى به العقل السليم والفكر المستقيم فنجا بذلك من التأثير بنظرة المستشرقين وزخرف قولهم الذى خضع له وتأثر به كثير من المثقفين المسلمين المعاصرين فذهبوا إلى أن القرآن من "التراث" وعاملوه كما يعامل أى كتاب تراثى فضلوا وأصلوا، مما سنشير إليه فى الفقرة التالية :

إن نقدنا لبعض ما جاء فى الكتاب لا ينفى ما بذل فيه من جهد وما اتسم به أصالة .

## مدرسة المستشرقين وما بعد الحداثة

أدت التطورات السريعة للفكر الأوربي إلى ظهور آراء ومذاهب تختلف كل الاختلاف عما كان عليه الأمر قبل خمسين عاماً. ولم تعد عقلانية "ديكارت" التي كان يفخر بها طه حسين وأقام عليها شكوكه في النصوص القرآنية تعنى شيئاً بعد أن استبعدت ودفع إلى الصدارة بنيته وأفكاره ذات الطابع النفسى وليس العقلانى كما استخدم فرويد وطريقته بحيث ظهر علم تحليل "نفس للمعرفة" يماثل علم تحليل نفس الإنسان الذى وضعه فرويد، ويهدف مثله إلى الإيغال فى عوالم اللاوعى والمناطق المجهولة وأظهر تحليل نيته لعملية المعرفة أنها محض سلسلة من الاستعارات مما يجعل إدعاء المعرفة مستحيلًا فهى استعارات تتحرك من الشئ إلى الذهنية ومن الصورة إلى اللفظ الذى يتضمن تعبيراً عن حالة الفرد المزاجية ومن هذه الحالة إلى اللفظ الذى يفرضه العرف الاجتماعى على أنه صحيح ثم مرة أخرى من هذا اللفظ المقنن إلى الشئ الذى لا ندرك منه إلا أكثر الملامح قابلية للاستعارة بسهولة فى قاموس المفردات التى ورثناها وفى النهاية تتحلل الحقيقة "ويموت الله!!" (75).

وقد يوضح هذا التطور النص التالى المقتبس من أحد النقاد العرب المتخصصين فى هذا المجال وهو الأستاذ على حرب فى كتابه "نقد الحقيقة" كذلك شأن النص الفلسفى فقد تبدلت النظرة إليه وبات هو الآخر مفتوحاً على الاختلاف والمغايرة وافتتاح النص الفلسفى على ما ليس هو يتيح لنا عقله ينسخ من اللامعقول والخيالى ويقوم على الحجب والخداع اللامعنى والفراغ فعلى هذا النحو صارت تقرأ النصوص لدى نيته أو ماركس أو هيدغر أو التوسير أو فوكو أو دولوز أو دريدا وأمثالهم وذلك كل حسب منهجه إذ لكل قراءة منهجاً فى البحث والتحقيق، فلقد بين نيته بمنهجه الأصولى اللغوى وهو يبحث فى أصول المفاهيم أن الحقيقة الفلسفية هى نسيج من الاستعارات والتشبيهات وأن النص هو شفرة مفاهيم مؤلفة من تنضيد دلالى وتراكم مجازى وتوظيف خيالى. وبين هيدغر بمنهجه الظهورى التأويلى وهو يبحث فى كيفية نشوء المرويات أن القول الفلسفى يخدع ويتستر على ما لا يقوله. وأن ما لا يقوله هو الذى يحض على التفكير به لإعادة بنائه واستكشاف ما لم يفكر فيه وما لم يقوله. وبين التوسير بمنهجه التشخيصى وهو يعيد قراءة أعمال ماركس أن للنص أعراضه وزلاته وأن له صمته وفراغه بحيث يكون لدينا دوماً ما لا يرى داخل حق الرؤية ذاته وبين فوكو بمنهجه الأثرى وهو يقب عن أنظمة المعارف ويحفر فى طبقات النصوص أن الخطاب يمارس ضرباً من الرقابة على الحقيقة ويقوم بإجراءات منع واستبعاد مما يجعل قول الحقيقة أقل حقيقة مما يدعى وبين دولوز بمنهجه البنيوى وهو يبحث عن كيفية تشكيل المعنى أن المعنى ليس صورة ولا هو ماهية ولكنه نسق تتغير عناصره وتتعدد مراكزه وتكثر انزياحاته مما يعنى أن الشئ الذى يعنى بذاته بل بموقعه ونسبه واختلافه وأخيراً فلقد بين دريدا بمنهجه التفكيكى وهو يسعى إلى تفكيك المعنى أن النص ليس ساحة بيانات بل ساحة تباينات وأنه مجال للتوتر والتعارض وحيز للتبعثر والتشتيت وذلك حيث يتولد دوماً عن القراءة تفكك المبنى وانفجار المعنى وتشظى الهوية" (76).

وليس فى هذه التطورات أية محاولة للبحث عن حقيقة أو للاهتداء إلى أصل أو استخدام للعقل للفصل بين حق وباطل. صحيح وزائف. إنها إحدى عريدات الحضارة الأوربية فى مجال البحث والتحقيق وقد انفسح

(٧٥) نهاية الحداثة بقلم جيانى فاتيمو ترجمه وليد الخشاب مراجعة وائل غالى مجلة القاهرة أبريل سنة ٩٣ ص ١٢٤ .

(٧٦) نقد الحقيقة - تأليف على حرب ص ٢١-٢٢ المركز الثقافى العربى - بيروت.

لها المجال فهيمنت روحها - وهى الانطلاق - ومضت على غلوئها للانطلاق فى حد ذاته وبدون هدف معين لأن هذا الانطلاق هو من روح الحضارة الأوربية. ولما تنتهى هذه المناهج المنفلتة إلى حقيقة، وهى تخضع للهوى وللتقدير الذاتى ويُخدع أصحابها بمختلف ما يطرأ لهم ويعرض من سُبُل للانخداع كما يخدع الجيولوجى فى أثر أو عالم النفس فى تفسير سلوك الأطفال أو عالم الاجتماع فى بحثه عادات وتقاليد القبائل البدائية الخ ...

وهى توقف "النص" كما يقف برئى أمام محقق يرفض تماماً كل ما أمامه من أقوال ويفضل أن يتسقط الصغيرة والكبيرة والشبه والحوارض.. الخ ويتبنى منها ما يهديه إليه فكره هو..!! وهى فى حقيقة الحال الصورة الحديثة للفسطة اليونانية القديمة بيد أنها مدججة بمزيد من المفاهيم التى تسوغ لها الهدم والتفكيك والحفر دون أن تصل إلى طائل أو تعنى بسد ما حفرته وإعادة الركام الذى استخرجته .

فكل هؤلاء كان الباطل الذى جاءوا به أكثر من الحق الذى اهدتوا إليه .

\* \* \*

إذا كان هذا هو شأن الحداثة مع نصوص مثل نصوص ماركس أو غيره من الأدباء والشعراء، فإن الأمر بالنسبة لتفسير النص القرآنى أسوأ ويكاد يكون مختلفاً اختلافاً العربية من اللغات الأوربية. وعلى كل حال فإن تاريخ الاستشراق مغرق فى القدم. وقد ظهر مع ظهور الإسلام وانتصاره وعندما علمت أوروبا بذلك وكانت وقتئذ فى أشد فترات القرون الوسطى تخلفاً، تملكها الحيرة وظن رجال الكنيسة. وهم وقتئذ الذين يمثلون رجال المعرفة، أن الإسلام نحلة يهودية/ نصرانية محرفة وأن الرسول العربى نقل فكرة عن يهود ونصرانيين وأنه سكير، عريبيد، له حريم كحريم السلاطين الخ... ولكن هذه الصورة تبددت أمام ما أظهره المسلمون من تفوق على الأوروبيين وعندما تلاقوا فى الفتوح وفى الحروب الصليبية بدءاً من عام ١٠٥٩، فقام عدد من البابوات بتكوين معاهد لتعليم العربية واستعانوا فى ذلك بكثير من يهود الأندلس الذين عاشوا الثقافة الإسلامية، فترعرع الإشراق فى حضن الكنيسة. وبارادتها ورغبتها فى اختراق الإسلام والمسلمين وعمل عدد كبير من المستشرقين فى خدمة الدوائر الكنسية أو الدوائر الاستعمارية فى بلادهم .

وكان الأمر الذى عجز الأوروبيون عن إيساعته وفهمه هو القرآن. وكتب بعض الذين تعاطفوا مع الإسلام مثل كارليل وجيبون وجوستاف لوبون صفحات طويلة يعبرون فيها عن عدم فهمهم للقرآن، وأنه متعارض وغير متراكب.. وأن ألفاظه متنافرة الخ... وفاتهم أن القرآن له طبيعة فنية عربية لا يمكن أن تترجم أو يعبر عنها بدقه .

فإذا التمسنا لهؤلاء العذر بعدم إمكانهم فهم اللغة العربية. فإن مشكلة المستشرقين الذين يعرفون العربية هى أنهم تقبلوا كتابات أئمة الفقه والتفسير والحديث كما لو كانت مراجع لا تقبل المناقشة تمثل الحكم الفصل فى موضوعها. وقد كان هذا بالنسبة لهم أمراً بديهياً فهو كاعتمادهم فى المسيحية على كلام "الأباء" والبطاركة الخ... ودق عليهم أن الإسلام ليس فيه كنيسة وأنه لا يعطى الفقهاء حق التحليل والتحرير والحكم، وأن الأمر فى هذا كله يعود إلى القرآن وما ساقوه من أحكام لا يكون ملزماً للدين وإنما يمثل اجتهاداتهم ونعترف أن من الظلم لهم أن نطالبهم بتحقيق هذه المراجع نفسها، والعودة بها إلى القرآن لأنهم ولا بد سيغرقون فى بججه، ولأنه ليس مطلوباً منهم أن يكونوا "ملكبين أكثر من الملك" أى محققين أكثر من فقهاء المسلمين أنفسهم .

ولما كانت معظم هذه المراجع محشوة بالإسرائيليات والأحاديث الضعيفة وأبيات الشعر المنحولة.. ولما كانت من مزايا المستشرقين المعروفة، والمسلم بها، التوثيق. فإن هذه الميزة أصبحت سلاحاً للطعن في الإسلام .

من أجل هذا لا نعد التوثيق هي الميزة الجلى للمستشرقين وأن كانوا قد برعوا فيها ولكن التتهيج والتنظيم، ومرة أخرى فإن هذا فقد لا يكون مجدياً بالنسبة للقرآن كما هو مجد بالنسبة لكتب أخرى - وذلك للطبيعة الفريدة للقرآن التي لا يماثله فيها كتاب آخر. وهكذا فإن كل جهد نولدكه في ترتيب سور القرآن - مكيا ومدنيا - وحسب النزول - الذى انبهر به كثير من المجددين الإسلاميين يعد لا قيمة له ما دام الرسول قد أعاد ترتيب السور قبل أن يموت فى مراجعته المراجعة الأخيرة، كما ذكرنا ذلك ونقلناه فى صدر بحثنا .

ومع هذا فنحن لا نكتم إعجابنا وتقديرنا للعمل الذى قام به بعضهم وبوجه خاص المستشرق الألمانى أوتو بريتنزل الذى خلف المستشرق براجستر أيسرا (١٨٨٦ - ١٩٣٢)، فى إتمام مشروع جمع المصادر الخاصة بالقرآن الكريم، إذ كتب بريتنزل إلى المجمع العلمى العربى بدمشق بشرح عمله "لقد نوينا - تسهيلاً لمحبي الإطلاع أن ندون كل آية من القرآن الكريم فى لوحة خاصة تحوى مختلف الرسم الذى وقفنا عليه فى مختلف المصاحف مع بيان القراءات المختلفة التى عثرنا عليها فى المتون المتنوعة، ومتبوعة بالتناسير العديدة التى ظهرت على مدى العصور وتوالى القرون. وحينما انجلت المهمة عن طبع العديد من الآثار لعلماء العرب والمسلمين لم يكتف "بريبنزل" عند هذا الحد، بل أتحفنا برسالة فريدة فى تاريخ علم القرآن باللغة الألمانية وهى تحتوى على أسماء المؤلفات فى علم القرآن الموجودة فى الآفاق ودور الكتب فى العالم. وغير غريب بعد أن نشاهد تحقيق: أسرار التأويل وأنوار التنزيل للبيضاوى، والكشاف للزمخشري، والاتقان للسيوطى وكتاب المصاحف للسجستاني، و(مقدمتان فى علوم القرآن) على أيدي مستشرقين آخرين. وهى كتب مهمة فى التفسير وعلوم القرآن<sup>(٧٧)</sup>.

(٤)

## محمد أركون واجتهاداته

هذا المفكر الجزائرى الأصل، المسلم الديانة تربى فى حجر الاستعمار الفرنسى وتعرض صبيماً وشاباً لكل ما يتعرض له الجزائرى العربى المسلم من إكراهات وضرورات ومحن ثم عاش فى فرنسا ونهل حتى ارتوى من معارفها وثقافتها حتى وصل إلى أعلى محافل الثقافة "السربون" حيث يشغل منصب الأستاذية ونذر نفسه لقضية الفكر الإسلامى وبوجه خاص القرآن واستطاع بالفعل أن يقدم إضافته .

إنه من الطبيعى أن يساء فهم أركون. وليس من المستغرب أن تأتى إساءة الفهم من المعسكرين المتعارضين معاً! معسكر السلفيين الإسلاميين ومعسكر المستشرقين. لأن أركون ندد بتقوقع الفكر الإسلامى

---

(٧٧) انظر بحثاً بعنوان "تقويم الجهود الاستشراقية فى الدراسات القرآنية للأستاذ عز الدين المفلح فى مجلة الحج العدد السادس جمادى الآخرة ٤٢٤ - أغسطس ٢٠٠٣ ص ٥٨ .

وكشف عن سوءات المفسرين والمحدثين الخ... فاستحق لعنة السلفيين، ولأنه من ناحية أخرى انتقد تعصب وضيق أفق وتفاهة معلومات المستشرقين فاستحق غضبهم عليه، وضيقهم به .

هذا أمر مفهوم ولا يثير بالنسبة لنا تساؤلاً. ونحن معه تماماً فى حملته على المفسرين والمستشرقين ولكن عندما يعالج أركان القرآن نفسه باعتبار تراثاً أو نصاً فإنه يكون مثل المستشرقين الذين لا يرجون الله وقاراً "لأنهم ببساطة لا يؤمنون به" .

وقد يصور محنة أركان والورطة التى تورط فيها أنه وجد نفسه منساقاً لأن يجعل مفتاح فكرته عن القرآن أنه "ذو بنية أسطورية متعالية" ولم ينتبه لاستغراقه فى الفكر الأوربي إلى أنه يضع نفسه فى خندق واحد مع المشركين الذين قالوا عن القرآن "أساطير الأولين" وعندما تنبه إلى ذلك حاول - بجذع الأنف - أن يخلص نفسه محملاً المسئولية لإساءة الترجمة ومفرقاً ما بين myth أى الأسطورة وما بين mythology وهى الخرافة .

وقال إن الأولى ذات معنى إيجابى والثانية ذات معنى سلبى الأولى تعنى المجاز الرافع والخيال المجنح أو الفرضة الحسنة التى لها نواة فى الواقع وإن لم تكن واقعة أو تاريخية بالمعنى الحرفى للكلمة أو أنها السقف الأعلى والسماء الواسعة التى تظلل الوجود وتخلع عليه المعنى، إنها الأحلام الطوباوية والخيال الرطب الذى يبعث فى الوجود ويخرجنا (ولو للحظة) من قتامة الواقع وإكراهاته ويرتفع بنا إلى سماء صافية ومثالية رائعة، بهذا المعنى فإن الكائن البشرى لا يستطيع أن يعيش بدون الأسطورة. هذا على الرغم من أن الأسطورة تتحول وتتغير من عصر إلى عصر ومن جيل إلى جيل كما إنها ترتبط بخصائص المجتمع ودرجة تطوره فالأسطورة فى المجتمع التونسى مثلاً تختلف عن الأسطورة فى المجتمع الفرنسى بمعنى أن الأسطورة فى مجتمع زراعى لما يُصنع تختلف عن الأسطورة فى مجتمع ما بعد التصنيع وما بعد الحداثة. وكل مجتمع يبحث عن أسطورة تأسيسية أو عصر تشيىنى ذهبى فقد ملامحه الواقعية والتاريخية وتحول إلى شئ يتجاوز الواقع أى إلى أسطورة (أنظر صورة العصر الأول للإسلام بكل شخصياته وأحداثه بالنسبة للوعى الإسلامى أو بدايات المسيحية بالنسبة للوعى المسيحى. أو حتى الصورة الأسطورية للثورة الفرنسية بالنسبة إلى الوعى الجمهورى الفرنسى الحالى) بل إن ديجول نفسه قد تحول مؤخراً إلى أسطورة وساهمت فى ذلك وسائل الإعلام والكتب المدرسية التى تعلم للطلاب فى المدارس الخ... كل مجتمع بحاجة إلى أسطورة يعيش عليها .

هذا هو الفرق بين الأسطورة والخرافة، إنه فرق فى الدرجة لا فى النوعية فالأسطورة عندما تتدهور وتتحوّل إلى خرافة غير ذات معنى ولكنها راسخة الجذور فى الوعى الشعبوى لأمة من الأمم أو لفئة من الفئات، فى حين أن الأسطورة كانت ذات قيمة إيجابية تشحن الهمم بالعزائم وتدفع باتجاه الفتوحات وتحقيق الذات على الأرض نجد أن الخرافة تثبط العزائم وتدعو للاسترخاء والاستسلام لأحضان العصبية .

ويعود أركان لإيضاح جانب جديد من جوانب دفاعه عن الأسطورة. «نحن نعتقد أن العقل الحديث يعيد للأسطورة وظائفها النفسية والثقافية ويشكل إستراتيجية شاملة للمعرفة يكون فيها العقلانى والخيالى (أى الأسطورة بالمعنى الأنثروبولوجى) للكلمة فى حالة تداخل وتفاعل مستمرة من أجل توليد وجوده الفردى والجماعى والتاريخى. وعندئذ نتخلى للمرة الأولى عن الإطار الثنوى للمعرفة حيث كان العقل يتضاد دائماً مع الخيال والتاريخ يضاد الأسطورة والصح يضاد الخطأ والخير يضاد الشر والعقل يضاد الإيمان الخ ...

وعندئذ ندخل فى مرحلة العقلانية التعددية والمتضامنة مع كل العمليات النفسية التى يوضعها القرآن

في القلب والتي يحاول علم الأنثروبولوجيا الحالي إعادة الاعتبار لها وإدخالها تحت أسم "المخيال أو المتخيّل"<sup>(78)</sup>.

نقول إن كل كلام أركون عن الأسطورة وهي كما ذكرنا مفتاح فهمه للقرآن إنما هو تنظير للفكر الأوربي الذي قام بعد استبعاد فكرة الله على الميثولوجيا اليونانية أولاً. وقد أصاب القرآن الكريم المحز عندما نسب الأساطير للمشركين لأنها هي إيمانهم الحقيقي ولأن تفرقة أركون تفرقه مفتعلة فالأصل اللغوي واحد والعلاقة بينهما عضوية. بل قد نذهب إلى عكس ما ذهب إليه أركون فالأسطورة تبدأ خرافة لتنتهي إلى عقيدة ويحتمل أن يكون إيمان اليونان أيام سقراط وأفلاطون بالميثولوجيا اليونانية أقل مما رسبته هذه الميثولوجيا في الوجدان الأوربي بل والمجتمع الأوربي بكل علومه وآدابه وفنونه التي استعار لها أسماء شخوص وآلهة الميثولوجيا .

والخطأ في أركون أنه قبل أن يكون أوربيا كالأوربيين الذين مهما كانت أمجادهم الفكرية فإنهم - دائماً وأبداً - يفكرون علي أساس أن أوربا هي الكون وأنه لا شيء سوى الفكر الأوربي من اليونان حتى الآن يستوي في ذلك ماركس وهيجيل وغيره فهم جميعاً يبنون كل أفكارهم علي بنية أوربية خالصة. وقد قبل أركون أن يتنازل عن ميزة أنه عربي ومسلم التي كانت يمكن أن تجعله شخصاً مختلفاً وتجعله يدخل مديلاً مختلفاً ولما كان عليه - وليس علي المفكرين الأوربيين - أن يخاطب المسلمين فإنه حاول أن يضي علي الفكر الأوربي مسحة إسلامية وهيئات. فهناك خط فاصل رئيسي بين عالم الله وعالم الوثنية، بين الإسلام وبين الأسطورة. وقد كان يمكن لأركون أن يقول إنه لا بد لكل الشعوب من إيمان وهذا الإيمان قد يكون زائفاً فيأخذ شكل الأسطورة قبل أن يهدي الله الناس بالصورة السليمة عن طريق الوحي والأنبياء والكتب السماوية التي تستخدم التصوير الفني والمجاز أو تبدأ من مستوي القوم الذين أنزلت لهم، ولكن مضمونها يختلف تماماً عن الأسطورة، لأنه يبرز الحقيقة العظمى الله .

بل إن أركون كان يستطيع أن يمضي إلي ما هو أبعد فيقول: إن الجذور الأسطورية للمعتقدات الدينية ظلت قوية ومؤثرة حتى بعد إرسال الله تعالي للرسول وألقت بظلال وغشاوات علي نقاء العقائد السماوية .

كان أركون يستطيع أن يقول هذا لو تحرر من المناخ الأوربي وطريقة أوربا في دراسة الأديان التي تستبعد تماماً فكرة الله وتأخذ بما وجدته لدي القبائل البدائية في أفريقيا والأمزون وأستراليا والهند الخ... أو في كتب السحر والتنجيم... وهذا عندها هو "الأنثروبولوجي" العلمي المقبول .

ورغم كل ما يمكن أن يؤخذ علي أركون فقد استطاع أن يصد بحكم مكانته الرفيعة وإيمانه الإسلامي عائلة كثير من المستشرقين وأن يعرض وجهة نظر إسلامية يتقبلها الفكر الغربي، وأنه توصل إلي نتائج سليمة في نقده لبعض مسالك الفقهاء التقليديين .

علي كل حال فإننا نعتقد أن أركون كبقية الذين تأثروا بالثقافة الأوربية وانبهروا بها حيناً من الدهر يعيد بين الفينة والفينة النظر في أفكاره وينتهي إلي إشراقات تختلف عما ذهب إليه عندما كان مأخوذاً بكليته بالثقافة الأوربية وأنه بعد رحلته الطويلة مع "فوكو" وأمثاله من أنصار التفكيك والحفر انتهى إلي أن "التأويل" هو مفتاح المعالجة القرآنية «فالقرآن كتاب ينص علي التأويل ويقبل التأويل ولا يكتفه إلا بالتأويل فهو نص تأويلي أو لنقل نص التأويل بامتياز» .

## الدكتور نصر حامد أبو زيد و كتابه : "مفهوم النص دراسة في علوم القرآن"

في صدد التدليل علي كساد النشاط الثقافي وخمول الفكر المصري قال أحد النقاد: إن كتاب "مفهوم النص" لم يثر صدي في حين أنه أخطر بكثير من كتاب "أصول الحكم في الإسلام" للشيخ علي عبد الرازق الذي أقام الدنيا وأقعدھا عندما صدر في العشرينات. لأن هذا الأخير إنما تعرض لإحدى قضايا الفكر الإسلامي وهي الخلافة في حين أن كتاب "مفهوم النص" يتعرض لتصميم القرآن الكريم نفسه .

كان هذا قبل أن ينتبه المجتمع المصري الخامل إلى الكتاب وأن يجعله بل ويجعل شخصية مؤلفه، قضية كبرى تحكم فيها المحاكم بالتفريق ما بينه وبين زوجته - ربما لأول مرة في مصر - بدعوى ارتداده . ونعتقد أن الدكتور نصر حامد أبو زيد لم يتأثر فيما ذهب إليه بعالم ما بعد الحداثة كالدكتور أركون ولم يتغلغل في عالم فوكو وشنشنة نيتشه والتوسير وديدرو... الخ إنه يعود إلي ديكرت وفكرة الشك. وقد تأثر عميقاً وبصورة مباشرة كأستاذ أدب عربي بالدكتور طه حسين الذي يعتبره دون مواربة مثله الأعلى. وقد قال طه حسين إن ذكر القرآن لبناء إبراهيم وإسماعيل الكعبة لا يكفي لإثبات ذلك. فجاء نصر أبو زيد ليضع المنهج الذي ينتهي إلي مثل هذه النتائج، وهذا المنهج هو معالجة "النص" القرآني باعتباره "منتجاً ثقافياً"، وإذا كان له أساتذة من الأقدمين فهم المعتزلة وشنشنتهم حول خلق القرآن ..

ولعله ترفق بالقرآن فلم يصرح بمذهبه من البداية فأخذ يحوم حول التراث والدراسات الأدبية والنصوص ثم انتقل إلى الحديث النبوي حتى ذكر صراحة القرآن وأنه هو النص "بألف ولام العهد" .

ولا يثنيه عن هذه المعالجة أن يكون القرآن نصاً إلهياً صادراً عن الله فكأنما ما كان فإنه قد ألتبس باللغة واللغة ليست وعاءً فارغاً ولكنها أداة الثقافة والمعرفة ومن ثم فيمكن معالجته من هذا المدخل كمنتج ثقافي ..

ونقرأ له بكلماته ...

"إن البحث عن النص ليس في حقيقته إلا بحثاً عن ماهية القرآن وطبيعته بوصفه نصاً لغوياً" ص ١٢ .  
"إن الدراسة الأدبية - ومحورها مفهوم النص - هي الكفيلة بتحقيق وعى علمي يتجاوز به موقف التوجيه الأيديولوجي السائد في ثقافتنا وفكرنا" ص ١٣ .

"إن النص في حقيقته وجوهره منتج ثقافي والمقصود بذلك أنه تشكل في الواقع والثقافة خلال فترة تزيد على العشرين عاماً وإذا كانت هذه الحقيقة تبدو بديهية ومتفقاً عليها (!! ) فإن الإيمان بوجود ميتافيزيقي سابق للنص يعود لكي يطمس هذه الحقيقة البديهية ويعكر - من ثم - إمكانية الفهم العلمي لظاهرة النص. إن الإيمان بالمصدر الإلهي للنص ومن ثم لإمكانية أي وجود سابق لوجوده العيني في الواقع والثقافة أمر لا يتعارض مع تحليل النص من خلال فهم الثقافة التي ينتمي إليها. ولنقل بعبارة أخرى إن الله سبحانه وتعالى حين أوحى للرسول بالقرآن أختار النظام اللغوي الخاص بالمستقبل الأول وليس اختيار اللغة اختيار لوعاء فارغ. وإن كان هذا ما يؤكده الخطاب الديني المعاصر. ذلك أن اللغة أهم أدوات الجماعة في إدراك العالم وتنظيمه. وعلى ذلك لا يمكن أن نتحدث عن لغة مفارقة للثقافة والواقع أيضاً ما دام أنه نص داخل إطار



النظام اللغوى للثقافة. إن ألوهية مصدر النص لا تنفى واقعية محتواه ولا تنفى من ثمّ انتماءه إلى ثقافة البشر" ص ٢٧.

إن القرآن يصف نفسه بأنه رسالة تمثل علاقة اتصال بين مرسل ومستقبل من خلال شفرة. ولما كان المرسل فى حالة القرآن لا يمكن أن يكون موضوعاً للدرس العلمى. فمن الطبيعى أن يكون المدخل العلمى لدرس النص القرآنى مدخل الواقع والثقافة، الواقع الذى ينتظم حركة البشر المخاطبين بالنص وينتظم المستقبل الأول للنص وهو الرسول والثقافة التى تتجسد فى اللغة. بهذا المعنى يكون البدء فى دراسة النص بالثقافة والواقع بمثابة بدء بالحقائق الإمبريقية .

ومن تحليل هذه الحقائق يمكن أن نصل إلى فهم علمى لظاهرة النص. إن القول بأن النص منتج ثقافى يكون فى هذه الحالة قضية بديهية لا تحتاج لإثبات ومع ذلك فإن هذه القضية تحتاج فى ثقافتنا إلى تأكيد متواصل نأمل أن تقوم به هذه الدراسة .

لكن القول بأن النص منتج ثقافى يمثل بالنسبة للقرآن مرحلة التكون والاكتمال. وهى مرحلة صار النص تقاس عليه النصوص الأخرى وتتحدد به ومشروعيتها. إن الفارق بين المرحلتين فى تاريخ النص هو الفارق بين استمداده من الثقافة وتعبيره عنها وبين إمداده للثقافة وتغييره لها" ص ٢٨ .

"ولعل الحديث عن دور الواقع والثقافة فى تشكيل هذه النصوص (القرآن والحديث) يمثل نقطة الانفصال وربما التداير بين منهج هذه الدراسة وبين المناهج الأخرى التى يتبناها الخطاب الدينى المعاصر عند مناقشة هذه القضايا حيث تعطى الأولوية عند مناقشة النصوص للحديث عن «الله» عز وجل قائل النص ثم يلى ذلك الحديث عن النبى (المستقبل الأول) للنص ثم يلى ذلك الحديث عن الواقع تحت عناوين "أسباب النزول" و "المكى والمدنى" و "الناسخ والمنسوخ" إن مثل هذا المنهج إن اكتملت له أدوات البحث المنهجى من الدقة والاستقصاء بمثابة ديالكتيك هابط فى حين أن منهج هذه الدراسة بمثابة ديالكتيك صاعد. وعلى حين يبدأ المنهج الأول من المطلق والمثالى فى حركة هابطة إلى الحسى والمتعين فإن المنهج الثانى يبدأ من الحسى والعينى صعوداً. يبدأ من الحقائق والبديهيات ليصل إلى المجهول ويكشف عما هو خفى" ص ٢٩ .

\* \* \*

إن هذه الفقرات هى ما تهمننا بالدرجة الأولى من كتاب "مفهوم النص" لأنها تمثل المنهج والفكرة الرئيسية فيه وهى أن النص القرآنى مهما كانت قداسته فإنه بعد أن التبس باللغة وتجسد فيها أصبح نصاً لغوياً يخضع لكل ما تخضع له النصوص اللغوية من تفاعل ومؤثرات .

وعندما أراد أن يطبق هذا المنهج على التفاصيل قال فى معالجته لمفهوم الوحى: «لقد كان ارتباط ظاهرتى الشعر والكهانة بالجن فى العقل العربى وما ارتبط بهما من اعتقاد العربى بإمكانية الاتصال بين البشر والجن هو الأساس الثقافى لظاهرة الوحى الدينى ذاتها ولو تصورنا خلو الثقافة العربية قبل الإسلام من هذه التصورات لكان استيعاب ظاهرة الوحى أمراً مستحيلاً من الوجهة الثقافية. فكيف كان يمكن للعرب أن يتقبل نزول ملك من السماء على بشر مثله ما لم يكن لهذا التصور جذور فى تكوينه العقلى والفكرى" .

وهذه الفقرة أقرب إلى شطحات المستشرقين الذين يغلب على معظمهم عدم الإحكام والشمول للموضوع الإسلامى وأنهم يبنون النتائج على مقدمات وهنائة فمن قال إن العرب قبلوا فكرة نزول ملك على بشر بوحي لسبق تأثرهم بالجن والكهانة وقد كان هذا نفسه هو أكبر أسباب كفرهم وآيات القرآن التى تسجل

دهشتهم من إرسال بشر "يأكل الطعام ويمشي في الأسواق" ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا. {الإسراء: ٩٥}.. وقد وجد الشعر والكهانة في كل الأمم القديمة تقريباً. وقد وجد في اليونان أكثر مما وجد في العرب ولم يوجد الأنبياء. فالفقرة كلها ساقطة سواءً طبقتها على العرب أو على غيرهم .

ولا يمكن لأحد أن يلوم أو ينتقد الكتاب المسلمين، إذا جعلوا من حقيقة أن القرآن من عند الله. نقطة البداية الحاكمة للموضوع وأخذوا يهبطون منها إلى الرسول عن طريق الوحي وهي الطريقة التي وصفها الدكتور نصر أبو زيد بأنها "ديالكتيك هابط" وليس من ذنب المسلمين إذا أخذوا به لأن القرآن "نزل" و "أنزل" من السماء وهما صيغتان للنزول تكررنا في القرآن. وليس أمام الكاتب المسلم إلا أن يعترف بهذه الحقيقة أو أن يعطى فكرة الله "أجازة" عندما يكتب أو يخلعها قبل أن يجلس على مكتبه .

وكرر الدكتور نصر أبو زيد هذه الدعاوى في كتاب نقد الخطاب الديني فهو يقول "النص منذ لحظة نزوله الأولى أى مع قراءة النبي له لحظة الوحي تحول من كونه نصاً إلهياً وصار فهماً إنسانياً" أنه تحول من التنزيل إلى التأويل، إن فهم النص للنبي يمثل أولى مراحل حركة النص في تفاعله بالعقل البشرى، ولا التفات لمزاعم الخطاب الديني بمطابقة فهم الرسول للدلالة الذاتية للنص ٢٧ وفي ص "١٠٥" يقول "وفى قضية ميراث البنات بل في المرأة بصفة عامة نجد الإسلام قد أعطاها نصف نصيب الذكر بعد أن كانت مستبعدة استبعاداً تاماً وفى واقع اجتماعي اقتصادي تكاد تكون المرأة فيه كائناً لا أهلية له وراء التبعية الكاملة بل الملكية التامة للرجل أباً ثم زوجاً. اتجاه الوحي واضح تماماً وليس من المقبول أن يقف الاجتهاد "عند حدود المدى الذى وقف عنده الوحي وإلا انهارت دعوى الصلاحية لكل زمان ومكان" .

ويقول "الواقع هو الأصل ولا سبيل لإهداره ومن الواقع يكون النص ومن لغته وثقافته صيغت مناهجه" .

فالواقع أولاً.. والواقع ثانياً.. والواقع أخيراً وإهدار الواقع لحساب نص جامد ثابت المعنى والدلالة يحول كليهما إلى أسطورة] انتهى .

فكيف يمكن أن يتحول النص منذ لحظة نزوله الأولى أى مع قراءة النبي له لحظة الوحي من كونه نصاً إلهياً إلى فهم إنسانى من التنزيل إلى التأويل ..

إن القرآن لم يتحول أبداً ولكن الذى يتحول ويتغير هو فهم الناس له، هو تفسيرهم له، هو تأويله .

وتفسيره وتأويله شئ. والنص نفسه شئ آخر، ويمكن دون حرج أن ننقد التفاسير ما شئنا وأن نحكم عليها بقوانين الظواهر الاجتماعية ولكن هذا لا يمس أبداً النص نفسه الذى يحتفظ بكل قدسيته، لأنه لم يحدث له ما يمس هذه القدسية ويظل دائماً هو هو، ويظل ملهماً خلاقاً ..

وفى قضية ميراث المرأة فهل فات الدكتور نصر أن المعول فى الميراث الإسلامى هو وثاقه العلاقة بالمتوفى وليس ما إذا كان الوريث ذكراً أو أنثى وهناك حالات عديدة ترث فيها الأنثى أضعاف ما يرث الذكر. هذا فضلاً عن أن الميراث قطعة من نظام إسلامى يوجب التزاماً على الرجل نحو المرأة، بل يمكن القول إن الخط المقرر فى القرآن بالنسبة للمرأة كان حمايتها من عدوان الرجال وكان يمكن للمؤلف أن يقول

إن علينا أن نعود إلى الحكمة فى النص فإذا انتفت الحكمة التى أرادها النص فيمكن - بناء على أن الحكمة ملحظ من ملحظ النص - تجميد نص مؤقت وفى هذه الحالة بالذات، وهو ما فعله عمر بن الخطاب فى اجتهاداته المعروفة...

وكان يصل بهذا إلى ما يريد دون الافتئات على النص ويعزز موقفه باستشهاد موثق ومقبول. أما دعوى أن الواقع هو الأصل ولا سبيل لإهداره... وأن إهدار الواقع لحساب نص جامد ثابت المعنى والدلالة يحول كليهما إلى أسطورة... فهذا محض ادعاء، لأن الأديان إنما جاءت لتسمو بالواقع لا أن تستسلم له، وما فائدتها إذا كان عليها أن تسلم للواقع .

إن أزمة الدكتور نصر وإضرابه والدكتور طه حسين من قبل تعود إلى استغراقهم فى فكر المستشرقين الذين يستبعدون بحكم مناهجهم أى ذكر لله فى كتاباتهم وبالتالي يعاملون القرآن كأى كتاب وأى "منتج ثقافى"، وقد تخالطهم (الدكتور طه حسين ونصر أبو زيد وأمثالهم) رغبة ما بين الزهو والشر فى اختراق المقدسات وابتداع المناهج رغم أنهم فى هذا إنما يمثلون صورة من صور التقليد. والقارئ لكتاب "فى الشعر الجاهلى" يلمس أن الفقرات المشبوهة التى جلبت على مؤلفه العار لم يكن لها ضرورة على الإطلاق إلا التفاخر بالشجاعة وتجاوز الحدود والجرأة على القرآن وقد أظهر هذا بجلاء الأستاذ محمد نور رئيس النيابة الذى حقق مع طه حسين وأثبت أن لديه معرفة وعلماً يفوق علم ومعرفة طه حسين نفسه وألجأه إلى الاعتذار الذى استند عليه فى استبعاد "القصد الجنائى" وبالتالي حفظ الموضوع فحقق الحسينيين: أثبت خطأ طه حسين فى تهجمه دون مبرر على القرآن وفى الوقت نفسه فإنه باستبعاد القصد الجنائى حفظ الموضوع وحال دون محاكمته

ولولا هذه الرغبة فى التظاهر لما عجز طه حسين ونصر أبو زيد عن أن يكونا أفضل من المستشرقين الذين هاموا بهم - لأنهما يؤمنان بالله وأن هذا الإيمان يمكن أن يهديهم إلى ما لم يهتد إليه المستشرقون. وهل الصواب أن نقبل ما يقول ديكارت أو دوركايم ونرفض ما يقول القرآن ؟؟ .

لقد أعاد التاريخ نفسه مع هؤلاء السادة الذين نهجوا نهج أسلافهم المعتزلة الذين فتنوا بالفلسفة اليونانية فابتغوا سبيلاً للبرهنة على وحدانية الله وقداسته غير السبيل الذى رسمه القرآن فتوزعتهم الطرق أمشاجاً وضللتهم الدعوى التى تعود إلى فلسفة وثنية أصلاً وفرعاً قلباً وقالباً... وليس هناك فرق بين كلمات الدكتور نصر أبو زيد "إذا كان الكلام الإلهى فعلاً فإنه ظاهرة تاريخية لأن كل الأفعال الإلهية أفعال فى العالم" المخلوق المحدث إى التاريخى والقرآن الكريم كذلك ظاهرة تاريخية من حيث أنه واحد من تجليات الكلام الإلهى وإن يكن أشمل هذه التجليات لأنه آخرها". وبين المعتزلة الذين ذهبوا إلى "بشرية" القرآن وأن القرآن من حيث هو كلمات وحروف وأصوات ومداد مكتوب فى صحف هو محدث مخلوق. بل هو بهذه الصفات فعل للإنسان المنكلم به والقارئ له والكاتب لآياته. وقال أغلبهم إن القرآن كما نحكيه نحن الآن ليس هو ذات "المحكى" عن الله سبحانه وأن الحكاية غير المحكى والذى نحكيه نحن كلام وصوت وحرف ومداد أما المحكى عن الله سبحانه وتعالى فهو المعنى وقد عبر الرسول عليه الصلاة والسلام عن هذا "المعنى" بلغة العرب التى جاء بها القرآن الكريم<sup>(79)</sup>.

(٧٩) المعتزلة والقرآن - الدكتور محمد عمارة - مجلة الهلال عدد ديسمبر ١٩٧٠ نقلًا عن القاضى عبد الجبار أنشيبسبيلسيباى "المحيط بالتكليف" ص ١٦٠-١٦١.

وبناء على هذا فقد ذهب المعتزلة إلى أن القول بخلق القرآن يعنى فى مقدمة ما يعنى القول "ببشرية" هذا الكتاب من حيث اللغة والأصوات والحروف واللهجات وبما أن هذه الأشياء هى ثمرة جهد بشرى أثمر قواعد أتفق عليها الناس "وتواضعوا" عليها ووضعا لها القواعد والأصول فإن ذلك يجعل للعقل الإنسانى مجالاً أكبر فى النظر إلى هذا الكتاب بالتفسير والتأويل<sup>(٨٠)</sup>.

وقد تصور المعتزلة أن لا كلام إلا بجارحة (اللسان) وأنه لما كان الله منزها عن الجوارح فإن القرآن ليس كلام الله. ولو عاشوا العصر الحديث ووجدوا الراديو يتكلم بدون لسان لكان لهم مندوحة عن هذا الشطط، ولوجدوا أن عدم التفكير فى هذا لا يخالف العقل فى شىء لأن العقل يعجز عن أن يدرك كنه الله تعالى .

والقضية فى حقيقتها بالنسبة للمعتزلة المفتونين بمنهج الفلسفة اليونانية وللمحدثين المفتونيين بمنهج الفلسفة الأوروبية الحديثة هى محاولة للجمع بين عقيدتهم كمسلمين يؤمنون بالله وهذه الفلسفات - الفلسفة الأوروبية الحديثة - التى تستبعد الله وهى محاولة شيطانية تعسة محكوم عليها بالفشل. وما دام القرآن كلام الله - كما يؤمن كل مسلم - فإن أى محاولة لتقضى كيفية حدوث ذلك أو طبيعته تخرج عن إطار العلم المادى والفلسفة الدنيوية والتجريبية وتصبح جزءاً لا يتجزأ من عالم الغيب الذى استأثر به الله تعالى ولا داعى للافتيات عليه. وقد عالج القرآن نفسه هذه النقطة عندما تعرض لشكوك المرجفين فى قوله تعالى ﴿مَآذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾. {٢٦ البقرة}.. ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمُ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ {٣١ المدثر}.. وفى مواجهة هؤلاء المرجفين، وفان الراسخين فى العلم ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾. {٧ آل عمران}..

وقد كان يمكن للدكتور نصر أبو زيد وإضرابه أن يهتدوا إلى الحل فمع أن القرآن كان لا بد أن ينزل بلغة، ولا بد أن يحدث نوعاً من التفاعل ما بين النص المقدس واللغة ومتواضعاتها. فإن القضية الجديدة فى الموضوع هى أن القرآن قد أنزله الله تعالى كمعجزة الإسلام وإعجازه أنه رغم نزوله بلغة معينة وفى وسط معين فإنه لم يخضع لما لا بد وأن يخضع سواه له من ضرورات. ذلك أن ألوهية إعجازه رفعتة وحررتة وجعلته يأتى بما يخالف ويناقض ثقافة العرب من توحيد بدلاً من شرك وخلود، بدلاً من فناء، وتحريم للخمر والقمار - وكانا سلوة العرب - ثم جاء فى صياغته بعربية جديدة تختلف مفرداتها عن مفردات الشعر الجاهلى. فلم يكن فى موضوعه ومادته وصياغته "منتجاً ثقافياً" على الإطلاق كما لم يكن ظاهرة اجتماعية كبقية الظواهر الاجتماعية المألوفة. وحدث هذا كله عملياً وواقعياً بحيث لا يمكن المراء فيه وكان الحل الوحيد لهذه الظاهرة الفريدة التى ناقضت المؤلف هو أن القرآن من الله ولم يكن هذا ليعجز الله تعالى، ولكن الله لا يجوز الزج به فى البحث العلمى! ولهذا ظلت القضية مفتوحة فقواعد المنهج والمنطق أن يتأثر كل نص بزمنه وبيئته وثقافته وحتى العباقرة لا يمكن أن يفلتوا من أسر الزمان والمكان والقصور البشرى. ومن ناحية أخرى وفى مقابل هذا نجد كتاباً يخالف كل المخالفة هذا المنهج والمنطق فيتجاوز زمانه ومكانه ويأتى بما هو مخالف للعهود والمقرر بصيغة معجزة حار فى تحديدها البلغاء، وسيظل هؤلاء البلغاء يضربون أخماساً فى أسداس حتى يؤمنوا أنه من الله. والغريب المؤسف فى أمر الدكتور نصر أبو زيد أنه جمع بين أسوأ ما يقدمه المستشرقون، وأسوأ ما يقدمه الأسلاف!! أسوأ ما يقدمه المستشرقون لأنهم يعالجون القرآن بعد استبعاد الله! باعتباره منتجاً ثقافياً، وأسوأ ما قدمه الأسلاف لأنه تقبل ما وضعوه من أفانين علوم القرآن وأقر النسخ، وأسباب النزول لأنها فيما رأى تدعم وجهة نظره عن نسبية الأحكام القرآنية. فى حين أن

(٨٠) المرجع السابق ص ١٦٠ - ١٦١ .

الكلام على أسباب النزول والنسخ من سقط المتاع، وما لا يقف أمام أى نقد أو تمحيص وقد عالجننا هذا بإسهاب فيما سبق من هذا الكتاب .

إننا نقول لهؤلاء الكتاب ألا تعقلون ألا تتفكرون ما هذا الغباء الذى تتمسكون به وتحرسون عليه عندما لا تفرقون بين قصيدة شاعر أو مسرحية مسرحى أو تاريخ مؤرخ وبين كتاب أثر أثراً بعيداً فى حياة العالم بأسره على امتداد ألف وأربعمائة عام ودمر الإمبراطوريات الطبقيّة رومانية وفارسية وأحيا أمماً وأوجد حضارات وتضمن الروائع فى التشريع والسياسة والاقتصاد وهو الأصل للضمير لدى الملايين من مختلف الأجناس ومختلف العصور هل تعدون ألفاظه المقدسة التى يتعبد بها كالألفاظ التى وضعها زيد أو عبيد من الكتاب والمؤلفين .

إن هذه الصفة الفريدة للقرآن والتى لا يشترك فيها مع القرآن أى كتاب آخر تجعل من الحق أن يعالج معالجة خاصة وأن تعد معالجته كأى نص آخر ظلماً للحقيقة .

إن المفكر الأمين هو الذى يعترف بالحق أما الذى ينكر حقيقة لاشك فيها أو بدعى حقيقة لا أصل لها فإنه لا يكون مفكراً وإنما دجالاً<sup>(81)</sup> .

(٦)

## كتاب تنوير القمّاه

### اقتراب مختلف ..

يختلف كتاب تنوير القرآن - الذى أصدرناه فى سنة ٢٠٠٠ عن كل الكتب السابقة عن القرآن بما فى ذلك اختلاف المنهج والهدف ..

فالمفسرون جميعاً من الطبرى حتى سيد قطب وشحرور استعدوا قبل اقترابهم من القرآن كما يستعد المحارب قبل الدخول إلى معركة فالأسلاف اشترطوا ضرورة إحكام علوم اللغة وما فيها من نحو وصرف وبيان الخ... والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول الخ... والمحدثون تسلحوا بكل ما قدمتهم لهم ثقافة "الحدائث" من لسانيات وعلوم فى الدلالة والحروف والأسلوب، فضلاً عن فلسفاتهم ومذاهبياتهم وما وضعتها من أصول للبحث والدراسة.. وقد كان آخر هؤلاء المحدثين هو الدكتور محمد شحرور الذى طبق منهج أبى على الفارسي للتعرف على معانى الكلمات وجذورها واشتقاقاتها كما استخدم الرياضيات الحديثة للتعرف على الحدود ..

(٨١) إن هذا النقد لآراء الدكتور نصر أبو زيد لا يعنى أننا نؤيد محاكمته أو اعتباره مرتدّاً فنحن أبعد الناس عن ذلك، أولاً: لأننا لا نرى فيما قاله ارتداداً وإنما اجتهداً خاطئاً حملة عليه أخذة بالمفاهيم الأوروبية التى تأثر بها معظم مثقفينا، وعبر عنه بأسلوب فج - كان له عنه مندوحة لو رزق الكياسة التى هى من عدة الكتاب، وثانياً: لأننا حتى لو افترضنا ارتداده، فنحن لا نرتب على الردة حكماً من أى نوع وكما قلنا فى كتابنا أشيبلسيبسبى "كلا ثم كلا. كلا لفقهائ التقليدي. وكلا لأدعياء التنوير" ليس هناك بالنسبة للردة حد أو استتابة أو تعزير وإنما يكون الرد بالكلمة: كلمة فكلمه، وبرهاناً ببرهان. كما فعلنا هنا. ونحن لا نفرأ أبداً مصادرة أى كتاب لأنه قتل لحرية الفكر والمفروض أن حرية الفكر إنما يعنى بها حرية الفكر المخالف، كما نستبعد تماماً دعوى التكفير حتى بالنسبة لمن يقر على نفسه بالكفر، لعدم الاختصاص. لأن الله تعالى هو الذى يفصل فى هذه الأمور يوم القيامة .

وبدت هذه الطريقة طبيعية لأنها جعلت مهمتها "دراسة" القرآن. فأصبح هناك دارس ومدروس كل واحد منهما مستقل عن الآخر ومنعزل عن الآخر، وأعمل كل دارس مبادئ درسه ومعداته ومفاهيمه وقواعده الخ... بما فى ذلك سكين النسخ، وتخصيص العموم وتحديد أسباب النزول الخ... ولكنهم لم يقدموا لنا القرآن ولكن قدموا أنفسهم وما لديهم من مقدرة ومهارة فى استخدام وسائلهم للتعامل مع القرآن ..

وكأنى بالقرآن يقول لهم ويلكم أتعلمون الله بدينكم؟ أتشنون معركة فى القرآن تستخدمون أسلحتكم الصداة اعرفوا أقداركم، وأقوا أسلحتكم "وأسجد وأقرب".

هذا بالنسبة للمنهج. أما الهدف فقد كان هدف بعضهم التوصل إلى الإعجاز اللغوى أو العددي أو العلمى فى القرآن أو تعريف مبهمات وأساب نزوله.. بما عمد كتاب آخرون من المستشرقين باستخدام وسائلهم الخاصة للتدديد بالقرآن وإظهار ما يدعون من تفككه وتناقضه !! ..

وقد توصل هؤلاء وأولئك بالفعل وبقدر سلامة هذه الوسائل أو نقصها إلى نتائج. ولكنهم لم يصلوا إلى ما أراده القرآن لأنهم لم يسألوه. ولكن فرضوا عليه مناهجهم، فأعطاهم ما يريدون وليس ما أراد القرآن

..

الأمر بالنسبة لتثوير القرآن مختلف ..

لم يرد كتاب "تثوير القرآن" دراسة القرآن كبقية الكتب، ولهذا فلم يستعد بأى عدة. إنه أراد الاقتراب من القرآن شيئاً فشيئاً حتى يتحقق نوع من المعاشية، لهذا لم يستعد إلا بما أعده الله للناس جميعاً عندما أوحى لهم بالعقل

دخل "تثوير القرآن" عالم القرآن وقد غسل نفسه وروحه من كل ما وضعوه فيها من منهجيات، أسلم قياده للقرآن. دخله كما يدخل الحاج مكة محرماً، متجرداً.. ليس على شفثيه إلا التلبية "لبيك اللهم لبيك".

وكانت الوسيلة العملية لهذه المعاشية قراءة القرآن مثنى وثلاث مع تدبر عقل وإسلام قلب وتعرف على ما خفى من ألفاظ بما يوضحه القرآن من استخداماته المتعددة لها بحيث يكون لها معان لا معنى واحد، ولا يتوقف عندما لم يهتد إلى بعض هذه المعانى وقنع بما وقر فى قلبه منها، لأن فى القرآن من الأسرار والأعماق ما لا يبلغها جيل معين وإنما يدركها جيل لاحق ..

ولم يكن لهذه المعاشية هدف معين، لقد بدت الأهداف التى أفنى المفسرون أعمارهم لها صغيرة جزئية فضلاً عن أن فرض ثقافتهم على القرآن غيرت وبدلت، ووصلت إلى النقيض. لقد آمن تثوير القرآن أن معاشية القرآن ستقوده فى النهاية إلى سر القرآن نفسه، إلى الاسم الأعظم منه إلى الإكسير الذى يحول الضعف قوة... وإذا كان هناك شىء استصعبه فهو فكرة استلهمها من حديث للرسول "أثيروا القرآن" أو "ثوروا القرآن" وهو حديث وإن لم يكن قوى الإسناد. فإنه رائع المعنى وقد كان شفيع الكتاب أنه تقرب إلى القرآن بكلمة من رسول القرآن. فلم يبدع شيئاً من عنده ..

وانتهت هذه المعاشية الوثيقة، بأن الاسم الأعظم للقرآن وإكسيره المعجز هو أن القرآن ثورة لها من القوة والفعالية ما تغير الأوضاع، فتقضى على عهد من الانغلاق، والظلم، والأنانية والجهالة لتبدأ عهداً من النور والانفتاح والعدالة والحب والحرية... ويتم هذا بعيداً الطريقة الدموية الوحشية التى نهجتها الثورات الأوروبية.. أنه "ثورة" بمعنى قوة تغير الأوضاع. فتبعد وضعاً يقوم على الظلم والجهل والانغلاق والأنانية لتبدأ عهد يقوم على العدل والحرية والعلم والنور.. إنه ببساطة وبلاغة يخرج الناس من الظلمات إلى النور .

## كيف توصل القرآن إلى هذا ..

لقد توصل إلى هذا لأنه عرض فكرة الله تعالى عرضاً منطقياً تتقبله العقول وتتشربه القلوب وأثبت قوته القاهرة وحكمته المطلقة وإرادته للشئ كن فيكون، وشرح القيم النبيلة من حب وحرية واتفق وكرم وشجاعة وصدق في القول ووفاء في الوعد وإحسان في العمل، وربطهما في حلقة أسمائه الحسنی. وندد بأسلوب له زخم العواصف والشلالات بالطغاة والطغيان وأن مصيرهم الهزيمة في الدنيا والجحيم في الآخرة وأن العافية هي للمؤمنين الذين لا يريدون علواً في الأرض وكان في أسلوب القرآن من الوعد والوعيد، الترغيب والترهيب ما في كل درجات السلم الموسيقي من رقة تتسلل إلى القلوب ومن صخب يتقب الأذان .

استنفر القرآن كل ما في الإنسان من عقل ومنطق. وكل ما فيه من عواطف الخير والعطاء. كما أسترهيه من كل طغيان أو فساد ووعد الانتصار في الحياة الدنيا والجنة في الآخرة. وأوكل القيام على هذا وتطبيقه لنبي كريم أمين فيه كل مقومات القيادة. فتحققت ثورة الإسلام ..

أن ثورية القرآن.. تختلف عما عهدته الناس من ثورات آدمين يملئها الغضب والثأر وحب الانتقام. فتسفك الدماء وتبيح الحقوق بحجة "الشرعية الثورية" إن ثورية الإسلام هي ثورية الكلمة لا السيف.. الإيمان لا القهر ..

## الأديان ثورات جماهيرية ..

من هذا المنطلق وضع كتاب "تنوير القرآن" نظرية عن أن الأديان في حقيقتها هي الثورات الحقيقية، والمباشرة للشعوب والجماهير فمن كان يفكر في العهود الموعلة في القدم في الجماهير الكادحة من فلاحين وحرثيين. هل هم الملوك؟ ما أبعد هذا، هل هم النبلاء الذين يسترقون الجماهير؟ هل هم الفلاسفة الذين يعكفون فلسفة عسيرة الفهم لا يفهمها إلا القلة في عهد لم تكن الجماهير تميز بين الألف وكوز الذرة! لا أحد كان يمكن أن ينهض في العهد القديم بالجماهير، والجماهير نفسها كانت عاجزة، فقدت أغلبيتها الوعى وتقبلت الاستسلام بينما عجزت القلة التي وعت ما هي فيه من ظلم عن الثورة، وعندما حاولت سحقته ومثل بقادتها.

الأديان وحدها هي التي تدخلت: موسى يدعو لليهودية وإطلاق بنى إسرائيل ويقودهم من مصر "بيت العبودية" إلى أرض الحرية. من كان يستطيع أن يفعل هذا أمام الفرعون دفاعاً عن مجموعة ضعيفة مستذلة، وبأى قوة استطاع موسى أن يقف أمام فرعون ويتحدها؟ بقوة الدين... وتدور القرون وتجد الشعوب والجماهير نفسها وهي في قبضة الجبروت الرومانى الذى هيمن بالسيف والتنظيم على العالم أجمع وجعله تبعاً لروما، ومكن روما من أن تستعبد شعوباً بأسرها.. هل كان يتصور أن يستطيع نبي مغمور ولد في إحدى قرى الإمبراطورية وتبعه بعض صيادى الأسماك والحرثيين هل يتصور أن يجابه هذا الرجل الجبروت الرومانى بشرعة الحب.. إن الصراع بين المسيحيين والرومان يمثل أفسى معركة للصراع ما بين الوثنية والدين. الوثنية التي تسترق الناس والدين الذى يحررهم وانتصرت المسيحية .

وأخيراً تظهر ثورة الإسلام في بادية العرب ووسط القبائل الوثنية المتناحرة والتي كان قصارى فخرها سبق جواد وإنشاد قصيدة أو كسب رهان.. وكانت الغارات بعضهم على بعض وسيلة مقرررة لمقاومة الجذب. ظهر محمد رسول الإسلام فوحد هذه القبائل، وجعلها تنبذ إلهتها الحجرية وشرابها المسكر.. ورهانها.. وغاراتها.. فوجدها.. ووضع في يدها الكتاب والميزان.. لتصلح أوضاع العالم الطبقي ما بين فارس وبيزنطة ..

أليست هي ثورات بالمعنى الدقيق للثورة.. ألم يكن لها فكر نظري مميز يتبلور في عقيدة.. ألم تشترك فيها الجماهير بل ألم تكن الجماهير هي مادتها ألم تحقق تغييرات شاملة كاسحة في كل ميادين الحياة..

إن أوروبا تحدثنا عن التاريخ السياسى وتاريخ الملوك والأسر المتوجه والنبلاء والأمراء، وما استجد بينهم من حروب أو تذكر لنا التاريخ الاقتصادى الذى يجعل التاريخ يسير تبعاً للاقتصاد ولما تمليه علاقات ووسائل.. ولكنها لا تحدثنا عن التاريخ الدينى.. لأنه لم تتبعث منها الديانات الكبرى ولا ظهر فيها الرسل من أولى العزم..

إن ثورات الأديان تختلف عن الثورات التى قامت بها الدول الأوروبية وأجرت الدماء أنهاراً وانتهكت كل أصول الشرعية. أن الدماء فى ثورات الأنبياء هى دماء الذين قاموا بها والذين استشهدوا فى سبيل الدفاع عنها. وليست دماء الذين قتلتهم هذه الثورات لأن ثورات الأديان ثورات كلمة لا ثورات سيف.. ثورات إيمان.. وليست ثورات سنان .

بالإضافة، فإن ثورات الأديان قدمت أسمى مثال للقادة. فهم من الشعب يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق. ولم يصلوا إلى زعامتهم بالحسب أو النسب أو الجاه ولكن بالخلق والصبر والإيمان ومواصلة الدعوة حتى اكتسبوا إيمان الجماهير. وهم فى قيادتهم للثورات لا يبيغون علواً ولا يحسون زهواً ولا يكسبون مالاً أو يتمولون ثروة. ولا يرهيون اتباعهم ولا يفرضون إرادتهم بحكم السلاح إنهم ابعد ما يكونون عما تقدمه لنا دراسة التاريخ للقادة السياسيين والعسكريين والملوك الذين إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ..

إذا كانت الأديان قد قدمت أعظم الثورات شأناً فى التاريخ وأقربها وأمسها بالجماهير والشعوب وإذا كانت قد قدمت النماذج المثلى للقيادة وما يجب أن تتصف به من بعد عن الذاتية وإذا كانت هذه الثورات التى حققت أعظم تغيير فى العالم قد حدثت دون سفك دماء أو بدماء قليلة معظمها من أصحابها الذين استشهدوا فى سبيلها ...

إذا كان الأمر كذلك فكيف يجوز أن تغفل هذه الصفحات المؤثرة فى تاريخ الإنسانية؟ كيف جاز أن يتجاهل هذا الجانب التاريخى للجماهير التى اشتركت فيها.. كيف جاز الإدعاء أن الأديان "أفيون الشعوب" وأنها "تضحية بالدنيا فى سبيل الآخرة" ..

كلاً أيها السادة لقد أقامت الأديان الدنيا على أحسن تقويم فأحلت من ناحية "حكم القانون" ممثلاً فى قيم لا يجوز حتى للإنسان أن ينتهكها كما أقامت من ناحية أخرى "حكم الإنسان" بحيث لا تستبد المبادئ بالإنسان فتضحى به فى سبيلها، وبهذا خلصت من مشكلة الحكم.. والتعارض المظنون ما بين إرادة الفرد ومصصلحة المجتمع. وكان سبيلها للقضاء على التناقض هو الإيمان وأن التناقضات إنما جاءت للخطأ فى تحديد المواقف وتعيين الحقوق والواجبات كالظن أنه ما دامت "الأغلبية" تريد، فيجب تحقيق إرادتها صواباً أو خطأ.. إن الدين يتدخل هنا ليوضح أن الأغلبية قد لا تكون على هدى دائماً، ويغلب أن تكون مضللة وليس لها أن تنتهك الحقوق الأساسية التى أقرها القانون الإلهى للإنسان بحيث يكون الصواب الالتزام بالمبدئية ولكن المبدئية إذا أصيبت بالتعصب الأعمى وفقدت حاسة الاعتدال والنقد ومناخ الحرية (والأديان تقوم على حرية الفكر، لأنها إيمان، ولا إيمان إلا بفكر، ولا فكر إلا فى حرية) فإنها تسيء ويجب على الشعب أن يقفها، وهذا كله ما قدمته الأديان لإدارة المجتمع.. وللحيلولة دون تغول السلطة من ناحية أو التعصب من ناحية أخرى .



بعد أن انتهى "تثوير القرآن" من عرض نظريته عن الأديان كثورات جماهيرية تستهدف التحرير.. عرض التطبيق العملي لها بثورة الإسلام فى شبه جزيرة العرب وكيف حولها الإسلام من قاعدة قرشية لكسب المزيد من الأرباح لتجارية واستتباع الجماهير بالهتاه الوثنية إلى أمة لها قيم ولها حضارة أثبتت جديتها واصالتها وقدمت إضافتها إلى تاريخ البشرية وأشهدتها على فترات من أجمل الفترات فى تاريخ البشرية حتى وإن كانت قصيرة ومعدودة ..

## تفريغ القرآن من مضامينه الثورية ..

كيف إذن حدث التحول.. ولماذا لم تستمر ثورة الإسلام إلا أمداً قصيراً .

لقد تقصى الكتاب هذه القضية بكل اهتمام لأنها تصور مأساة المجتمع الإسلامى فأشار إلى أن أعظم عامل أسهم فى التدهور السريع كان تفريغ القرآن من مضامينه الثورية. وأخذ هنا التفريغ الصور الآتى :

١. تفسير القرآن تفسيراً تقليدياً أبعد روحه عن القارئ وشغله بقضايا جزئية لا قيمة لها .

٢. إيثار المنهج النقلى التقليدى "السنى" على المنهج التحررى القرآنى

٣. إقحام مضامين لاهوتية أفسدت عقيدة الله وشقت وحدة الأمة وأدت بما أدت إليه إلى ظهور التصوف وغيره من الاتجاهات البعيدة عن روح القرآن .

وتناول الكتاب كل عنصر من هذه العناصر بالدراسة فتحدث عن جريرة التفسير التقليدى، مستشهداً بما جاء فى كتابنا الأصول العظيمان الكتاب والسنة وغيره من الدراسات، وهذا القسم قد أدرج تقريباً فى فصول هذا الكتاب عن "تفسير القرآن" قدامى المفسرين ..

ورأى الكتاب أن الانتقال من الفقه القرآنى إلى الفقه السننى نقطة انتقال من الفكر التحررى العقلانى إلى الفكر التقليدى النقلى. ومع أن الرسول أمر أن لا تكتب أحاديثه فإن الذى حدث كان التهافت على الأحاديث وركوب الصعبة والذلول بحثاً عن حديث حتى تراكمت "بالأطنان" أحاديث عرقلت، وعوقت، بل وأوقفت عمل القرآن ولم تتجح كل المحاولات التى بذلت لتنقية السنة فقد اتسع الخرق على الراقق .

وضرب الكتاب المثل بثلاثة أحاديث لا ترقى لمرتبة الصحيح المؤكد، ومع ذلك هيمنت على المجتمع الإسلامى وعلى الفكر الإسلامى طوال ألف عام ..

**أولها حديث الأئمة من قريش الذى جعل كل المفكرين الإسلاميين (باستثناء الخوارج) يلتزمون ذلك** وعزز هذا الطريق غير مباشر دعوى الشيعة فى الإمامة، وهو ما يخالف مبدأ المساواة الذى قرره الإسلام، وأن الناس لا يتفاضلون إلا بالتقوى. وإن المناصب لا يشغلها إلا الأكفاء .

**والحديث الثانى "المرأة عورة"** وما دامت المرأة عورة فيجب سترها فى البيوت. وكان هذا الحديث هو أساس الفصل بين الجنسين والحيلولة دون اختلاط النساء بالرجال.. وجعل المجتمع الإسلامى مجتمعاً "ذكورياً" وما يعنيه هذا من حرمان المرأة من حقها فى العمل وفى "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" الذى أوجبه القرآن عليهن .

**والحديث الثالث** "من بدل دينه فاقتلوه" وهو من أحاديث الأحاديث وراويها عكرمة الذي استبعده الإمام مسلم من صحيحه. ومع هذا فكل المذاهب الإسلامية أخذت بهذا المبدأ مما أصلت سيف الإرهاب على كل فكر حر لأن الفقهاء بنوا عليه أن من جحد معلوماً من الدين بالضرورة فهو مرتد. ويتعين قتله ! .

وعمدت قوى التحول إلى إقحام مضامين لاهوتية وصوفية في القرآن الكريم، كانت الأولى تتعلق بآيات الصفات التي مزقت الأمة وتمت بسببها أكبر حركة اضطهاد كادت أن تؤدي بحياة الإمام أحمد بن حنبل - دون أن يكون لها أى معنى. فلم يثر انتباه المسلمين طوال أيام النبوة والخلافة الراشدة آيات الصفات أو يرون فيها ما يمكن أن يكون محور خلاف... ولكنهم شغلوا الأمة بهذه القضية اللاهوتية. بل إنها تمثل كيف شغلت "أحرار الفكر" بدلاً من تطبيق حرية الفكر للجميع حضوا أنفسهم بها دون الآخرين. وبدلاً من أن يطالبوا بتطبيق العدل على الخلفاء الظلمة فإنهم طالبوا بتطبيقه على الله!!، وبهذا تبذرت دعوة أحرار الفكر هذه، بل وجهت ضد الله بدلاً من أن توجه ضد الخلفاء!! وكان التصوف ملاذاً لفريق كبير من الناس ضاق بجفاف الفقهاء والتفافهم حول السلطان أو بانحرافات المعتزلة ودعاويهم على الله.. فانعزلوا عن المجتمع وأقاموا لأنفسهم عالماً خيالياً يحكمه الأقطاب والأوتاد وترأس ديوانه السيدة زينب... ويحفل بالكرامات والخوارق الخ...

واستقطبت الفرق الصوفية جماهير عديدة وكانت هي التنظيم الجماهيري الإسلامى الذى كان يمكن أن يحقق خيراً كبيراً للأمة، ولكنه حقق ذلك لشيوخه وأقطابه وترك الناس يسطلون مشاكل الواقع بينما يتخلل حياتهم أحلام يقظة.. تعلمهم دون أن تقدم شيئاً...

\* \* \*

أدت كل هذه العوامل إلى تفرغ القرآن عن مضامينه الثورية بحيث لم يعد كما كان محور الثورة .. والمطلوب اليوم إعادته إلى طبيعته الثورية التحررية الأولى والخطوة الأولى هي إزالة هذه الغشاوات كل الغشاوات التي أضيفت عليه، بالتفسير والمفاهيم اللاهوتية بحيث يعود القرآن كما أنزل على محمد .

إن القراءة المتدبرة للقرآن.. ككل ستوحى باستخلاص منظومة القيم التي تحكم ثورة القرآن والتي تقوم على مفاهيمه بالنسبة للقوى العظمى التي عنى بها القرآن وهي :

(أ) الإيمان بالله تعالى، كما عرضه القرآن دون زيادة أو نقصان، باعتباره القوة الخالقة لهذا الكون، المدبرة له - والواضحة للقوانين والنواميس التي يسر عليها الكون والمجتمع. وباعتباره أصل القيم التي هي جوهر الهداية من حب أو خير أو حرية أو علم أو عدالة أو مساواة الخ... والتعرف على الفرق بين قيم تنبثق عن الله تعالى فسيكون لها الكمال والشمول وقيم أخرى تضعها النظم فتتجرد من الموضوعية والكمال .

(ب) الإيمان باليوم الآخر باعتباره الإجراء الذى يحقق كمال العدالة التي انتقصت في الحياة الدنيا. فظلم الشرفاء المجهولون حقهم في الاستمتاع بطيبات الحياة وظفر بها من دونهم، كما أنها المناسبة التي تطبق العدالة على الذين أفلتوا منها أو تغلبوا عليها في الحياة الدنيا .

أن اليوم الآخر هو يوم الحساب، هو يوم العدالة، وسواء كان حسابه أو عقابه حسياً أو معنوياً أو غير ذلك. فنحن نؤمن به لأنه كمال العدالة .

ج) الإيمان بالرسول وابرز عنصر هو ما يقدمه الرسول كقائد يمثل أفضل صفات القائد ويسمو فوق إغراء المادة والمنصب والجاه .

د) الإنسان الذى جعله الله خليفته فى الأرض وخصه بالمعرفة وأسبغ عليه نغمه ظاهرة وباطنة وما ينبغى أن يكون لهذا الإنسان من تكريم جسمه فلا ينتهك بإيذاء أو تعذيب، وتكريم روحه بأن لا تفرض القيود على حرية الرأى وتقيد المساواة ما بين الرجال والنساء لأنهم جميعاً من نفس واحدة. ولأنهم أولياء بعض ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. {٧١ التوبة} ..

هـ) القيم التى أبرز القرآن أنها هى التى تلهم الهداية لأنها ليست إلا شعاعاً من أشعة الذات الإلهية ينير للبشر الطريق، فالإيمان بها تعبيراً عن الأيمان بالله، وهذه القيم التى قد تكون خاصة بالنفس والضمير كالتقوى والأمانة والصدق وقد تكون خاصة بالمجتمع كالعدل الذى يجب أن يكون محور وقاعدة كل العلاقات الاجتماعية ما بين الحكم والمحكوم الرأسمالى والعامل الرجل والمرأة الخ... أو تكون بالنسبة للروح كالحرية والمعرفة .

أن هذه القيم هى الغرض الذى من أجله أنزل الله تعالى القرآن وقال : ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾. وهى ما تجمله الآية ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾. لأن العبادة هى رمز لكل الأعمال الصالحة .

\* \* \*

ودعا تثوير القرآن إلى دراسة القرآن طبقاً للموضوعات التى سبقت إليها الإشارة بحيث يوضع فى كل منها ما جاء به القرآن عنها، وبهذا تتكشف المعانى وترزق الشمول، ويتعمق الإيمان بها ..

بهذا يحقق القرآن ثورته، وهى كما قال الكتاب ثورة الكلمة والإيمان وليست ثورة السيف والسنان، ويتم تغيير المجتمع دون حاجة إلى سفك دماء أو انتهاك لأى شرعية لأن ثورة الإسلام هى ثورة الشرعية فكيف تنتهك الشرعية؟ ..